

تقديم

تفتتح زاوية «أخذ ورد» سلسلة المقابلات التي ننوي نشرها مع عدد من المثقفين السوريين عن نتائجهم الفكري وعن مواقفهم في الثورة والحرب الأهلية الجارية في بلدهم. ننشر في هذا العدد مقتطفات من مقابلة طويلة مع عزيز العظمة أجراها حمود حمود تركّز بنوع خاص على تحليل العظمة للأصولية الجهادية الإسلامية التي يقاربها من زوايا متعددة ومبتكرة. هل ميشال فوكو ليبرالي؟ هذا هو السؤال الذي تثيره دراسة لأوسكار زامورا في زاوية «فيها نظر» التي تسلط الأضواء على جانب مغموّر من فكر الفيلسوف الفرنسي هو انجذابه إلى النيوليبرالية في أواخر حياته، في محاضرات ألقاها في «كوليج دُ فرانس» العام ١٩٧٩. لم تنشر تلك المحاضرات إلا في العام ٢٠٠٤، لكنها أثارت تجاذبات ونقاشات وسجلات لا تزال مستمرة إلى الآن عن حقيقة موقف فوكو من النيوليبرالية، إلى جانب فوكو، يقمّ فيلسوف فرنسي آخر هو ريجيس دُ بريه لمحات موجزة، ولكنها دالة وموحية، عن محطات في مساره السياسي والفكري، ويستعرض آخر مؤلفاته في ثلاث مسائل وثيقة الصلة بالنيوليبرالية هي أيضاً: الإعلام، ودُ بريه منشئ علم الميديولوجيا، والدين وموقعه من الحياة زمن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومسألة الحدود الوطنية بين الدول. كعادته، يفاجئ دُ بريه بمشاكساته والمغايرة والنظر إلى الأمور من زوايا مبتكرة ومفاجئة على الدوام. يتناول موضوع الحدود المشكلات التي تثيرها الهجرة الآسيوية والأفريقية المتصاعدة إلى القارة الأوروبية، وهو موضوع يزداد أهمية مع الزحف الأخير للنازحين السوريين إلى أوروبا بحراً وبراً، فيسعى دُ بريه إلى التمييز بين دور الحدود في الحجز من جهة، ودورها في العبور والتفاعل بين الشعوب من جهة أخرى. ويردّ بالمناسبة ذاتها على فكرة شاعت من نمو العولمة تقول بانتهاء الدولة الوطنية.

الحراك العراقي واللبناني ضد الفساد من أبرز الحركات الشعبية التي شهدتها المنطقة خلال الأشهر الأخيرة. نخصص لهما افتتاحية العدد وتتولى «من باب أولى» استكمال المعالجة. يكتب ودود حمد معرّف الحراك العراقي، قواه والتحديات. وعن الحراك اللبناني، يروي حسان الزين معاشته في الشارع وغرف الاجتماعات. وتكتب سحر مندور من بعيدا القريب. ويتساءل باسل صالح هل التغيير آت؟ وبمناسبة الحديث عن فضيحة النفايات تكتب جسيكا خريزك عن فضيحة دفن نفايات كيمائية سامة في الجبل اللبناني خلال الحرب الأهلية. ومع أن المسؤولين عن تلك الفضيحة – وهم قادة ميليشيات وسياسيون ورجال أعمال – معروفون، فإنهم لم يتعرّضوا لمساءلة أو محاسبة أو عقاب. وتختتم فاطمة رضا هذه الزاوية عن الأحداث الجارية بتجفيف صورة الطفل السوري الغريق.

في «الثورات بشبابها» يثير إبراهيم حلاوي مسألة التنظيم في حركات التغيير بوحى من تجارب الشباب في الثورات العربية. وتشر ساره جمال فصولاً من ليلياتها في صنعاء الواقعة بين مطرقة القصف الجوي للتحالف الحربي على اليمن بقيادة السعودية وسندان مليشيات الهيمنة الحوثية.

في «عالم في عالم» يحلل نوام تشومسكي الاتفاق النووي الإيراني من خلال ردود الفعل الأميركية عليه. وتعرّف سنثيا كريشاتي بحركة «بوديموس» الإسبانية، إحدى الظواهر السياسية – الاجتماعية لليسار الجديد في المتوسط.

بعدما أثّرنا عدداً من القضايا المتعلقة بمواجهة زحف المفاولين والمضاربين العقاريين على الأملاك العامة في بيروت، نتنقل في زاوية «الحق في المدينة» لهذا العدد إلى فلسطين مع مقال نقدي ليارا سيف الحيط عن نمط العمارة المتعددة الوظائف الذي يزداد انتشاراً في رام الله، بفلسطين.

لذكرى مهرجانات بعلبك. ونعرّف أخيراً بشاعرة الحرية الإيرانية فرح فروغ زاد مع مختارات من شعرها بترجمة وتقديم الشاعرة مريم حيدري.

تستقبل «ثقافة الناس للناس» مختارات من أشعار بالعامية المصرية للشاعر زين العابدين فؤاد، يسرّنا أن نضمها إلى نتاج الأشعار بالعامية العربية التي نعتزم الاستمرار في التعريف بها. يكتب جون برجر، بطريقته المميزة، عن العلاقة بين الغناء والجسد في «نهوند». ويعرّف زياد دلال بـ«الهيّيب هوب العربي»، صوت التمرد والسخرية، من خلال أحد أبرز وجوهه، مازن السيد («الراس»). ونختم العدد بكلمات «هيّيب هوب» من تأليف وأداء «الراس» وناصر الدين الطفار، ألقيت بمناسبة الحراك الشعبي المستمر في بيروت.

على صعيد آخر، أبحرنا في الفترة الأخيرة تجهيز موقع «بدايات» وهو قابل الآن لاستقبال الاشتراكات والتبرعات، والدفع عبر البطاقة المصرفية. وفتحنا صفحة على «فايسبوك» سوف ننشر فيها كل ما يتعلق بالمجلة، بما في ذلك التعريف بمقالات سابقة، إلى هذا، جمعنا الأعداد العشرة الأخيرة في عبوة واحدة جاهزة للإرسال حسب الطلب إلى عنوان «الايمل» الخاص بالمجلة.

ابتداءً من هذا العدد نعتزم إطلاق حملة اشتراكات وتبرعات قصد تأمين ميزانية السنة المقبلة، علماً أن المجلة لا تزال تمول نفسها عدداً بعدد، ما يرهق كاهل فريقها الصغير ويشغله عن تطوير المجلة وتوسيع مساحات توزيعها واستقطاب العدد المتزايد من الكتاب والقراء لها.

هذه الكلمات بمثابة نداء لنصرة هذا الجهد في الصحافة اليسارية المستقلة بالقراءة والكتابة والترويج، وأيضاً بالمساهمة في تأمين الحد الأدنى من أجل أن تبقى «بدايات». «بدايات»

البصريّات في هذا العدد مخصصة لمدينة حلب بين عتمة ونور في مجموعة صور لامعة لمظفر سلمان بعنوان «من النافذة يأتي الضوء وكذلك الرصاص» يقدم لها فؤاد فؤاد. في زاوية الكتب، يراجع صبحي حديدي كتابين جديدين عن الجيل الجديد من العرب في زمن الهجرة والانتفاضات. ملف العدد مخصص للمجاعة في المناطق اللبنانية خلال الحرب العالمية الأولى، التي حصدت ربع السكان، تفتتحها دراسة للمؤرخ جوزيف معوض وتليها شهادات معاصرة للخوري أنطون يمين إضافة إلى قصائد لشعراء ونصوص لأدباء عن تلك الفترة. يثير موضوع المجاعة العلاقة بين الذاكرة والتاريخ، حيث تشجع الأحداث الفاجعة دوماً على التفسير المؤامراتي. لكنه يتعلق أيضاً بالنقل والإبدال في تذكّر حدث معين حين يجري استبداله في الذاكرة الجمعية أو الرسمية بحدث آخر، وفقاً لمقتضيات الحاضر.

يفتح ملف المجاعة مساهمتنا في إحياء الذكرى المائة للحرب العالمية الأولى. وسوف ننشر خلال الأعداد المقبلة الوثائق والنصوص والمذكرات والدراسات عن لبنان والمنطقة خلال سنوات تلك الحرب، بما هي حدث تأسيس في تاريخ المنطقة وعلاقتها بالعالم. ولا نطمح إلى إلقاء أضواء جديدة على مجريات الحرب وحسب، إنما أيضاً، وخصوصاً، على الأحداث والاتفاقات التي جرت خلالها وتحكمت ولا تزال، بمصير المنطقة لفترة طويلة من الزمن، بما فيها اتفاقية ساكس - بيكو، ووعد بلفور، وفرض الانتدابين الإنكليزي والفرنسي والتجزئة على المشرق العربي، وتشريع الاستيطان الصهيوني ضد إرادة شعبه.

نفتتح قسم «نون والقلم» بفصل خصّنا به إلياس خوري من روايته الجديدة «أولاد الغيتو» التي تصدر قريباً عن دار الآداب. تليه قصيدة «بعلبك» التي كتبها إتييل عدنان تحية

الحراك الشعبي في العراق ولبنان ملفات الفساد بيد الناس

فواز طرابلسي

الموصل ونحو ثلث مساحة البلاد، وانكشاف فضائح التمييز المذهبي والفساد لحكومة نوري المالكي وقد جرى استبداله بقيادي آخر من «حزب الدعوة»، هو حيدر العبادي. وفي لبنان، شلل شبه كامل لقمة الحكم: مجلس نواب مدد لنفسه عاجز عن انتخاب رئيس للجمهورية، وحكومة عاجزة عن اتخاذ ايسر القرارات المتعلقة بصرف رواتب موظفيها بسبب النزاعات بين اجنحة الحكم.

لم يخل الامر من تعرّض الحراك للقمع. الى جانب القمع السلطوي، الذي بقي ضمن حدود في الحالتين، تدخلت عناصر ميليشياوية تابعة لـحزب في السلطة في الحالتين المتظاهرين ادت في الحالة العراقية الى اغتيال احد منظمي التظاهرات في البصرة مثلاً، المحافظة الاغنى بالنفط التي هي في الوقت ذاته افقر المحافظات العراقية قاطبة.

الفساد مبرّر لا سبب

ارتبط موضوع الفساد ارتباطاً وثيقاً بالعودة القوية لاقتصاديات السوق وبالهيكلة الاقتصادية والخصخصة وتسلط رأس المال على الخدمات والاملاك والمساحات العامة. واخذت اشكال الانتماء والتضامن قبل الرأسمالية دفعة قوية مع سيادة نيوليبرالية من خلال تسييس الاختلافات الاثنية بمعناها الواسع الذي يشمل الدين. شكلت المحاصصة السياسية الطائفية والمذهبية في النظامين العراقي واللبناني الغطاء الاثير للفساد. لكن الطوائف غطاء للفساد والاستغلال وليست هي سببه. ويسهل استخدام موضوع الفساد لحرف الانظار الى الطبقة السياسية والزعماء السياسيين عن الطبقة المسيطرة اقتصادياً علماً ان الحكام، في الحالتين،

شهدت الاشهر الاخيرة في العراق ولبنان تحركات شعبية ناشطة ضد فساد الطبقة الحاكمة في البلدين تلتقي على ادانة الفساد والطائفية.

«باسم الدين باكونا الحرامية» هو الشعار المدوي الذي أطلقته جماهير عراق وهي تحاصر الابنية الحكومية ومراكز المحافظات او تتجمع في الساحات منددة بنهب الدولة واهدار المال العام عن طريق المحاصصة الطائفية. لم يختلف الامر كثيراً في لبنان حيث امضى وسيلة لتغطية الفساد هي الطائفية. وهذا ما افصح عنه جهارا نبيه بري، رئيس المجلس النيابي اللبناني ورئيس حركة «امل»، حين قال عن المتظاهرين «لولا الطائفية، لكانوا جرّونوا من داخل بيوتنا».

الصاعق الذي فجر الغضب الشعبي في الحالتين هو انهيار خدمات الدولة: الكهرباء في العراق وجمع النفايات (والكهرباء) في لبنان.

ضم الحراك نسبة عالية من ابناء الطبقات الوسطى والمتقنة ومن ناشطي المجتمع المدني بهيئاته المختلفة، وشارك فيه جمهور شعبي حمل معه مطالبه المعاشية والاجتماعية. ويلاحظ في الحالتين حضور كثيف لعنصر الشباب، ومساهمة نسائية محدودة، وضعف مشاركة الحركة النقابية العمالية.

من الناحية السياسية، شكل المتظاهرون عينة عن لبنانيين انفكوا عن الاستقطاب الذي يهيمن على الحياة السياسية بين كتلتي ٨ و١٤ اذار. وفي العراق تكوّن احتشاد شعبي خارج الكتل الرئيسية للسلام السياسي بمذهبيه وإن يكن حظي بدعم مرجعية النجف، وبمشاركة انتقائية للتيار الصدري و«عصائب الحق».

انطلق الحراك في مناخين سياسيين مأزومين. في العراق، انهيار الجيش العراقي واستيلاء داعش على

للانصراف عن قضايا الفساد بإسم الوضع الامني والحملة على «داعش».

في المقابل، تصرّ قوى الحراك على تقديم المسؤولين عن الفساد للمحاكمة واستعادة المسؤولين الفاسدين الفارين إلى الخارج واستعادة الاموال المنهوبة. وكم كان ملفاً أن تندد مسيرات عاشوراء العراقية بالفساد والمذهبية، على عكس المسيرات اللبنانية التي كان جلّ غرضها شدّ العصب المذهبي والحزبي.

الصورة مختلفة في لبنان حيث لم يشترك الحراك اللبناني مع السلطات الا في موضوع النفائات واقتصرت الاشتباكات مع قوات الامن على محاولات المتظاهرين الوصول الى ساحة البرلمان. لم ينجح الحراك في فرض استقالة وزير البيئة والداخلية، مع انه ابطل مشروع تلزيم جمع النفائات عن طريق المحاصصة وباكالاف عالية جداً، ووضع موضوع تسليم مهمة معالجة النفائات الى البلديات، على جدول الاعمال. على ان الاولوية التي لا يزال الحراك اللبناني ملتزماً بها هو مواصلة الضغط من اجل رفع مئات الاطنان من النفائات المتراكمة تداركاً لكارثة بيئية وصحية خصوصاً مع بدء موسم الامطار. ولم يبق من مطال الحراك الاصلية غير مطلب «انتخابات نيابية دستورية وعاجلة» وهو يقتضي تقديم تصوّر لنظام انتخابي بديل (النسبية، القائمة المغلقة، لبنان دائرة واحدة، التصويت في اماكن السكن، الخ). إن لم يرد ان يكون المطلب دعوة للطبقة الحاكمة ان تجدد نفسها بواسطة نظام انتخابي يناسبها.

كل الاحتمالات مفتوحة امام الحراكين: التحول الى حركة اجتماعية متواصلة تعمل من اجل الشفافية ونظافة الكف في السياسة فتثير قضايا تطبيق قانون الاثراء غير المشروع في لبنان او اللجوء الى محكمة النظافة في العراق، وتدخل الحملة طرفاً في محاكمة المتهمين بالفساد، واستعادة حقوق الدولة والمواطنين في الاموال والاملاك العامة، الخ. ويمكن ان يسهم الحراك بذلك في تدشين سياسات يومية يستعيد بها المواطنون الخدمات الرئيسة من ماء وكهرباء ونظافة وفضاءات عامة. وفي مقدور الحراك ان يحقق خرق اعظم في آليات عمل الطبقتين الحاكمين بفرض تحقيق مطالب أكثر جذرية تلبي مصالح الفئات الشعبية الاوسع التي شاركت في الحراكين وعقدت وتعقد عليها آمالاً عريضة.

باتوا في معظمهم رجال اعمال، وشركاء رجال اعمال، وممثلين لكتل من المصالح الرأسمالية، وان فرض الحقوة على نشاطات رأس المال باتت له قواعد واشكال جديدة متطورة.

من هنا ينبغي التحذير من ان اختزال المشكلات بالفساد يسهم في التغطية على ما تحويه طبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي من اليات استغلال واعادة انتاج للفوارق الاجتماعية في الفرص والثروة والمداخل والملكية والوصول الى الموارد.

ولم يكن هذا الاختزال عفو الخاطر. صدور موضوع الفساد من قبل البنك الدولي لفرض برامج التخصيص واخراج الدولة من ادوار الخدمة العامة والتوزيع الاجتماعي. فيحجة منع الفساد، يجري الضغط من اجل خفض نفقات الدولة - ولكن مع تشجيع المديونية! - واجراء عمليات تسريع واسعة وتلزم اجزاء متزايدة من الخدمة العامة الى القطاع الخاص او عقد الشراكة معه من اجل تنفيذها. اما الفساد، وهو الوسيلة الاثيرة التي يسيّر بها أصحاب المال مصالحهم ومعاملاتهم ويخفضون اكلافهم، بواسطة التحايل على القوانين والمساءلة والعقاب، فله التبشير بالشفافية، وب«اخلاق البرنس»!

ملفات الفساد في الشارع

انتزع الحراك في العراق وعوداً من حكومة حيدر العبادي باصدار حزمة اصلاحات تضمنت اجراءات ضد التهرب الضريبي ولخفض رواتب كبار الموظفين وتشكيل لجنة عليا لمكافحة الفساد تفتح الملفات السابقة، وتعهدت ايضا بحل مشكلات الكهرباء والنقل والتوزيع. وقد الغت الحكومة مناصب نواب رئيس الدولة ونواب رئيس الوزراء، وقُلصت عدد الوزارات وأقلت ١٢٣ من كبار الموظفين، وحدّت من امتيازات النواب المالية. وصدرت احكام قضائية باعتقال وزير التجارة الحالي ووزير الكهرباء ومحافظي بغداد السابقين بتهمة الفساد. الا ان معظم تلك الاجراءات لم تأت بعد نتائجها. فنواب رئيس الجمهورية باقون في امكنتهم بمن فيهم رأس الفساد والمذهبية، مهندس انهيار القوات المسلحة العراقية، نوري المالكي، الذي تعاند معظم اجنحة الحكم محاكمته بالحجة المذهبية القائلة ان قرار المحاكمة هو «قرار سياسي شيعي». الى هذه المعوّقات يجب ان تضاف الحجة الاثيرة الداعية

الحراك العراقي «باسم الدين باكونة الحرامية»

ودود حمد

كاتب عراقي.

Shell أو Exxon-Mobil، إلخ) مُتَّيَّة من حوالى أربعة بالمئة من النفط المُستخرج من حقول الشرق الأوسط وغيرها من المناطق في العالم. هذه الأربعة بالمئة تُوظف في تصنيع المواد المستخدمة في صناعة الطائرات والسيارات، وكذلك المواد الكيميائية المستخدمة في صناعة الأدوية والعطور والأصباغ وحتى بعض مكونات المواد الغذائية.

المغزى من الشرح المستفيض نسبياً هو إيضاح الجدلية التاريخية التي أرجعت العراق فعلياً إلى القرن التاسع عشر. عراق ٢٠١٥ يستورد الورق وأقلام الرصاص والإسمنت وحتى التمور والبطيخ. لقد تغيّر نمط الحكم في العراق من شمولية البعث إلى تعددية حكم اللصوص، وكل من وصل دفة الحكم بعد العام ٢٠٠٣ لص أو وُعميل لهذه الدولة أو تلك. لكن لكل قاعدة استثناء، ومن لم يُجار منظومة المحاصصة والسرقة، قُتل أو نُفذ بجلده إن كان محظوظاً. وقد تفاقم الوضع المجتمعي والسياسي في العراق بعد العام ٢٠٠٣ بسبب أدلة الإسلام السياسي الشيعي لميثولوجيا مظلومية شيعية وفق منظور شوفياني إقصائي. إذ انتهج الإسلام السياسي الشيعي الأسلوب البعثي بامتياز، وتجاوزت منظومة الإسلام السياسي الشيعي عن عمد التمييز والاستغلال والقمع الذي تعرض له أغلبية الشيعة (وجلهم فقراء) عبر التاريخ من قبل ثنائية السلطة الرسمية واللاهوت الديني الشيعي. والتاريخ شاهد كيف استغل رجل الدين منصبه الروحاني لمصالح شخصية بحتة، وصلت أوجها بعد الاحتلال الأميركي للعراق.

«باسم الدين باكونة (سرقونا) الحرامية»...

يدافع العراقيون اليوم عن وجودهم الإنساني ويطالبون بخدمات تليق بالبشر في هذا العالم الذي يحمي أساساً وجود الأغنياء وأجهزة الأمن والأمراء. آلاف العراقيين،

بعد خمسة وثلاثين عاماً من دكتاتورية البعث وثلاث حروب دموية وحصار اقتصادي ظالم، حطم النسيج الاجتماعي في العراق وعرقل ديناميكية التطور المجتمعي، جاء الاحتلال الأميركي في العام ٢٠٠٣ ليُجهض آمال المجتمع ويدخل البلاد في دوامة المحاصصة الطائفية والعرقية والحرب الأهلية المعلنة أحياناً، والمستترة أحياناً أخرى. تخصصت حكومات المحاصصة بامتياز في احتقار الشعب والتفنن في سرقة أمواله، وكانت ورقة الطائفية الأساس لضمان استمرارية الحكم لمجموع اللصوص والتافهين.

ركّز البعث في العراق (وسورية أيضاً) وإن اختلفت التطبيقات) على السيطرة الشمولية لكل نواحي الحياة. فالتعليم والصحة والصناعة والثقافة، بالإضافة إلى الأجهزة الأمنية الأخطبوطية، جعلها خضعت للتبعيث بشكل مبرمج ومكثف منذ العام ١٩٦٨. لكن كان هناك حد أدنى من الخدمات، فالنظام التعليمي العراقي كان، على محدوديته، واحداً من أفضل الأنظمة التعليمية في العالم العربي والشرق الأوسط عموماً، كذلك الجهاز الصحي والحدّمي (الماء والكهرباء، إلخ). في المقابل، لم يكن البناء والتطوير من أولويات البعث، إذ عانت صناعة البتروكيماويات في العراق، الوحيدة في منظومة دول العالم الثالث المصدرة للنفط، إهمالاً كبيراً منذ تسلم البعث السلطة عام ١٩٦٨، ولم تستثمر الدولة ما يُذكر في تنمية وتطوير هذه الصناعة المهمة. ومن الجدير بالذكر أن الفائدة العظمى للنفط لا تكمن في كونه مصدراً مهماً للطاقة فحسب، بل أساساً في المنتجات الاستهلاكية والصناعية التي أصبحت جزءاً لا يُمكن الاستغناء عنه في حياة أي مجتمع متطور، أو شبه متطور. أكثر من ٥٥ بالمئة من إيرادات كبرى الشركات النفطية العالمية (BP أو

هامشياً في الحراك الشعبي في ٢٠١٥. لا يتفهم، وربما لا يفهم، الكثيرون دواعي مشاركة الحزب في حكومة برهم الانتقالية حين كان العراق تحت الاحتلال الأميركي. وكانت مشاركة الأمين العام للحزب حميد مجيد موسى ممثلاً عن «المكون الشيعي» وفق التقسيم آنذاك صفقة في وجه العلمانية ومبادئ الحزب الأساسية. ثم أتت مشاركة الحزب في أكثر من ائتلاف، تارةً مع «القائمة العراقية» التي تزعمها أياد علاوي، وتارةً أخرى مع «التيار المدني» الذي يضم لفيفاً غربياً من دعاة الليبرالية في العراق وبالتحديد مثال آللوسي المتحمس للعلاقات مع دولة إسرائيل. هكذا يستعيد الحزب الشيعي، أو الجناح المعروف باللجنة المركزية، تاريخاً مريراً من التحالفات السيئة مع حزب البعث في سبعينيات القرن الماضي. هذه التحالفات انتهت بمطاردة سلطة البعث الحاكمة آنذاك لكادر الحزب وإعدام أو تشريد الآلاف من أعضائه ومناصريه. وقد رفض المتظاهرون في بداية الحركة الاحتجاجية الحالية السماح لبرلمانية من «التيار المدني» باعتلاء منبر مع حشود المتظاهرين إن لم تتخل عن منصبها وامتيازاتها البرلمانية.

الفساد والمحاصصة الطائفية والعرقية

استمرت التظاهرات في بغداد وعموم مدن الوسط والجنوب العراقي، وإن امتازت بشيء فهو لاطائفيتها الواضحة ورفض عموم المتظاهرين لأي خطاب طائفي أو عرقي. تباينت أعداد المتظاهرين بين ما يزيد على عشرات الآلاف في حرّ آب/ أغسطس إلى بضعة آلاف خلال الأسابيع الأخيرة، ولكن الزخم مستمر حتى الآن. استقرت التظاهرات الاحتجاجية على الشباب خارج نطاق الأحزاب السياسية المساهمة في عملية المحاصصة، وبالأساس خارج مَعَمَّة الأحزاب الإسلامية الشيعية. فبين حين وآخر، شارك مناصرو مقتدى الصدر (التيار الصدري) بكثافة في التظاهرات، ولكن سرعان ما خفت حماستهم وتركوا ساحات الاحتجاج، إذ إن أبرز عناصر الفساد والسرقة في الدولة العراقية مقسمون بين حزب الدعوة وحزب المجلس الإسلامي والتيار الصدري، مع حضور ثابت وواضح لعناصر الحزب الإسلامي (القريب من الإخوان المسلمين) والقائمة العراقية (بكافة انشغافاتها، والمقربة من التكتلات السنّة والجهات البعثية). هكذا تخلصت الاحتجاجات الجماهيرية تدريجياً من التأثيرات المباشرة للأحزاب الإسلامية بتنوع مشاربها. وقد شاركت بعض المنظمات العمالية والنسوية في التظاهرات

نساء ورجال، ملأوا ساحتي التحرير في بغداد والحبوبي في الناصرية وشوارع وساحات عراقية كثيرة يهتفون «باسم الدين باكونة الحرامية» ويطالبون بإلغاء المحاصصة الطائفية وإقالة الوزراء والبرلمانيين ومحاسبة الفاسدين والسارقين. ويكمن جوهر الاحتجاجات الجماهيرية من البصرة إلى كركوك في أن نسبة من هم دون الثلاثين تُقدَّر بما يزيد على الستين بالمئة من مجموع سكان العراق، ونسبة البطالة وسط الشباب وصلت السبعين بالمئة (ولا يزال العراق يفتقد في العام ٢٠١٥ الإحصاءات الحكومية الدقيقة لعدد سكان البلد ونسبة الشباب، إلخ. وما نُورده هنا مبني على تقديرات فردية قابلة للمراجعة).

بدأت التظاهرات العفوية في أوائل شهر تموز/يوليو في البصرة عندما خرج أهلها يُنددون بالوضع المعيشي المأساوي، وفي السادس عشر من الشهر نفسه قُتل الشاب مُنتظر علي الحلفي برصاص الشرطة المحلية (في قضاء المدينة) وهو يتظاهر ويحلم بمستقبل أفضل. واستمرت الاحتجاجات لتصل بغداد أوائل آب/ أغسطس لتُعبّر عن التدهور المستمر والمتفاقم للأوضاع المعيشية والاقتصادية والأمنية في البلد ككل. خروج الشبان والشابات، بكثافة مميزة، خارج نطاق الأحزاب السياسية، علمانية كانت أو دينية، يشير إلى تبلور وعي سياسي يميّز بين السلبي/ الإيجابي والرَجعي/التقدمي بدون الحاجة إلى بوصلة ذوبهم المهترئة أو التأويلات الغيبية لمترفي الشنات العراقي. إن تظاهرات الآلاف هي البداية الضرورية للتغيير السياسي والاجتماعي من خلال منحى معقول بعيداً عن المزايدات والمهاترات.

لقد حاولت الأحزاب الإسلامية الشيعية الالتفاف على التظاهرات، لا سيما في بغداد، وأبرزها محاولة «عصائب أهل الحق» التقرب من بعض النشطاء المدنيين المعروفين بالتملق للسلطة. لكن لم تنجح هذه المحاولات، واستنفذ الإسلاميون - المناوئون حيناً والمناصرون حيناً آخر للحكم الحالي، كعصائب أهل الحق وبعض الأحزاب المنافسة، لتفرد حزب الدعوة كحزب المجلس الإسلامي بزعامة عمار الحكيم - رصيدهم ورفضهم المتظاهرين بوضوح وإصرار. حاول الحزب الشيعي العراقي نهاية فصل الصيف تجنيد نفوذه وشعبيته (المحدودة في أوساط الشباب) في دعم التظاهرات والسعي لقيادتها، إلا أن ذلك جُوبه بنوع من الحذر من قبل المتظاهرين الشباب، إذ إن الحزب الشيعي العراقي الذي كان قادراً على حشد ما يزيد على مليون متظاهر في أواخر خمسينيات القرن الماضي، أصبح

الاحتجاجية، إلا أن ضعف الحضور العمالي في الوسط الاحتجاجي كان واضحاً. تنظيماً النقابات العمالية والمهنية كانت مسموحة قبل ٢٠٠٣ ولكن تحت راية حزب البعث، ولم يكن هناك أي وجود مُستقل للتنظيمات العمالية. تفاقم الأمر بعد ٢٠٠٣ إذ لم يُسمح، حسب قانون الوصاية الأميركية، بتأسيس (أو بالأحرى إعادة تأسيس) تنظيمات عمالية ومهنية مستقلة.

الجدير بالذكر، أن منظمي التظاهرات الاحتجاجية جابهوا تحديات شخصية من قبل أجهزة «أمنية» وأخرى «مجهولة» (تقرأ ذات صلة بأحد المتنفذين في الدولة أو البرلمان أو الأحزاب الإسلامية الشيعية). وتعرض البعض لحالات اعتداء وتهديد بغيّة الكف عن المشاركة في الاحتجاجات، وربما كان أبرزها الاعتداء على الناشط وأحد منظمي التظاهرات خالد جميل رضا العكيلي وقتله رمياً بالرصاص أمام بيته في الكوت (محافظة واسط).

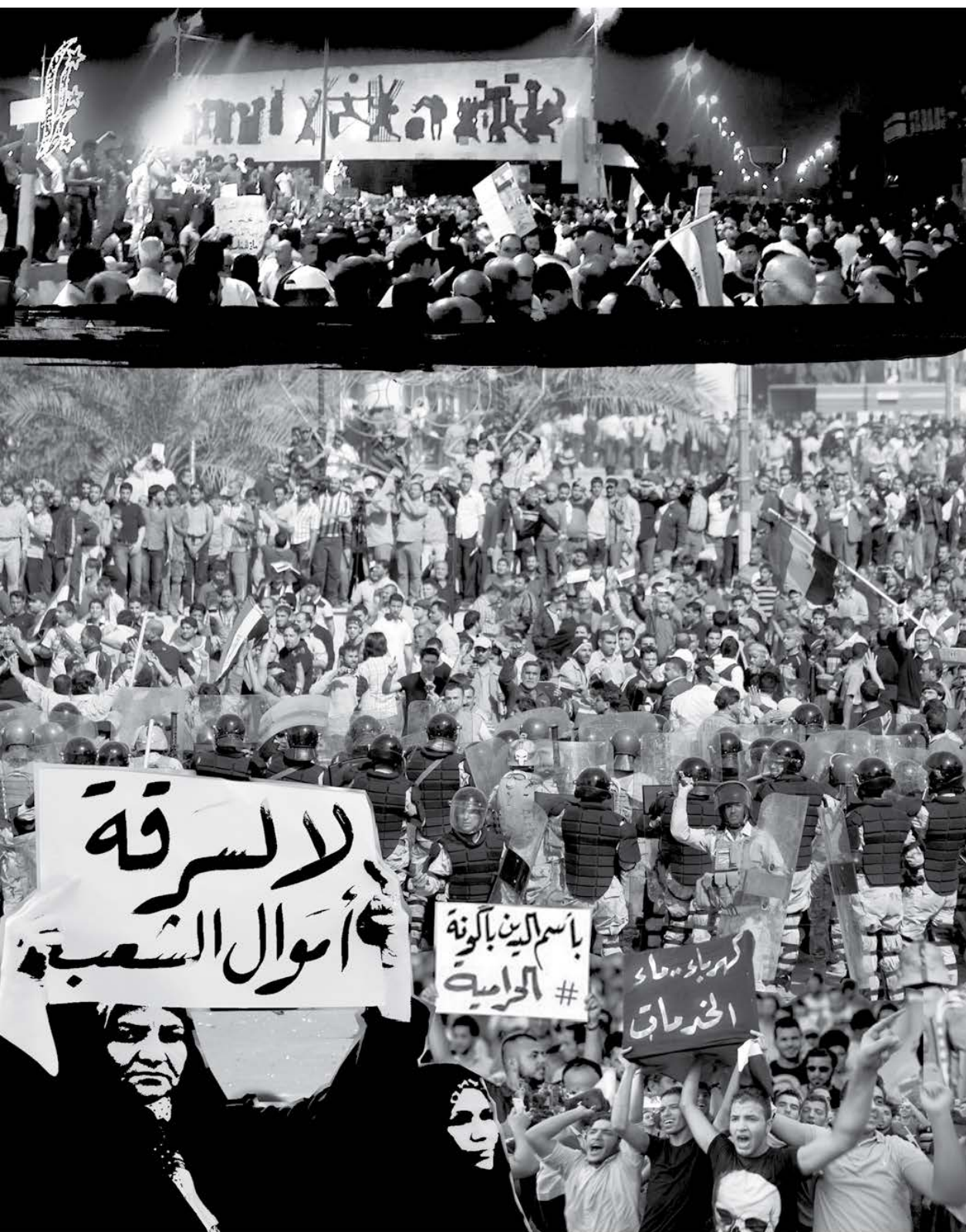
برغم الطابع اللاتنافي للتظاهرات من البصرة إلى بغداد، فشلت في توحيد وجهات النظر مع شباب المناطق الغربية والشمالية. فثلث العراق، شمالاً وغرباً، لا يزال إما تحت سيطرة داعش أو مُهدداً منها. العراق، شتناً أم آييناً، خضع لتقسيمات عنيفة خلال العقد الأخير وسيطلب رآب الصدع بين الفئات المجتمعية مجهوداً كبيراً يستوجب أساساً الخروج من فخ المحاصصة الطائفية وإدراك مسائل متعددة أهمها واجب اعتذار الكثير من الوسط العلماني الشيعي عن ردود الفعل إزاء أهل الموصل ومناطق سهل نينوى عقب احتلال داعش لتلك المناطق. لقد عانى أهل الموصل والمناطق المحيطة من تهيش حكومة المالكي أساساً ومن ثمّ إجرام داعش، ولكن للأسف الكبير شكك البعض في دور أهل الموصل في ردع التنظيم وفي معاناتهم قبل وبعد سيطرته على مناطقهم. المطلوب هو مصالحة وطنية يقودها شباب العراق بعيداً عن الهيكلية السياسية المهترئة، وبالتأكيد بعيداً عن مفاهيم المناطقية والمحاصصة. وستتطلب هذه المسألة جهداً كبيراً لا سيما أن حكومة نوري المالكي ساهمت كثيراً في تعميق الهوة بين المناطق والطوائف والأديان في البلد على مدى ثمانية أعوام بسبب سياسات الإقصاء والتهيش ضد أهالي المناطق الشمالية والغربية.

المنطقة الخضراء: بؤرة الفساد

في إحدى تظاهرات البصرة (يوم السبت ٨ آب / أغسطس) رَفَعَ مُتظاهراً لافتةً مهترئة المظهر، عميقة المعنى، يُطالب

فيها بمحاكمة نوري المالكي على مذبحه سبايكر (التي ذهب ضحيتها ما يُقدّر بألف وسبعمئة مُجند عراقي بأيدي مُجرمي داعش). إذ حاول المالكي ونخبته عَجَن فردية الحكم الصدامي مع شمولية البعث بطائفية حزب الدعوة، وفي طريقهم قاموا بالتحضير لنهب السلطة والثروات في البلد. وفي رطانة أيديولوجية، وظفها الإسلام السياسي بامتياز، هياؤا أنفسهم لخدمة المحتل الأميركي ونقيضه المُمَوَّل الفكري (الإيراني بما يخص الأحزاب الشيعية، والسعودي أو الخليجي بالنسبة للأحزاب السنية) سعياً للحفاظ على السلطة وامتيازاتها المادية. تحت راية المالكي وحزب الدعوة، تحالفت بقايا البعث العراقي مع داعش واحتلوا ثلث العراق، فيما البرلمان ورئاسة الوزراء والجمهورية وقادة الجيش منغمسون بالنهب والسرقة في وضع سريالي، أشبه باللامعقول. ترك أكثر من مليوني مُهَجَّر (لا نازح، حسب الوصف الإعلامي غير الدقيق) سهل نينوى وصحراء الرمادي ولا يزالون في وضع سيئ، وما يُشكل وصمة عار يندى لها جبين الإنسانية جمعاء هو السكوت المطبق عن مصير الطائفة اليزيدية، إذ قُتِل مئات الرجال البالغين على يد داعش وشبّيت النساء وبيعت الشابات دون العشرين عاماً. حَصَلَ كل ذلك وحكومة المالكي مستمرة بنهجها الطائفي والسرقة ليل نهار. لم يتغير الكثير فعلياً بعد تسلّم حيدر العبادي رئاسة الوزراء إذ حافظ المالكي وأزالاه على سلطة النهب والسرقة.

أجبرت التظاهرات رئيس الوزراء الحالي حيدر العبادي على تقديم مذكرة إصلاحات إلى البرلمان. والقيمة الفعلية تكمن في إدراك السياسيين العراقيين أن الأمور تغيرت وأنّ الآتي أعظم. أضحت حكومة العراق، وهي الأكثر فساداً في منظومة الدول حسب تقارير الأمم المتحدة ومنظمات غير حكومية، منذ العام ٢٠٠٣ وكراً للفساد السياسي والمالي، وتفنن الإداريون في السرقة والنهب. فقد اكتشفنا أن في العراق ما يزيد على سبعمئة منصب وكيل وزير (عدد الوزارات كان ٣٣، طلب العبادي أخيراً تقليصها إلى ٢٢) وما يزيد على ألف مُستشار وأربعة آلاف مُدير عام، وشبكة هائلة من الحماية لكل مسؤول حكومي. هذا بالإضافة إلى الامتيازات الخيالية لنواب البرلمان، والتي مكنت الكثير منهم من أن يصبحوا أغنياء جداً بين ليلة وضحاها - ومصارف وعقارات لندن وجنيف وبيروت ودبي وعمان وأنقرة واسطنبول خير دليل على ذلك، ومن المضحك المبكي، على سبيل المثال لا الحصر، أجرى برلماني عملية جراحية (بواسير) في ألمانيا، في العام الماضي، على



نَفَقَة الدولة بكلفة خيالية تُقدر بمئتي ألف دولار لسبب يصعب فهمه منطقياً.

بعد إعلان العبادي نيته إجراء إصلاحات، من ضمنها إلغاء مناصب وكلاء رئيس الوزراء والجمهورية ودمج الوزارات وإلغاء بعض المناصب الوزارية والكثير من مخصصات نواب البرلمان وغيرها، سافر رئيس الوزراء السابق ونائب رئيس الجمهورية الحالي نوري المالكي إلى بيروت للتأكد، على أغلب الظن، من سلامة ثروته المودعة في مصارف لبنان. ثم توجه إلى طهران للحصول على التأييد والدعم (وربما ضمانات بعدم محاكمته عن ملف الفساد المالي والسياسي والعسكري بما يخص سقوط محافظة نينوى تحت قبضة داعش الهمجية). أصبح العراق بالنسبة إلى كثير من السياسيين الذين واكبوا الاحتلال الأميركي، غنيمة تُستغل إلى آخر قطرة نفط!

ربما نكتشف لاحقاً إلى أي حد زهنٌ سياسيو المحاصصة العرقية والطائفية أرضَ العراق وخبراته الطبيعية (الماء والنفط والغاز الطبيعي) للشركات الأجنبية خدمة لمصالح شخصية ونزوات آنية. فمن غير المعقول أن يزيد إنتاج العراق النفطي على الأربعين مليار (ألف مليون) دولار سنوياً منذ عام ٢٠٠٤، ولم تُنجز الحكومة المركزية أو الحكومات المحلية (التي تُفطر فساداً أيضاً وتسيطر عليها أحزاب الإسلام السياسي الشيعي في معظم مدُن وأقضية الوسط والجنوب العراقي) مشروع إعمار واحد أو تُشيد مدرسة حديثة، فضلاً عن توفير أبسط المتطلبات المعيشية كالكهرباء والماء الصالح للشرب، أو الأدوية غير الفاسدة. باختصار، إنَّ معظم مَنْ له علاقة بالحكم المركزي أو المحلي في عراق اليوم، إسلامياً كان أم ليبرالياً، عربياً أم كردياً، شيعياً أم سنّياً، هو لص، والاختلاف فقط هو بمقدار الاختلاس والسرقة - مليون دولار أم مئات الملايين من الدولارات؟ ما حصل بعد ٢٠٠٣ هو إعادة تأهيل الإقطاع بطريقة فجّة ومبصطلحات ما بعد حداثة.

لقد وصل الحال بالعراقيين أن يُغيروا أسماءهم - تماشياً مع المناخ السائد - لأجل تأمين وظائف وغيرها من أساسيات الحياة. ومن سُخرية القدر أن يلام سكان الوسط والجنوب العراقي على مصائب وفساد الإسلام السياسي الشيعي، كما حاولت حكومة المحاصصة معاقبة أهل المناطق الغربية والشمالية على جرائم صدام حسين والبعث. مَنْ يحكم العراق بعد ٢٠٠٣ تتلمذ على يد مَنْ سبَقهم، ولم يتعظ من مصيرهم.

الأمل وسط الخراب

لا تزال التظاهرات الاحتجاجية تفتقر إلى قيادة شبابية تتمكن من بلورة مشروع سياسي واقتصادي واجتماعي، وهنا يكمن جوهر إمكانية التغيير. العراق بحاجة إلى ثورة تُعيد هيكلة العقد الاجتماعي خارج نطاق القبيلة/الطائفة/القومية/الفئوية. الصراع في العراق سياسي - طبقي في أساسه، والأحزاب الإسلامية الشيعية محارب الآن من أجل تأمين مكاسبها الاقتصادية، وستعقد الصفقات مع الشيطان لضمان ديمومة هذه المكاسب. هناك صراع شيعي - شيعي لإعادة غلبة التركيبة السياسية، إذ بالرغم من موافقة برلمانيي معظم الكتل السياسية، ولاسيما حزب الدعوة والمجلس الإسلامي والتيار الصدري، لم يتنازل أي شخص حتى الآن (من ضمنهم أعضاء التيارات الكردية والقوائم السنّية) عن منصبه أو امتيازاته المالية، وزيراً كان أم مديراً عاماً أم برلمانياً. ولم تَرَ وثيقة العبادي للتغييرات الوزارية والبرلمانية النور، ويدور الآن كثير من الكلام عن إمكانية حصول «انقلاب» داخل الوسط الشيعي باتفاق أميركي - إيراني - سعودي. هل سيحدث هذا الانقلاب لترجيح كفة دعاة ضمّ العراق للمنظومة الرأسمالية بوصاية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ولا سيما أن البلد يُعاني عجزاً مالياً مُرعياً بسبب الفساد والسرقة من ناحية، وبسبب انخفاض أسعار النفط والغاز من ناحية أخرى؟ هل ستصبح المحاصصة الطائفية والعرقية جزءاً مؤسسياً من تركيبة «دولة العراق» ويسير البلد في منحى لبنان؟ هل ستتغلب الجيوبوليتيكية وتنجح فعلاً في تقسيم العراق إلى دويلات وأقاليم؟ كل دول الحوار (إيران والسعودية والخليج عامة، والأردن وتركيا) تحبذ تفتيت العراق إلى إمارات ريعية - استهلاكية - غير مُنتجة، وتتوافق هنا مصالح «الأشقاء» العرب والمسلمين مع دولة إسرائيل. هل سينجح الشباب العراقي في قلب الموازين الإقليمية وخلق مفهوم للتعايش المشترك بين الجنوب والوسط والشمال على أسس إنسانية خارج مفهوم الفئوية، والنهوض بالعراق نحو التقدم والحرية والعدالة الاجتماعية؟ ليس هناك وصفة سحرية تُؤمن حلاً مثالياً. لكن، للشباب العراقي دورٌ مهم في إمكانية إعادة الاعتبار للعراق الموحد وإخراج الدين من حلقة السياسة، والشعوب الحيوية والواعية تصنع مستقبلها بالرغم من كل المصاعب.

الحراك اللبناني فصول رواية من طرف واحد

حسان الزين

كاتب وصحافي لبناني،
له مؤلفات أدبية
عدة، مؤسس موقع
"تغريدة"، مشارك
مستقل في الحراك.

ليل السبت ٢٢ آب / أغسطس ٢٠١٥

انتهت المعركة. صمدنا، نحن المتظاهرات والمتظاهرين السلميين، في وجه عنف القوى الأمنية، واستطعنا العودة إلى ساحة رياض الصلح التي أبعدتنا منها القوى الأمنية بقوة السلاح والرصاص المطاطي والحي والقنابل المسيلة للدموع وخراطيم المياه.

نصبنا خيماً على الرصيف. أعلنا الاعتصام المفتوح حتى إطلاق سراح الموقوفين لدى القوى الأمنية ومحاسبة المسؤولين السياسيين والأمنيين عن أعمال العنف. وخرج منّا كلام كبير يُسقط الشرعية الدستورية والشعبية عمّا تبقى من المؤسسات، وخصوصاً مجلس النواب الممدد لنفسه والحكومة.

أعدادنا تتناقص. كثيرون انسحبوا ليستحموا ويرتاحوا في بيوتهم. ويغادر ويعود عدد منّا. تقريباً بقي ناشطون سياسيون ومدنيون يعرف بعضهم البعض من الاستحقاقات والتنسيقات، وآخرها معركة رفض التمديد لمجلس النواب. وهناك مجموعة جديدة على التحركات، وقد شارك أعضاؤها بفاعلية وشراسة خلال المعركة المسائية، وما زال ذكورها المتحمسون عاري الصدر ومعصوبي الرؤوس. وقد اقتربوا غير مرة من السياج الشائك الذي يقف أمامه رجال قوى الأمن، ويفصل بيننا وبين السرايا الحكومية، وأعلنوا أنهم يريدون التوجه نحو السرايا ورمي الزباله عليها.

دعوناهم إلى التهدة ووقف اندفاعتهم. كنّا أقل من مئة شخص، بل لا نتجاوز العشرات. ولم نر في الهجوم في منتصف الليل أي حكمة أمنية أو سياسية، بل اعتبرناها حماسة غير محسوبة. ولم يخف البعض منّا خشيته من أن يكون هؤلاء مدفوعين من جهة سياسية

ما (رئيس مجلس النواب) لفتح جبهة مع السرايا عوضاً عن الجبهة مع المجلس وحرسه، التي اندلعت في المساء. حرصنا على أن يبقى ذلك هاجساً صامتاً، مثلماً حرصنا على عدم فتح معركة جديدة. وهدأت تلك المجموعة التي وصف قائدها العاري الصدر الآخرين الموجودين في الساحة بأعضاء الجمعيات، أي أنّهم ليسوا ثواراً إنّما مجرد موظفين أو منتفعين، وفي أفضل الأحوال هم إصلاحيون يتكلمون فحسب ولا يفعلون شيئاً إلا أمام الإعلام.

ثم ابتعد أعضاء تلك المجموعة نحو مئة متر عن السياج الشائك وأقاموا حلقة غناء وزجل وهوارة.

وفي مكان ما، كان وليد جنبلاط يغيّر موقفه. فبعدما كان قد غرّد على تويتر أنّه يؤيد الحراك وأن الطبقة السياسية، وهو منها، انتهت، عاد وانتقد الحراك. لكنّ المفيد في تصريحه هو القطبة الأمنية الخفية التي فضحها: لقد حمّل في تغريدته الأولى وزير الداخلية نهاد المشنوق مسؤولية العنف الذي مارسه القوى الأمنية بحق المتظاهرين. فما كان من المشنوق إلا أن أعلن أنّه لم يصدر الأوامر، وأن القوة الأمنية لمجلس النواب هي من قام بذلك، وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا بدت القوى السياسية في حال انقسام وصراع، وبدت المؤسسة الأمنية موزعة المرجعيّات على القوى السياسية. وكان لكل مرجعية سياسية قوة داخل المؤسسة العسكرية تأتمر لها.

شخصياً، اعتبرت أن اليوم مجيد في تاريخ لبنان الحديث: الاشتباك الأول بين المواطنين والفساد والفساديين وحمايتهم. وكنت قلقاً على مصير الحراك ومن احتمال إدخاله في زوارب السياسة اللبنانية.

استرخى الجميع تحت حراسة القوى الأمنية. وبين استعادة مشاهد من المعركة وتكرار السؤال عن حقيقة ما جرى، يعبر السؤال «ماذا علينا أن نفعل.. ما العمل؟» مثل

متسوّل من أمام الحزب الشيوعي تارة وجمعية التجار تارة أخرى. وفي الحالين لا يحصل على شيء أكثر من الشفقة أو التجاهل.

عودتان إلى أيام قليلة ماضية

١ — ليس «الاشتباك» بين متظاهري حملة «طلعت ريحتكم» والقوى الأمنية، في ساحة رياض الصلح، الأربعاء ١٩ آب / أغسطس، من عالم موازين القوى أو فحوصها. فالجميع يدرك أن القوى الأمنية في تلك الساحة أكثر عدداً من المتظاهرين، ومحصنة خلف أسلاك ويعتاد أكبر من تظاهرة لامذهبية.

ويدرك الجميع أيضاً أن القوى الأمنية، وخلفها القوى السياسية، لا تردد في استعمال العنف تجاه تظاهرة من هذا النوع، وتجاه مواطنين لا سند عنفياً يحميهم ويستقون به على المجموعات الأخرى وعلى القوى الأمنية، التي ستحسب مئة حساب فيما لو كانوا «أقوياء».

لماذا العنف إذاً، ومن أراده؟

صحيح أن بين المتظاهرين متحمسين يختنقون من صفقات الفئة الحاكمة وإطباقها على البلد ومؤسساته وسرقتها له وللمواطنين، ومن لامبالاة غالبية الشعب بمصالحه وانشدادها إلى المذهبية التي تغدو يوماً عبودية نفعية بالتراضي، لكن ثمة عقدة أخرى.

فما يقوم به المتظاهرون، الذين هزوا الأسلاك الشائكة خصوصاً، ليس أكثر من تعبير عن رفض عدم إنصات السلطة لهم ولطالبهم. ولا قرار لدى «طلعت ريحتكم» بالاصطدام مع القوى الأمنية.

وكي لا ننسى، فإن القوى الأمنية هي التي استخدمت العنف. وقد استخدمته عندما انقطع البث المباشر للتلفزيونات. ما يوحى بوجود نية مدروسة، لكنها تغفل «الثورة التكنولوجية» وأنه بات هناك (في أيدي المتظاهرين) هواتف تصوّر وتبث مباشرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

فالاشتباك الذي حصل بالتزامن مع حركة تمرير الصفقات، له دلالات سياسية، منها أن التظاهر ولو كان محدوداً فقد بات مزعجاً للسلطة. ومصدر الإزعاج هو وجود مواطنين يطالبون وهم مستعدون للمواجهة. وهذا، إلى كونه يدل على من افتعل العنف ولماذا، هو بحد ذاته علامة إيجابية راهانا ومستقبلاً.

٢ — يُسجل لحملة «طلعت ريحتكم» الرافضة لصفقات الزبالة، أنها أعادت فتح باب السياسة من

الزنازين التي يُحتجز فيها المواطنون، أي من خارج بازار الطبقة السياسية وصراعاته وتسوياته وتأجيلات.

لا نتجنّى إذا قلنا إن هذه الحملة محدودة الانتشار والفاعلية، فهي، كي لا ننسى، ردة فعل على أزمة الزبالة والفساد وممارسة الطبقة السياسية في هذا الملف وغيره.

وإن كانت الحملة رفعت السقف وصولاً إلى نقد النظام الطائفي والمحاصصات وصراعاتها وتأثير ذلك على الدولة وحياة المواطنين ومستقبلهم، إلا أنها ما زالت دون تشكيل حالة سياسية مطلّية واضحة الأهداف. وهذا ليس مطلوباً منها الآن.

فالحسنة الأبرز للحملة، إضافة إلى فتح باب السياسة للمواطن، هي التأكيد مرة أخرى أن الطبقة السياسية التي تسيطر على الدولة والسياسة والاقتصاد (مع شركاء) وحياة المواطنين وثقافتهم... فاسدة وتستبيح كل شيء وتسعى لمصالحها المتضاربة أحياناً والمتوافقة أحياناً، وعلى حساب الدولة ومصالح الناس ومستقبلهم ومستقبل البلاد عموماً.

ولا يقل عن ذلك أهمية، أن الحملة أضاءت مجدداً على وجود فئات واسعة من المواطنين خارج المذاهب وتشكيلاتها الحزبية والسياسية والاجتماعية والثقافية، في بيروت والمناطق. وإن كانت الحملة لم تضم هؤلاء جميعاً.

وهنا، يتجدد السؤال الذي يُطرح مع كل حملة وتحرك: ما هي السبل لتواصل هؤلاء وفتح حوار في ما بينهم يُنتج ما هو أبعد من مشاركة في حملة أو تظاهرة أو اعتصام، إلى مساحات سياسية ديمقراطية حيوية ودائمة ذات حساسية اجتماعية ورؤى عصرية؟

صبيحة ٢٣ آب / أغسطس

أطل رئيس الحكومة تمام سلام وأعلن أنه واحد منّا، نحن المواطنون الذين نعاني من النفائات والأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتردية. وقال إنه يعاني أكثر منّا من «النفائات السياسية».

تجاهلنا «دعايته» بأنه منّا، ولم نشفق عليه في المعاناة التي يمتاز فيها عنّا، مع «النفائات السياسية».

ما العمل؟

لا جواب.

اجتمعنا، بعد الظهر، تحت شجرة معمرة جنوبي ساحة رياض الصلح، بعدما عقدت حملة «طلعت ريحتكم» اجتماعاً في ظل مبنى الأمم المتحدة. نحن مجموعة من

الانضمام إلى هذه «الهيئة». وأضاف أسعد اسمي شربل نحاس وزيايد بارود. واتفقنا على الدعوة إلى الاعتصام عند السادسة من مساء اليوم، وعلى بيان مشترك يعتبر أن مجلس النواب بحكم المنحل ويطالب باستقالة الحكومة المسؤولة عن أعمال العنف واستمرار أزمة النفائات. تلت البيان ممثلة النادي العلماني.

كانت بداية لا بأس بها، وربما واعدة، للعمل المشترك. فالعنف المفرط للقوى الأمنية واستمرار السلطة السياسية في صفقة النفائات وتنامي أعداد المتظاهرين وتنوعهم مناطقياً وطبقياً وفكرياً وعمرياً وجنسياً أمور أكبر من أن يتحملها فريق واحد، والجميع موجود في الشارع منذ سنوات، ولكل من تلك المجموعات جمهور أضيفت إليه فئات أخرى. وتظهر ذلك في وصول أعداد المعتصمين عند السادسة مساءً إلى نحو عشرة آلاف. وردت القوى السياسية عليه بعنف متجدد.

استعادت حملة «طلعت ريحتكم» بالشيطان. فهي لم تجد نفسها مع مجموعات متنوعة ومتناقضة (معها وفي ما بينها) ومع أشخاص «ياكلون الجو» فحسب، إنما مع «مندسين يفتعلون المشاكل مع القوى الأمنية والشغب». فما كان منها إلا أن دعت، في تلك الليلة الغامضة والمفاجئة والعنيفة، مناصريها إلى الانسحاب من ساحة رياض الصلح، بل من الشوارع عموماً.

رفض الآخرون، حلفاء الأمر الواقع أو الشركاء المضاربون، اليسار، قرار «طلعت ريحتكم»، واعتضوا على تسمية «المندسين»: «هؤلاء فقراء شعبنا آتين من أحياء ومناطق محرومة»، قالوا. بدا المشهد مركباً ومعقداً: حملة كافييار (طلعت ريحتكم) تلتقي في الشارع، صدفة، مع ثورة مجردة، كما قال البعض. وحمل المشهد أيضاً خوفاً مبالغاً فيه من جانب «طلعت ريحتكم» تجاه «مذهب» حركة أمل، التي سبق لرعيمها، رئيس مجلس النواب نبيه بري، أن أعلن تأييده حراك إسقاط النظام الطائفي (شباط ٢٠١١)، واستطاع مناصروه التسلل إلى الحراك الذي هادن الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله فاستبدل صورته بصورة أحد نواب حزبه ضمن صور زعماء القوى المذهبية. ما أخذ على الحراك واعتبره كثيرون لمصلحة قوى ٨ آذار. وساهم ذلك، من بين أسباب عديدة، في ارتباك حملة إسقاط النظام الطائفي وإنهائها.

هكذا، حضرت في تلك الليلة لدى الحائفين من تكرار تجربة الفرصنة، أشباح الماضي تحت مسمى «مندسين». وتقاطع ذلك مع قوة ثقافة الانقسام المذهبي وتأثر

الناشطين «في طلعت ريحتكم» (أسعد ذبيان)، الحركة اللبنانية البيئية (بول أبي راشد)، حملة إقفال مطمر الناعمة (أجود العياش)، اتحاد الشباب الديمقراطي (عمر الديب)، التيار المدني (باسل عبدالله)، المفكرة القانونية (نزار صاغية)، بدنا نحاسب (أحمد حلاني)، شباب ضد النظام (علي دغمان)، الجمعية اللبنانية لديمقراطية الانتخابات (تيم بوكروم)، النادي العلماني في الجامعة الأميركية (جمانة تلحوق)، وأنا (مستقل).

العنف المفرط للقوى الأمنية واستمرار السلطة السياسية في صفقة النفائات وتنامي أعداد المتظاهرين وتنوعهم أمور أكبر من أن يتحملها فريق واحد.

كان من المتفق عليه أن يصوغ المجتمعون في هذا الاجتماع، موقفاً من أعمال العنف (التي حصلت قبل ليلة)، ومن خطاب رئيس الحكومة، وأن نعلن الخطوات اللاحقة. بعد دقائق من التأمنا تلقى بعضنا عبر الهواتف خبراً عاجلاً: حملة «طلعت ريحتكم» عقدت مؤتمراً صحافياً ردّت فيه على سلام ودعت إلى التظاهر عند السادسة من مساء اليوم رفضاً للعنف وصفقة النفائات.

لماذا نجتمع إذا؟ أصوات الاعتراض ترتفع في وجه ممثل «طلعت ريحتكم» في الاجتماع تحت الشجرة المعمرة. للتنسيق، ردّت الغالبية.

نفى أسعد علمه بالأمر، واعتذر. وطلب أن يتضمن البيان المشترك استقالة الحكومة وحل مجلس النواب وتأليف لجنة لإعادة صياغة الدستور. «سقطت الشرعية الدستورية للمجلسين، والشرعية الآن شعبية»، قال.

تحفظ بعضنا، وتحديداً بول أبي راشد وأنا، على رفع السقف السياسي ولا واقعية الطرح، وإهمال أزمة النفائات التي انطلق الحراك منها مطالباً بحل بيئي لها. امتعض أسعد: «شفتوا؟ لهذا السبب تجعلوننا نندم لأننا أتينا للاجتماع معكم».

استمر الاجتماع، فالجميع يبدي حرصه على العمل المشترك والترفع عن الخلافات والاختلافات، حفاظاً على المولود الجديد وعلى المسؤولية التي رتبها تنامي أعداد المتظاهرين.

رحبنا باقتراح نزار صاغية دعوة حنا غريب إلى





الحزبية والأيدولوجيا والانقسامات والتجارب السياسية. وتلى مروان البيان غير مرتاح لوجوده على المنصة بجانب أشخاص ينتمون إلى قوى سياسية، ووضعه لم يكن أفضل من حال بول أبي راشد الذي كان بجانبه وقد أدرك على مضض أن البعد البيئي وملف النفائات قد تراجعا في اهتمامات الحراك، اليوم على الأقل. ولعله لاحظ أن حضور السياسة فتح آفاقاً إصلاحية لما كانت تنادي به الحركة البيئية من استعادة البلديات دورها وحقوقها وأموالها، وتقدم خطوات في معارضة صفقة النفائات والمحاصصة والفساد فيها وفي أداء الطاقم السياسي عموماً.

ونظراً إلى ضيق الوقت، في الاجتماع، وحرصاً على الوحدة، رحّل المجتمعون موضوع التنسيق إلى اجتماع يُعقد (غداً).

ومن ضمن الخوف من تنامي الخلافات مرّر الجميع، مع تحفظات واعتراضات، تفرّد «طلعت ريحتكم» بقرار إلغاء تظاهرة اليوم. ومع الاتفاق على تنظيم تظاهرة السبت المقبل، ٢٩ آب / أغسطس، تم تبني الناشطين اللذين كان كل من اتحاد الشباب الديمقراطي وحملة «بدنا نحاسب» قد أعلنهما رداً على قرار «طلعت ريحتكم» إلغاء التظاهرة، وهما: وقفة أمام قصر العدل رفضاً لصفحة القضاء إزاء العنف الذي يُمارس بحق المتظاهرين، ومسيرة شموع من مكان إصابة الجريح محمد قصير في وسط بيروت إلى مستشفى الجامعة الأميركية حيث هو في العناية المكثفة. أوحى ذلك بأن نيات التنسيق موجودة وحسنة، لكن الأدوات مفقودة، أو غير مصوغة بعد.

ما قبل ٢٩ آب / أغسطس

مبالغة هي وصف أن ما يجري تحت عنوان «طلعت ريحتكم» ثورة، أو أن هناك قوة (قوى) ثلاثة قد نشأت ودخلت السياسة.

لكن، في المقابل، ليس ما حصل وحصل تظاهرة شباب متحمّس، أو فورة وستنتهي كأنها لم تكن. كذلك، ليس واقعياً إبقاء النظر إلى السياسة من منظور الانقسام بين ٨ و١٤ آذار، وأن المواطنين والسياسة ملك لهذين الفريقين.

فالحراك والتظاهرات والتفاف المواطنين يشير إلى أن «الشعب» لم يعد منقسماً ومقسوماً بين فئتين، كما كان يُقال. ثمة تنوع.

العديد من الناشطين بها، وبالتالي الاستسلام لتصنيف المواطنين الآتين من «المناطق الشيعية» في «خندق» نبيه بري وحركة أمل، وعدم الانتباه إلى إمكانية جذب الحراك مواطنين من تلك البيئات متضررين وغاضبين.

تكثفت تلك العوامل كلها في وجه الحراك وكبّلتها باكراً. أحسّ أنه مستهدف بأساليب عدّة، مضمرة وأعقد من أن يفك شيفرتها. وليس العنف الأمني إلا أوضحها، وربما أسهلها. حتّى تبدّل موقف وليد جنبلاط، من مؤيد للحراك إلى معارض ومشكك، بدا واضحاً وسهلاً مقارنة بصمت الزعماء الآخرين.

الإثنين ٢٨ آب / أغسطس

مواجهة أمس، الأحد ٢٣ آب / أغسطس، في محيط مجلس النواب والسرايا، كانت صادمة وقاسية. ظهر الحراك منقسماً، أو متعدّداً الأجنحة، وبلا رأس. والأهم أنه بدا قوياً وضعيفاً في آن واحد. بدا مولوداً جديداً مطلوباً منه أن يكون ناضجاً، وجسداً طرياً عليه مواجهة الغلبة. بدا في لحظة مصيرية.

وفيما كان مقرراً ومعلناً تنظيم تظاهرة اليوم، الإثنين، فرّقت معركة أمس المجموعات. كل منها التقت وحدها. وعبرت بينها غيوم كثيفة. لكنّه صيف وما زال في أوله. وحضرت روح البدايات والمسؤولية والنهوض المشترك والاستمرار لدى الجميع، رغم الاهتزازات. وتداعينا إلى الاجتماع في مقر «بيوند» (Beyond) التي اضطلع ناشطوها بدور مذلّل العقبات بين أعضاء حملة «طلعت ريحتكم»، وبينهم وبين آخرين، في الأيام الماضية.

تجاوز المجتمعون سريعاً، بالنقد والنقد الذاتي، الخلافات والاختلافات التي ولدت ليلة أمس. وأكد الجميع على التنسيق وأهميته. كان تحديّ الظهور موحدتين وأقوياء، في المؤتمر الصحافي المقرّر بعد ساعات، هاجساً ضاعطاً وكفيلاً بتذليل كثير من الخلافات والصعوبات. وقد صيغ بشكل جماعي بيان تردّد مروان معلوف في تلاوته في المؤتمر الصحافي لتضمّنه عبارات يسارية لا يجد لها مبرراً في تلك اللحظة السياسية. وأحسب أنه كان يفكر في وقعها على جمهور عريض. وبالرغم من محاولته الانسحاب من المهمة التي ألقيت على عاتقه، حرصت على إقناعه، لكونه مروان ومن «طلعت ريحتكم» التي كنت من الحريصين على بقائها في المقدمة، إخلاصاً لدورها في الريادة وتقديراً لجاذبيتها الشعبية المتحررة من

والقوتين، وإن عدداً من مواطني الصورتين انسحب منهما إلى الصورة الجديدة.

فرحنا بالمشهد الكبير، وأكثر ما دغدغنا، إضافة إلى تنامي الحراك ووجود مواطنين خارج المذاهب وضد الفساد، هو فكرة أنه أزعج الزعماء والطاغم السياسي. وكثيرون مثلاً التقوا في استئثار الخطر مع الزعماء والطاغم السياسي. لكن، نحن نسأل: كيف نحمي هذا الحلم، كيف يغدو واقعاً... وكيف يُترجم في السياسة؟ وهم يفكرون كيف ينهون هذا الكابوس.

نحن نريد أن نكون مواطنين، هم يريدوننا رعايا. نحن نجتمع قوانا، وهم يجمعون قواهم ويريدون تقنين قوانا.

في ٢٩ آب / أغسطس بدأت المعركة، أو لعلها صارت حرباً، من جهة الزعماء والطاغم السياسي، على الحراك والمواطنين.

ما بعد ٢٩ آب / أغسطس

يواجه الحراك المدني الشعبي، وكل مواطن انخرط فيه أو على أهبة المشاركة فيه، وكل مجموعة فاعلة فيه أو تشكلت خلاله، تحديات عدة، حفاظاً على الإنجاز واللحظة الوطنية وإنضاجاً لها سياسياً واجتماعياً.

يختصر هذه التحديات سؤال «من إلى؟» التحدي الأول: فيما أولوية الحراك هي الحفاظ على استقلاليتته ووحدته واستمراره وتطوير إطاره التنسيق والتنظيمي وخطابه وأدوات عمله، عليه الإجابة عن سؤال كيف الانتقال من الصدمة إلى المسؤولية المنظمة الواعية المتنوعة والديمقراطية؟

التحدي الثاني: من الشارع إلى الدولة، أي كيف العمل للانتقال من الضغط الذي تتجمع قواه الآن إلى التأثير السياسي على القوى الحاكمة لكسر سلطتها على الدولة واحتكارها لها وتعطيلها الدستور والمؤسسات، ووضع حد للتبعية والفساد ونهب المال العام والمحاصصة والترصد للثروة القومية (البترو) التي يجب أن تُستثمر في التنمية الاجتماعية.

التحدي الثالث: كيف الانتقال من ردّة الفعل إلى الفعل، أي المباشرة المنظمة لتفعيل العمل الاجتماعي والبلدي والتقابي والمواطني. وذلك من خلال إبداع أطر وأساليب، تحت لواء بناء الدولة والمشاركة الوطنية المنظمة.

واتساع دائرة المطالب من حل لمف التفتيات بيئي علمي شفاف وغير مبذّر للمال العام، إلى رفض الصفقات والمحاصصة والفساد، إلى المطالبة بانتخابات نيابية ورئيس للجمهورية، يعني أن دائرة الغضب الشعبي تتسع وتتحرك رفضاً لاستمرار هذه الفئة السياسية المليشيوية المالية بالحكم وتحويلها الدولة والبلد مزرعة لزيادة ثرواتها. على هذا الإيقاع تبدو مجموعات الحراك، القديم منها والطازج، حريصة على الوحدة والاستمرار والإفادة من تجارب الماضي، سواء أكان إسقاط النظام الطائفي أم المحطات الوطنية والمدنية والنقابية الأخرى، من حملة إقبال مطمر الناعمة، إلى هيئة التنسيق النقابية وما قبلهما وبعدهما.

وثمة إشارات ليس لبداية انفكاك فئات واسعة من المواطنين عن الخطابات المذهبية فحسب، إنما لانطلاق روح سياسية مطلّبة مستقلة ومتنوعة تتلمس طريقها إلى الميدان والبحث الجاد عن أشكال تنظيمية وخطابات وتحالفات تعبر عنها وعن تطلعات المواطنين المنهكين بفعل السرعة المنظمة والوقحة والمذللين المهانين في حياة يومية تزداد صعوبة وشقاءً وغموضاً مستقبلياً.

السبت ٢٩ آب / أغسطس

الاعتصام الذي قرره «طلعت ريحتكم» في ساحة الشهداء وفاجأت به «هيئة التنسيق»، أمس، أضاف إليه الأعضاء الآخرون، في الاجتماع، مسيرة من وزارة الداخلية إلى ساحة الشهداء. لكن حرص «طلعت ريحتكم» على الابتعاد عن ساحة رياض الصلح خوفاً من صدام مع القوى الأمنية الحامية للسرايا الحكومية، لا يلزم مجموعات أخرى الابتعاد عن ساحة رياض الصلح. بل إن مجموعات أخرى، منها «بدنا نحاسب» واتحاد الشباب الديمقراطي، التي تحفظت على إلغاء «طلعت ريحتكم» تظاهرة الإثنين وتأجيلها إلى اليوم، كانت قد جعلت ساحة رياض الصلح قبلة نشاطاتها اليومية. واستعادت، في غياب التنسيق مع «طلعت ريحتكم»، خطابها المعارض للحريّة، أي لجزء من السلطة السياسية المسككة بالدولة منذ نهاية الحرب.

هكذا، طغت السمة اليسارية على المسيرة، بينما الاعتصام أكثر تنوعاً اجتماعياً كان جميلاً ومجيداً في تاريخ لبنان. صورة تذكارية واسعة لا تُنافس عدداً صوري ١٤ آذار (في ساحة الشهداء) و٨ آذار (رياض الصلح)، لكنّها تقول إن هناك مواطنين لا ينتمون إلى الصورتين

التحدّي الرابع: العمل على الخروج من إسقاط الدولة الذي مارسته القوى السياسيّة الحاكمة إلى استرداد الدولة وإعادة بنائها ومؤسساتها.

امتياز الحراك أنه شبابي وعفوي وهاو في السياسة نقطة ضعف أحيانا. ووسط دهاء الطاقم السياسي واستشراسه وعدم تردده في استعمال أي سلاح. ولاسيما المحرّم.

التحدّي الخامس: من الوحدة إلى التنوّع ضمن الوحدة، أي إطلاق المجموعات والمواطنين ورشة لإنتاج أطر عمل وأحزاب وحركات وتيارات سياسيّة ذات خطاب اجتماعي ديمقراطي.

التحدّي السادس: ويتمثّل في البناء على اللحظة الوطنيّة للانتقال من خطاب الانقسام المذهبي والتبعي إلى المواطنة والديمقراطية وبناء الدولة وحماية المجتمع والإنسان، والنضال من أجل الحقوق الاجتماعية والقانونية والخدمات الضروريّة.

التحدّي السابع: العمل لخروج المواطنين من الإحباط والتئيس والتشرذم والتهميش والاستغلال وثقافة التواطؤ مع الفساد والمحاصصة إلى الفاعلية الوطنيّة.

مخاوف

ما زال مخاض ولادة التنسيق صعباً. نجتمع في «المفكرة القانونية» يومياً. «طلعت ريحتكم» تصرّ على قيادتها الحراك وعلى أن الآخرين داعمون لها. فخوفها واضح من حضور اليسار وتجاريه السابقة وانعكاسات ذلك على جمهورها والحراك عموماً.

والآخرون يرفضون أن يكونوا درجة ثانية. فهم، بلا شك، موجودون في المعارضة والشارع منذ عقود، وقد بات لهم في الحراك مساهمة ونالوا حصّتهم من عنف القوى الأمنيّة، لكنّهم لم يجددوا خطابهم وأدواتهم، وتشرذمهم يجعل حضورهم في الحراك برؤوس عديدة تبدو أكثر من قوتهم في الشارع والمجتمع.

وفيما لا أدري إذا كان الحضور الكثيف لليساّر ضاعف مخاوف «طلعت ريحتكم»، فإنني أجزم أن تأخر إنتاج صيغة تنسيق ضاعف وجود اليسار ومخاوف «طلعت ريحتكم» في آن.

هكذا، دفعت «طلعت ريحتكم» ثمن خوفها مرّتين. وكان

الأجدي بها، والأفضل للحراك، أن تُستيس علاقتها باليسار وتنسّقها، عوضاً من رهن الحراك بعلاقة غير منظّمة، وعوضاً عن الاستنزاف في منافسة تفتقد الخبرة والديناميكية والثقة. لهذا، سعت مع أصدقاء، في الكواليس، إلى إنتاج صيغة تنسيق تضمن استقلاليّة «طلعت ريحتكم» وتحفظ ريادتها. وحرصت خلال الاجتماعات على التأكيد أن أي صيغة تنسيق يجب أن تخرج من «طلعت ريحتكم» ولا تُفرض عليها.

لم ننجح. وقلت غير مرّة، في الاجتماعات، إن المخاوف على الحراك من القوى السياسيّة ومن المجتمعين أيضاً.

وبالرغم من ذلك، والحق يُقال، كان التنسيق يمشي ولو ببطء ومشقّة، كلّما اقترب موعد نشاط، وإن سببته حركات وقصص لا تمت إلى التنسيق والعمل المشترك بصلة. وغالباً ما وقعت «طلعت ريحتكم» بين سندان إصرارها على استقلاليّتها وقيادتها، ومطرقة الحاجة إلى الآخرين والتنسيق معهم. فكانت تبدو قيصراً: ما لي لي، وما لكم لي ولكم. كأن تُزامن اجتماعنا لبحث التحرك المقبل وشكله ومكانه وزمانه بإعلانها التحرك المقبل، فيغدو الآخرون بين سندان رفض استقلاليّة «طلعت ريحتكم» وتفرّدها، ومطرقة الحاجة إلى «طلعت ريحتكم» والتنسيق معها. وكثيراً ما انزعج هذا الفريق أو ذاك الشخص، وانسحب، ليبدأ عمل مُدوّري الزوايا، وتارة ينجحون وأخرى يهزّبون الخلافات أو يؤجّلونها.

ما العمل؟ ما خريطة طريق الحراك؟ لا إجابات. الطاقم السياسي يضغط، أمنياً وإعلامياً... وشائعاتياً. يلعب سياسة. والحراك دون ذلك.

امتياز الحراك أنه شبابي وعفوي وهاو في السياسة نقطة ضعف أحيانا، ووسط دهاء الطاقم السياسي واستشراسه وعدم تردده في استعمال أي سلاح، ولاسيما المحرّم.

اتهام

تحت الضغوط السياسيّة والأمنيّة، كان ثمة أمران مريحان للحراك: الحاضنة الشعبيّة المتنامية للحراك، والتغطية الإعلاميّة الإيجابية، ولاسيما من قناة الجديد والمؤسسة اللبنانيّة للإرسال اللتين فتحتا الهواء للحراك وشبابه، وأوقفنا استقبال السياسيين والإعلاميين الموزعين على قوى ١٤ و٨ آذار.

طرح ذلك، ولاسيما لدى من أهملهم الإعلام ودوائرهم السياسيّة، تساؤلات عدّة، لا عن علاقة وسائل الإعلام بالمجتمع الذي وُلد الحراك فيه ومنه، إنّما عن علاقة وسائل

الإعلام وخصوصاً الجديد وأل بي سي بدولة عربية صغيرة. وقد التقت في إطلاق «الانتهام» هذا قوى ١٤ و ٨ آذار. سبحانه الله. وفي وقت واحد غرّد بهذا الانتهام نهاد المشنوق ونائب رئيس تحرير جريدة الأخبار بيار أبي صعب. وعندما كانت القوى السياسية متضاربة، بدت مستعدة للتوحد بهدف محاصرة الحراك والانقضاض عليه. تُرجم ذلك بحرب شائعات على الناشطين البارزين في «طلعت ريحتكم»، من اتهام عماد بزي بالزواج من إسرائيلية، وسخرية أسعد زيبان من أحد الأعياد المسيحية، إلى نشر مقال عن عملهم (بزي وذبيان ومروان معلوف وخطار طرية ونزار غانم) لمصلحة مؤسسات استخبارية أميركية ناشطة لتغيير أنظمة عربية.

لم يفقه الحراك البوصلة بل فقد الدافع إلى النظر وإلى الحركة. بدأ يراوح مكانه سياسياً ويتراجع شعبياً. مجموعات تنشأ هنا وهناك. و«طلعت ريحتكم» تترنح وتنقسم.

وبين شائعة وأخرى، تحلل قوى ١٤ آذار أنّ الحراك يخدم حلف روسيا وسورية وإيران وحزب الله، ثم تنهم قوى ٨ آذار الحراك بأنه داعشي ويعمل للفوضى. احترنا يا قرعة من وين بدنا نبوسك (من أين نقبلك). لكننا اعتبرنا تلك الاتهامات المتناقضة دليل براءة الحراك من التبعية لهذا وتلك، محلياً وخارج الحدود.

مخاطر الحراك

صحيح أن الحراك لم يقلب طاولة الضمير والوعي والثقافة، لكنّه هزّها. وهذا جيّد. ويقدر ما يُعبّر عن مشاعر غالبية اللبنانيين وآمالهم بالخلاص من الوضع القائم وبالانتقال إلى دولة تضع حدّاً للفساد وتحاسبه وتطرده من جسمها وتعيد إنتاج قوى سياسية جديدة، بقدر ما يُظهر أن الواقع السياسي والاجتماعي أعقد من ذلك. فلا أحزاب تغييرية. والنقابات مهترئة ومستلبة من قوى السلطة. والبلديات (بغالبيتها) معطلة ومصادرة من تلك القوى وتنوء تحت وطأة الحسابات المحلية التي تتقاطع مع القوى السياسية ونهج استزلامها. والشباب موزّع بين الهموم المعيشية والشخصية والبحث عن سند في القوى السياسية وخطاب الانقسام والمحاور.

باختصار، لا آليات اجتماعية وسياسية وثقافية

تسند الحراك وتتفاعل معه ويتفاعل معها. الحراك يُخاطب ضمير اللبنانيين وآمالهم كأفراد. وقد أظهر الشهر الأول للحراك هذه الثغرة الخطيرة وقدرته القوى السياسية على اللعب فيها. فهي من صنعها، إذ لم تتسلط على الدولة ولم تعث فيها فساداً وحسب، إنّما دمّرت قوى المجتمع وألحقت بها جزءاً كبيراً من تلك القوى.

سط ذلك، اقتربت دول وأجهزة من لبنان وحدثه. وبدأت شغلها، مع القوى السياسية. لذا، على الحراك والمواطنين الشروع بالعمل في تلك الثغرة، والإفادة من الشرارة التي أشعلها الحراك في المجتمع. ومخاطر عدم القيام بذلك تبدأ باستحضار شياطين الإحباط وتمكين القوى السياسية من محاصرة الحراك، ولا تنتهي بتحويل اللعب في لبنان وبه.

نحن بحاجة إلى شغل اجتماعي وثقافي وسياسي تأسيسي، في كل لبنان، يرفد الشارع ويصنعه ويحميه، بالتزامن مع النضال المباشر والإنجازات الصغيرة على المستوى السياسي.

الهدف من الحراك وليس هدف الحراك

تجاوز الحراك مسألة التنسيق من دون أن ينتج صيغة تنسيق، وواجه الضغوط السياسية والألاعيب من دون أن ينتج خريطة طريق. تراكمت أهداف المواطنين في صورة الحراك وصوته، واقتصر نطقه على مطالبه الأربعة: استقالة وزير البيئة، محاسبة السياسيين والأمنيين المسؤولين عن العنف بحق المتظاهرين، إيجاد حل بيئي لأزمة النفايات وإعادة الصلاحيات للبلديات والإفراج عن أموالها وتأسيس الصندوق البلدي المستقل، وإجراء انتخابات نيابية.

لم يفقد الحراك البوصلة بل فقد الدافع إلى النظر وإلى الحركة. بدأ يراوح مكانه سياسياً ويتراجع شعبياً. مجموعات تنشأ هنا وهناك. و«طلعت ريحتكم» تترنح وتنقسم. ومع ارتباك «طلعت ريحتكم» طاف خطاب «بدنا نحاسب» و«اتحاد الشباب الديمقراطي» فوق وجه الحراك. وبدأ التنوّع الذي لَوّن بداية الحراك يتراجع.

ومع شعور «طلعت ريحتكم» بالتراجع والرغبة في استعادة دورها، صار هدفها من الحراك، وليس الحراك، تنظيم مواجهة على أبواب ساحة النجمة. وكأنّ الهدف من الحراك، وليس هدف الحراك، هو دخول تلك الساحة، أو الشعب الذي يفقد الحراك ما يجب أن يراكمه ويربّحه: الحاضنة الشعبية الواسعة، خريطة طريق سياسية، عدم خنق الأمل الذي ولّده لدى المواطنين.





من دفتر الأيام الحائرة

اليوم (٢٢ أيلول)، بعد شهر على الاشتباك الأول بين المواطنين والفساد والفاستدين، لم ينسَ الحراك والمواطنون النفائات وملفها. فالنفائات ما زالت في الطرق، وخطة لجنة أكرم شهيب، بالرغم من محاولة توفير «بيئة» أهلية وسياسية لبدء تنفيذها، لن تمر من دون موافقة الحراك والمجتمع، خصوصاً في محيط الناعمة وعكار والبقاع الأوسط. وإضافة إلى المآخذ البيئية والتنفيذية عليها، من الحراك والحركة البيئية، هناك عقبات مناطقيّة- مذهبية تحول دون انطلاقها.

المشكلة مستمرة إذاً، وأبرز مفاصلها هو أنّ الخطة التي يقول شهيب إن إيجابياتها حصلت بفضل الحراك لا يمكن أن تُنفذ، بعد تعديلها، من دون الحراك. وإذا كان شهيب منفتحاً على ذلك فإن الأمر يحتاج إلى قرار سياسي واضح من الحكومة بالتفاوض العلني مع الحراك. وفيما لم يؤخذ هذا القرار يُمَارَس العنف على الحراك، في الشارع وفي الإعلام والدوائر الأخرى، لتدميره.

أحد أبعاد الحراك الذي يعد أجمل حدث منذ توقف الحرب. أنه ولد خارج الأحزاب المنشغلة بأجندات إقليمية ومحلية وبالمحاصصة والفساد والسعي إلى تكريس سلطة الزعامات المذهبية والتبعية على حساب الدولة والمجتمع وتطورهما.

عليه، يبدو أن المعركة باتت في مرحلة تقتضي على الحكومة (وليس الوزير شهيب وحده) إعادة النظر في سياستها مع الحراك والتقدم نحو مفاوضات. وتقتضي المعركة أيضاً من الحراك تقديم ملف النفائات في التحركات وفي الاستعداد للتفاوض أو المواجهة، بإقفال ملف النفائات وفق خطة يوافق عليها الحراك والمجتمع امتحان أمام الحكومة مجتمعة، وهو تحدي الحراك والمجتمع. والمشهد الأخير يحدد شكل الدولة والأيام المقبلة.

عجز

الحراك لا يفاوض السلطة، لكنّه يفوّض إليّيين للتواصل مع لجنة وزير الزراعة أكرم شهيب التي كلّفت وضع خطة النفائات. وفيما يفقد الحراك قدرته على الحشد، يرى مشتبّاً ومن دون موقف سياسي عاقل، كيف تنشط القوى السياسية لكسب القوى الأهلية والبلديات في محيط المطامر الثلاثة

(الناعمة، عكار وعنجر)، من خلال إغرائها بالخدمات والوعود. وفيما تركب القوى السياسية التحالفات لتمرير خطة شهيب، يطرح الحراك خطة بديلة. الحراك، مصيراً وسياسة، رهينة عدم إنتاج آلية قرار، وفريسة الارتجال وعدم صياغة تنسيق بمستوى اللحظة التاريخية والأمانة التي علقها المواطنون عليه.

ما العمل؟ سؤال معلق حتى إشعار آخر. وقد تقدّم عليه سؤال آخر، في وجه الحراك: ما الذي أفعله؟ لكنّ الحراك لا يسأل نفسه، إنما يفعل ذلك بعض القلقين عليه وعلى الطاقة التي فتحها في الجدار السميكة.

الورقة الأخيرة

أحد أبعاد الحراك الذي يُعد أجمل حدث منذ توقف الحرب، أنّه ولد خارج الأحزاب المنشغلة بأجندات إقليمية ومحلية وبالمحاصصة والفساد والسعي إلى تكريس سلطة الزعامات المذهبية والتبعية على حساب الدولة والمجتمع وتطورهما. وقد تشكلت قبله وخلالها مجموعات شبابية متنوعة استجابة، على عجل، للمهمّات العملية في الحراك من جهة، ومن جهة أخرى تعبيراً عن الافتراق عن الأحزاب القائمة وعدم وجود أطر سياسية أخرى ناضجة وواضحة المعالم والأهداف والوسائل.

وبالرغم من الجمالية التاريخية لذلك، فإن الأمر يدلّ على الحاجة إلى أطر سياسية جديدة وعصرية وديمقراطية. بل إن المسؤولية السياسية والاجتماعية، التي أعاد الحراك بثّها في المجتمع، تقتضي تطوير تلك القوى والحيويّات، سواء أكانت مجموعات أم أفراداً أم كيميائ عاطفية لدى المواطنين أم أملاً بالتغيير. ولعلّ هذا، إذا ما حصل، يكون أهم انتصار للحراك والمجتمع والدولة، فولادة قوى سياسية جديدة لاطائفية ومتنوعة ثقافياً واجتماعياً ومناطقياً وجنسياً، وديمقراطية، وذات رؤية عصرية للدولة والمجتمع والمواطنة، وتملك حساسية اجتماعية إنسانية، أمرٌ إيجابيٌّ لإعادة الحياة والروح إلى السياسة والمجتمع اللذين دمرتهما القوى السياسية لتأييد إمساكها بالسلطة وانتفاعها منها. ولعلّ ذلك يساهم في إعادة الاعتبار للإنسان- المواطن. فالأمر يتجاوز الرد على احتكار قوى الفساد والمحاصصة الدولة والحياة السياسية وأدواتها، نحو إعادة تأسيس الحياة السياسية وتقديم مواطن نزيه للعمل في الشأن العام. فإلى جانب العمل والنضال من أجل المطالب والأهداف التي يطرحها الحراك، من المفيد العمل لبلورة قوى سياسية جديدة واضحة القيم والأهداف والمطالب وأساليب العمل.

الحياة من مكان آخر

سحر مندور

روائية وكاتبة، لبنان.
آخر أعمالها
«ميناء» ٢٠١٣.

الحياة من مكان آخر. بلا رائحة زبالة على أشبه، بلا حرارة لا تطاق، كهرباءٌ بسخاء. ليست مسألة أساساً، الكهرباء. بديهية التواجد حدّ نسيانها، كالهواء النقيّ الأخضر. في هذا المتاح، الأخضر كثيف، الابتسام متوقّر. ومن مسافة كهذه، حديثه العهد نسيباً، تنتهي بعد أيام قليلة، كان للمشهد انحراف. ومن هذا الانحراف، أكتب.

نزول الناس إلى الشارع هو فعلٌ أسر، في ظلّ حرب الأساسيات التي يشنّها النظام الحاكم على المواطنين. وهي تُسمّى حربٌ لأن فيها مستفيدين، وهم يتمسكون بمكتسباتهم بالضرب والشتيم. وجوههم سافرة أيضاً، يأتون بفوقية، لا يكثرثون للمدارة. كم يحتاج المرء من عزمٍ كي يخترق الضغط الهائل المتصاعد والمستفحل، يومياً، ليمضي في أسلوب حياة، ثم يتجه منه إلى الشارع المطليّ. والشارع المطليّ اليوم جريءٌ جداً. وقع حتى.

منذ تأسس إثر الطائف، يبقى نظام الأزمة المستدامة الناس على أهبة القبول بأقل وأقل، خشية من الأسوأ والأسوأ. والأسوأ من حولنا دائماً يهدّدنا. لا سلام السعودية ولا سلام سورية أغرانا، فقبلنا بالكثير من أجل قليل متاح في الرمح. يوماً بعد يوم، تجذّرت القناعة العصبية كسمة للعيش بين الناس. لا يمكن لمن يعيشون في شوارع لبنان وليس قصوره المنعزلة أن يستذكروا «ردحاً من الزمن» مرّ بلا أزمة تشغله. حتى أن أزمات هذا النهار لا تأتي بجديد في أداء الحكم، بل تكرر سكةً سلكها سابقاً، من أسماء المعنّين إلى مواقع الطمر. لا جديد في السلطة، لكن الجديد في الشارع. فالناس، في ظلّ الأزمات، تأقلموا مع الخشية الدائمة من مصيبة أكبر، وهي كثيراً ما تحل. يقولون: فلنحاول أن نتفادها. فلنلتصق باللحظة الراهنة وننفذها. الناس الخائفون ليسوا واهمين، خصوصاً في ظلّ الحروب الطاحنة، الداخلية والمجاورة والقريبة والبعيدة.

الناس ليسوا واهمين، لكن المشكلة ليست بجديدة. كم من مرة تم إقفال باب حلّ مستدام خوفاً من أزمة، وكم من مرة لم يأت الحلّ المؤقت إلا باستفحال لاحق للأزمة. تجربة اليوم لا تأتي في خانة المؤقت، وإنما هي في الاستفحال. استفحلت الحال لما تجسّد الفساد يفداحة: طافت الزبالة على الناس. وليس سبب ذلك كامناً في قلة كفاءة النظام، وإنما في طبيعته.

الشارع هو الجديد في صورة يقرأها المرء عن بُعد. قد يكون السؤال الأسهل فيه: كيف تشكل؟ أمّا أصعب الأسئلة فهو: إلى أين يمضي؟ وهو صعبٌ لا لخشية من الوجهة، وإنما لطزاجة المضمون. ما يجري، يجري الآن. تحليل المسارات البعيدة يشبه قراءة مستقبل ثورات الربيع العربيّ في لحظة وقوعها. كم تبدو قراءات كثيرة لها مخجلة لأصحابها اليوم، بعدما حلت أحداث محورية وكثيفة لم «يتنبأ» بها تحليل. فإذا، كيف تشكل الشارع؟

الدولة المتناسكة القويّة

ليس في مقارنة الحراك تحيّر تامّ لمجريات الشارع، وإنما تحيّر قاطعٌ لأحقية حدوثها. عن هذه المسافة، يبدو النقاش حقاً مكتسباً علانياً صحياً ولو احتدّ. الإجماع هو شغل نظام متشابك الفساد. الاختلاف في النقاش والمبادرة هو مساحة كالحرش، تتنفس. لن يتناقض النظام، ولم يتناقض. حتى أنه استنسخ أداءه. رجلٌ تلو الآخر يقفز إلى منصة في باحة بيته، ويعلن أنه أبو الحراك. رجلٌ تلو الآخر، مليء بنفسه لدرجة أنه تخيل أن دائرته الخاصة المهللة لاستيقاظه كلّ صباح تعكس «الرأي العام». مليء بنفسه لدرجة القول بأن الشارع ومن فيه ملكه، إنما هم من بنات أفكاره. النظام متشابك المصالح، متشارك في

اجتمعت في فكر شخص واحد، فكيف بالكثرة؟ لا خطر في الاختلاف، هو واقعٌ لا يحتاج إلى من ينظر له. هو واقعٌ، ولا يحتاج إلا إلى من يتعامل معه. فهذا الحراك لا يقاس بحجمه بقدر ما يقاس بتنوع ناسه.

المتظاهرون والمترددون وما بينهما

الطوائف تحشد «الملايين»، وتلك ليست معجزة ولا مبايعة. قراءة البنى السببية التي تلمّ شمل الملايين، متاحة في كتاب الأزمة المستدامة، من الاقتصاد إلى الاجتماع، ومن الهويات إلى العصبية، ومن الاستثمار إلى المكتسبات، القراءة متاحة. لا ضرر في قراءتها، بحيث لا يُدان الناس بالمطلق، ويُتهمون بأنهم «قطيع»، هكذا بالجملة. لمن المطالبة بالتغيير إذا كان «الناس غنم» في منظور دعاة التغيير؟ لا ضرر في المواجهة مع مؤمني الطوائف، لكن، لا مبرر لتجهيل أسبابهم لما كان فهمها متاحاً لنا. لن يصبحوا «قطيعاً» بمجرد قولنا عنهم هذا، لكنهم سيصبحون حكماً ضد حراك يطالب بالمصلحة العامة بمجرد قوله عنهم هذا. متظاهرو الطوائف متنوعون في ما بينهم، بين حريصة على مكتسب ماديٍّ أو رمزيٍّ وخائف من تغيير وتبعاته ومترددة أمام جديدٍ ورافض لأي خروجٍ عن أمان الهويات المحفورة بالدم، وسواهم. الكثير من الدوافع يشكل «ملايين» الطوائف. وهي ليست على عداء مع الحراك ككتل، وإنما الحراك شقٌّ فيها خطوطٌ عداواتٍ وتأييدٌ عابرةٍ لحدودها المعرفية. تبعاً لدوافع المرء في الانتماء إلى «الملايين»، تراه يختار الإنصات للحراك والصبر عليه، أو الانصراف عنه ولعنه. المستفيد من النظام، سيكون ضده. الراضية لقراءة الحال خارج العين الطائفية، ستكون ضده. وعلى فكرة، لا ضرر في العداء. لا تؤخذ الحقوق عادةً بإجماع شعبٍ، أما التردد في المشاركة فهو مرتعٌ للتفكير.

بين المترددين هناك من يحتاجون إلى استقطاب، إقناع، تطمين، ومراعاة. هؤلاء، لا بد أن يجدوا لهم صوتاً من بين الأصوات كلها يشدّهم إلى الساحة، ومن المحبب لو صوتٌ عدائيٌّ يهدأ فلا يرعبهم منها. وهذا نقاشٌ يخوضه المنسّقون في ما بينهم. ولكن، هناك خشية من أن يصبح «استقطاب المترددين» كالأقوال المأثورة التي تُرمي في كل سياق لتعطي «حكمة». الاستقطاب ليس هدفاً تُرمي لأجله أهداف أخرى. إذ، من يستقطب من؟ أشخاص وجماعات اهتراؤا في شوارع التظاهر من أجل تنظيف بلدٍ من أزمة يعيشها جميع المواطنين، يُطلب منهم أن يهندسوا الذات والخطاب والتحركات والملابس

ملفات الفساد، ولذلك، خطابه سيبقى متماسكاً، إن في التهويل من الشيوعية والآذارية والداعشية والفوضى، أو في مصادرة الحراك. أما الشارع فناسه ليسوا كذلك. ناسه يلتقون اليوم، كل من حملة، كل من تجربة حزب أو ذكرى نقابة، كل من بيت وشارع، كل من خلقيّة. فيه الاختلاف بالتأكيد، وله حق الخلاف. لا خوف من الخلاف ما دام المختلفون يبقون النظام نصب أعينهم، ساعين إلى ترتيب أمور الخلاف في مجموعات متجانسين، لا تسعى إلى الانصهار وإنما تشدّ نحو التنسيق. لا ضرورة لاستجداء الوحدة أو إخراس التناقض. تلك عناصر حيوية، تلك أدلة الحياة العامة.

في المقابل، فإن للخلاف والاختلاف لا بدّ مخاطر، من ضمنها خطرٌ يحلو للذهن التنبّه منه: الطهارة. ادعاء الفرد أو الجماعة امتلاك طهارة أو نقاء «ثوري» يتيح لهما أن يسودا ما عداهما. طعن المختلف في رأيه، تجريد المختلفة من أحقية امتلاك رأي حتى. اتهام بميل سياسي (الناس لم تولد اليوم)، أو بانتباه معين تجاه الطائفية (والطائفية جزء من هويات الناس السياسية)، أو بعنف في الخطاب أو الأداء (العنف ليس تهمةً مطلقة)، أو بالجبن (وهو أيضاً ليس تهمةً مطلقة). الإحساس بامتلاك الطهارة يتيح للفرد أن يرتقي إلى برج عاجيٍّ من «فهم الجدوى»، و«الصواب». لحسن الحظ، تنوّعات الحراك تفاجئ البلد تبعاً بوضعها المطلب العام قبل «الصواب» الخاص، ولو بقلق، ولو أحياناً بارتباك. لما دخل المعتصمون إلى وزارة البيئة، شعرتُ بترددٍ وخشية. بعد ساعات قليلة من المتابعة، صرت من المؤيدين الداعمين الغاضبين أيضاً. في تحرك الزيتونة، ساد في نظري «الفيتيش» على المطلب، تماماً مثلما طغى إحساس الكرمس في تظاهرة أخرى. رأس النيفة «فيتيش»، بينما الأملك البحرية مطلبٌ وحق. حملة «هذا البحر لي» لم تسقط الفرح من مجرياتها، وليس النكد هو قرين المطلب، لكن «رأس النيفة» فيتيش. ثم، من قال إن الفقراء لما يستردّوا مكاناً عاماً من برجوازيين سرقوه، سيملاؤونه بالبصل ورأس النيفة؟ هذا الربط بين الفقر والطعام المفعم بالروائح يحتاج إلى النقد، إذ تلوح فيه ترسبات طبقية (حتى ولو اعتقد تحرك الزيتونة أنه يحارب الطبقة قبل سواها). ومع ذلك، لم أشعر برغبة باللعن، لعن التحرك، تفهّمت منطقاته بالنسبة إلى ناسه. المشهد اختلف لي في الدالية يومها، إذ رأيت الشمس تخترق عينيّ وصدري، وانتميت لكل يد قصّت السلك، ولكل جسد ارتقى في البحر. كل هذه الزحمة وسواها طبعاً في ما يخص الحراك،

بحيث لا ينتقدها المترددون فيحجمون عن التظاهر؟ هل يحق لي أن أطلب من أشخاص يناضلون منذ سنوات في الحيز العام لضمان حقوق جميع الناس، ألا يتسببوا بنفور

الأزمة المستدامة مضت بيننا من خانق إلى أشـ خنقا. والشارع لا يكن. لا يستسلم. يعبر عن تمرد نسبـ

الجاهزين أساساً للنفور؟ هناك فئة من المترددين، تستدرج النقاش إليها، تصبح هي محور، كيف ترضى عنا، كيف لا تلومنا، كيف نقنعها، كيف ندللها، وهي تتوقع - بسوقية - من مناضلين في المحاماة والتعليم والاقتصاد والجنسانيات وحقوق المرأة وحقوق المواطنة، أن يرفعوا إليها أوراقتهم، لتوافق عليها. وتلك الفئة، نادراً ما أقدمت على فعل في صالح عام. تلك الفئة، لا ضرر في الإنصات إلى شكواها الدائمة، وذبيبتها المستمرة كالأزمة المستدامة، لتبيان حال بعض الناس في لبنان، والاستفادة ربما من بعض النقد. لكن، أن يضعها المرء نصب عينيه لإقناعها بالجدوى، جدوى ألا تملأ الزبالة البلد، فهذه مضيعة للوقت والطاقة ومقتل للاندفاع.

شبكة الأمان متوقرة ومتينة

إن المتواجدين اليوم وكل يوم في شوارع لبنان هم مناضلات ومناضلون في سياقاتهن/م، وقد أحدثوا على مر السنين تغييرات في الوعي العام، في القوانين، وفي الشارع. هذا الشارع، يقطف ثمار هذه السنين، ويذهب بها إلى أبعد. عن مسافة، بدأ فهم الحراك بما يشبه استجماع قطع «الپازل». هذا المشهد يوقظ تلك الذاكرة. وذاك يوقظ هذه، مع تعديل طفيف. مع تطور الأيام، خرج الحراك عن طوع الذكري. بات يصوغ قصة تستجد فصولها. ومع ذلك، وعن بُعد، لا يجد الذهن مهرباً من افتراض يقول بأن الشارع لن يذوي هكذا، بلا جهد بالغ أو حدث عظيم يقتله، لأن شغل سنين طويلة ومتصاعدة الوطأة من الحملات المدنية اشتبك فيه، ضمنه، وحاك فوراً شبكة أمان تمتلك شوارعه. تحركات «جنسيتي حق لي ولأسرتي» عمرها يفوق العقد من الزمن. «اتحاد المقعدين» بنح بإصدار قانون للدمج منذ أكثر من عقد، وبقي عدم تطبيقه عنوان حملات لا تكن. حروب «هيئة التنسيق» الطاحنة ذات العافية والصلابة والغضب، كانت عابسة محقة وفي صلب «المصلحة

العامّة». التراكم واسع. مكافحة العنصرية، حقوق العاملات المنزليات وقانون العمل، مناهضة العنف الأسري وخطها التصاعدي نحو التشهير كما الحشد غير المسبوق نسوياً في الشارع. مسيرات العلمانية وألوانها النافضة عنها احترام النظام، إعلان الذات خارجة عنه. سواها أيضاً، وهي حملات كثيرة ملأت الشارع بأصوات مختلفة مع وعن تلك المائلة فوق منابر المعتادة. من المستحيل إلى اليومي، تسلل إحساس المخفيين قسراً في لبنان إلى النفوس. المقابر الجماعية، أتذكرون؟ كان إحساساً خانقاً. الأماكن العامة، صيحة الحداث. الدالية، محور متين، مجهز بصلاية، وبأكثر من لغة. وصولاً إلى مبادرات عفوية كتقطع الطرقات بسبب الكهرباء وبسبب الخطف وبسبب المطامر، حتى حل الانهيار المقرّر. الأزمة المستدامة مضت بيننا من خانق إلى أشد خنقا، والشارع لا يكن، لا يستسلم، يعبر عن تمرد نسبي، محكوم طبعاً بوجوديات كثيرة، لكنه موجود. وهو يصنع خبر اليوم بجرأة غير مسبوقه. بوقاحة قاطعة كالأناس.

الحراك محارب اليوم من السلطة وعلى عمق خطوط سطوتها ومدييها الاجتماعي والاقتصادي. وهو محارب بينما يتشكل. ما يفيد حيناً في شد العصب التظاهري، وما يضره حيناً لأن العود، عوده كحراك راهن، طري في طور التشكل. لكن، ربما، أكثر ما يدفع القلب إلى الاطمئنان هو اسمه. اسم وُلد على الأرجح صدفة، أو التقاء المرء كذلك، وإذ بالكلمات المكتوبة والمحكية تكاد تجمع على تسميته بذلك. فكلية «حراك» تحاكي في الذهن قول غيفارا: كونوا واقعيين واطلبوا المستحيل. ليس تحركاً بزمان ومكان ينتهي بانتهاء الدعوة إليه. ليس ثورة ستسقط وتعلي وتهتد وتبني بما يفتر تماماً إلى واقعية. ليس انتفاضة، فهو لا ينفذ عنه استحالة الحياة تحت سلطة القتل، وإنما هو يدفع مجتمعه باتجاه تحيّل واقع غير ذاك الذي تحاصرنا به السلطة. هو حراك. هناك في المجتمع حراك. وهو تظاهرة، كما هو مقال ومفكرة. وهو محاكمة، كما هو تسريب وتشهير. وهو بيان، بقدر ما هو نكتة ورسم وأغنية وهتاف. هو حراك، له جذوره الضاربة في المجتمع المدني وفي النقابات وفي الأحزاب وفي البيوت، وله طموح يشد نحو مقومات حياة تليق بأهل هذا البلد. وله الوقت كله، له الوقت كأمواج، بصعوده وهبوطه، بالحماسة وهبوطها. إن فاعلية الحراك تلوح من رحابة اسمه. من الواضح أنه لم يأت من عدم ولا يتجه نحوه. ولذلك، هو حكماً مستمر.

غَضَبُ إلكتروني بين شاشتَيْن!

جنى طرابلسي

رسامة ومصممة
غرافيكية. تتضمن
أعمالها رسومات
لمجلات وصحف،
وكتب أطفال.

زياد أبو الريش

أستاذ مساعد لمادة
تاريخ الشرق الأوسط في
جامعة أوهايو، وعمر
مساعد في مجلة
جدلية الإلكترونية.

لكن، لنا

خلال الاسابيع القليلة الماضية، جلست وحيدة امام شاشتَيْن، شاشة التلفزيون أتابع الاخبار، وشاشة كومبيوتر أنفعل بالاخبار. دوّنت غضبي وصوّرت، وشاركت مع اصدقاء الكترونيا وشخصيا. نزلت الى الشوارع مع الالوف من الآخرين. والان، في هذه اللحظة التاريخية من حركات البلد ونضالاته، انا صرت جزءا من «نحن». نحن نستعيد الشوارع، والبحر، والغابات، ونترك لهم الجدران، وعدادات الوقوف، والبوابات وأقفالها. هم يتقاسمون أرباح مراهنتهم ويعدّدون حكمهم بطريقة غير شرعية. ونحن نملك الشرعية والسلطة الشعبية.

هذه المراتب والعبارات والافكار والقضايا نتاج عمل مشترك. إستلهمتها وبلورتها ونفذتها بالتعاون مع اصدقاء. انها مجموع الانتصارات التي حققها هذا الحراك الى يومنا هذا، في عدد محدود من الاسابيع. نحن أوقفنا مناقصاتهم. نحن أسقطنا جدرانهم. نحن استولينا على المساحات العامة التي هي لنا. ونحن نطالب الآن بتمثيلنا شرعاً في الدولة.

جنى طرابلسي

نحن، هم

اواسط المدن تكتسب اسماءها لأنها تجتمع للبشر. لا يجوز ان تملكها القلة، ولا ان تديرها او تسيطر عليها. ولا يجوز ان تكون في تصرف القلة وحدها. انها حيث جميع السكان يمشون ويلتقون ويتسكعون ويشترون ويتوقفون ويلتقون من جديد. اواسط المدن هي حيث نحتج ونشأغب. وسوف تكون هكذا على الدوام. نحن لسنا الهوامش، نحن المراكز. هم وضعوا ضباط الامن،

وبلوكات الاسمنت والحواجز. هم سيطروا على ارضفتنا وحدائقنا وساحاتنا العامة وخربوها. وهم من شيد الجدران ضدنا وحول المساحات التي فيها نلتقي ونتوحد. اذا كان الشباب الفرنسي في ايار ١٩٦٨ حلم بالرمال تحت احجار الرصف في شوارع باريس، نحن، في آب/اغسطس ٢٠١٥، نستعيد ارض بيروت الذي صادرها من تحت أرجلنا من خصصوا المساحات العامة في وسط بيروت. هذا هي المشاعر التي حاولت التعبير عنها بواسطة شعار «تحت رصيف سوليدير، أرضنا».

هذه ليست بيروت

في العديد من محادثاتي مع طلابي في الجامعة الاميركية في بيروت، ادركت اني اتحدث عن جمهور شاب لا يستفطع في معظمه كونه يعيش في مدينة وسطها مملوك فرديا. بوجي من هذه النقاشات، اعلنت وقائع ووصفت حالة: «هذه ليس بيروت، هذا لوغو لشركة خاصة تملك وسط مدينة بيروت». واللغو المستخدم في المصق قد صمّمته واستحوذت عليه «سوليدير»، الشركة التي أتيت على ذكرها.

ليست هذه القضايا بهامشية بالنسبة للاحتجاجات. ان خصخصة الملكيات العامة تقع في صميم قضايا الفساد التي جرّحت السنوات العشر الاخيرة من حياتنا وفاقمت من استكانتنا وعجزنا. الى جانب المسابح الخاصة تقع شواطئ المسابح العامة الملوثة بنفايات المسابح الخاصة. وعلى هامش وسط بيروت الصقيل، تقع الاحياء الفقيرة الوسخة من بيروت، الملوثة بنفايات وسط المدينة الصقيل. تحت الجسور التي تربط المناطق التجارية من المدينة مع محيطها، اكوام النفايات حيث تنتظر الحافلات والفانات والتاكسيات التي نستقلها وجميعها مملوك فرديا - وجميعها تلوث الهواء التي نتنشق.

غسيل
أموالكم
يلوث
بيئتنا



هم الزبالة نحن الشارع

«سبلوا الزبالة من الشارع، هم الزبالة، نحن الشارع». هذا هو الشعور الذي نتشارك فيه تحت هذه التورية الرخيصة لوطن نعيش فيه مطمورا تحت حكومته الوسخة الفاسدة.

غسيل أموالكم يلوّث بيئتنا

نحن الجيل الذي شاهد غسيل أموالهم واستنكرناه برد فعل ضعيف أو معدوم أو نتيجة مشابهة، الى ان طلعت ريحته الى مستويات لا تطاق.

مواطن وليس متواطئ

اخيرا، سقط القناع عن وجوهكم و«طلعت ريحتكم». الذين لا ينزلون الى الشوارع ليدينوا ويصرخوا ويناضلوا كلهم متواطؤون. انا، نحن، الذين ندين ونصرخ ونناضل، نحن هم.

جنى طرابلسي

كيف ما في دولة؟

في الاسبوع الماضي، نزل الوف من اللبنانيين الى الشوارع تحت شعار «طلعت ريحتكم» للاحتجاج على الفساد السياسي والاقتصادي في البلد. نزلوا ضد محاولة متوحشة لتفريق الاحتجاجات وإسكات المشاركين فيها. بدأت التعبئة في تموز/يوليو ٢٠١٥ بسبب ازمة نفايات وايضا بسبب الحالة البائسة للخدمات العامة عموما، وشبكات الانتفاع والريح وايضا بسبب الشلل العام الذي المسؤول عن كل هذه الحالة.

١٨ آب/اغسطس منعطف في هذا الحراك عندما انتشرت أشرطة فيديو يشاهد فيها رجال امن يهاجمون المحتجين. تضخم عدد المتظاهرين الى نحو عشرة الاف يوم ٢٢ آب/اغسطس، فتصاعد القمع الحكومي، واذا أشرطة فيديو جديدة يظهر فيها استخدام خراطيم مياه وقنابل صوتية وقنابل غاز ورصاص مطاطي. وقد جرى الاستعانة بالجيش الى جانب قوى الامن.

الذي يألون السياسة في لبنان قد سمعوا تكرارا عبارة «وين الدولة؟». وهذا هو الواقع الذي تريد الفنانة والمصممة الغرافيكية جنى طرابلسي لفت النظر اليه بواسطة هذه المجموعة الاولى من تصميماتها الغرافيكية عن العنف الدولة ضد المحتجين. في المجموعة الثانية من اعمالها، تلعب على فكرة «طلعت ريحتكم» التي اطلقها المحتجون لنقد فساد الطبقة السياسية. وطرابلسي ثابتة في ادانتها للعنف الذي يمارسه الامر الواقع بشكله البنيوي او الظرفي.

زياد ابو الريش

هذه ليست
بيروت

هذا لوغو لشركة خاصة
تملك وسط مدينة بيروت

مواطن
وليس
متواطئ

تحت
رصيف
Solidere
أرضنا



تظاهرات لبنان هل هي بداية التغيير؟

باسل ف. صالح

أستاذ جامعي، لبنان.

حدث في النصف الثاني من العام ٢٠١٥ أن وصلت السلطة في لبنان إلى تناقضها التناحري، إذ بدأت كل التسويات والصفقات تصل إلى حائط مسدود، بعدما كان النظام، ومنذ العام ٢٠٠٥ يوم اغتيال رئيس الوزراء الأسبق ومهندس اتفاق الطائف رفيق الحريري، قد انقسم على نفسه، فلم يعد بإمكانه تجديد نفسه، لا بل انقسمت الأحزاب الحاكمة بشكل عمودي حادّ بين طرفين تابعين تماماً للخارج هما ٨ و ١٤ آذار.

إلا أن الصاعق كان موضوع النفائات، إثر تفجّر الصفقة التي كانت تسيّر شؤون القطاع من خلال التوافق على شركة واحدة هي سوكلين، فوجد سكان لبنان أنفسهم وسط النفائات المنتشرة في بيروت وجبل لبنان بدايةً، ومعظم المناطق اللبنانية لاحقاً، وما لبثت أن بدأت التحركات الشعبية من منطقة الناعمة (قبل الأزمة بسنوات)، وتبعته منطقة برجا التي رفضت إقامة مطمر للنفايات في الأراضي المحيطة بها، ولاحقاً مجمل قري إقليم الخروب، ومحافظة الشمال عموماً وعكار خصوصاً بعدما بدأ التهامس على إقامة مطمر فيها.

وبين هذه وتلك، خرجت مجموعة «طلعت ريحتكم» بمبادرة من ناشطين مدنيين، في ردّ فعل على الذهنية التي تعتمد السلطة في معالجة موضوع النفائات، وعلى الصفقات التي تهيمن على آليات المعالجة هذه.

وكوّنت سبحة تأسيس المجموعات الشبابية والحزبية بحيث بدأت المواجهة تأخذ طابعاً تصاعدياً، أظهرت فيه السلطة في لبنان، وبطرفيها، مرونة عالية في اتهام التحركات الشعبية، تارةً بنسبها إلى السفارات، وطوراً بنسبها إلى أحد المحاور الدولية التي تنقسم إليها وعليها قوى ٨ و ١٤ آذار.

لم يقف الأمر عند هذا المستوى، بل بدأ ظهور التواطؤ

الضميني لكل من يدور في فلك طرفي السلطة، سواء على نحو مباشر أو غير مباشر. فبعدما كشف الحراك الشعبي العربي تواطؤ العديد من القوى والصحف والإعلام عليه، أتى الحراك الشعبي في لبنان ليكشف الجزء الآخر المتخفي. فما كان من الصحف، ومن مثقفي السلطة، إلا أن كالوا جميع أنواع الاتهامات، وصلت إلى اتهام الحراك وبعض المجموعات الناشطة فيه بـ«الداعشية»، ما عبّد الطريق أمام القوى الأمنية لاستخدام العنف المفرط، وصولاً إلى حملات الاعتقال التي لم تميّز بين أي ناشط أو مناضل وآخر.

في ظل هذا كله سقط كل الكلام عن تمايز النظام اللبناني على المستوى العربي، فكشّر النظام والقوى الأمنية والشبيحة التابعون للقوى السياسية المهيمنة عن أنيابهم، بمنهجية عمل لا نستطيع التفريق بينها وبين الديكتاتوريات العربية، بحيث يمكن القول إن ما قامت به السلطات كان نسخة طبق الأصل عما حدث في بدايات الحراك الشعبي العربي، وصولاً للدعوات إلى استخدام المزيد من العنف في وجه المتظاهرين من قوى كانت تدّعي الديمقراطية وحرية التعبير عن الرأي.

التهمة: شيوعي!
أمّا لاحقاً، وفي يوم ١٧ أيلول من العام نفسه، فظهر كلام المعبر الفعلي عن القاعدة الطبقيّة المادية للنظام، أي نقولا شماس، بما يمثله من مصالح تجار بيروت، لیتهم الحراك بـ«الشوعية»، وليشن هجوماً عنيفاً على الفقراء في لبنان وعلى الفئات الشعبية التي عانت الأمرين من التقسيم الطائفي السلطوي للنظام في لبنان، ما عيّن حدود المواجهات الطبقيّة بين الطرفين، وبشكل سريع: السلطة البرجوازية من جهة والطبقات البرجوازية الصغيرة

والكادحة والشرائح المهمشة غير المستفيدة من النظام من جهة أخرى.

وما قام به شماس أدى، وبمزيد من منطق السخرية الذي يتحكم أحياناً بمنطق التاريخ، إلى تنشيط كافة القوى اليسارية والمنحازة إلى الفئات الشعبية ومصالحها، بعدما كانت كل محاولات تنشيطها، منذ بداية التسعينيات، بالإضافة إلى انهيار الاتحاد السوفياتي وغياب الديمقراطية الداخلية، قد وصلت إلى حائط مسدود، وأدت إلى تطويع الأحزاب اليسارية القائمة وإلى تقويض إمكانية بناء يسار ثوري حقيقي. الأمر الذي كرس قاعدة أن السلطة، وهي تحاول أن تبعد شبح القوى التي يمكن أن تواجهها، تقوم بتكريس هذا الشبح بشكل غير مقصود.

ما قام به شماس أدى إلى تنشيط كافة القوى اليسارية والمنحازة إلى الفئات الشعبية بعدما كانت كل محاولات تنشيطها قد وصلت إلى حائط مسدود.

بين هذه وتلك ظهرت وما لا يبلغه الشك الحدود الطبقيّة للمواجهة القائمة مع النظام، بحيث وضع نقولا شماس، وبخفة نيوليبرالية، الطبقة المهيمنة على النظام في مواجهة الطبقات الأخرى، أي البرجوازية الصغيرة والطبقة الكادحة. ما يعني أنه أعاد الجدال الطبقي إلى الواجهة من جديد، وذلك على شكلين:

١. شكل المواجهة التي كانت سائدة قبل الحرب الأهلية، بين طبقة برجوازية وطنية وطبقة كادحة من ناحية وبين طبقة برجوازية مهيمنة، مع ما يستدعيه من ضرورة التنبيه إلى عدم الانزلاق إلى الخطأ نفسه الذي مارسه القوى التغييرية اليسارية تلك الفترة، وهو القبول بقيادة البرجوازية الوطنية لعملية التغيير، وذلك بسبب طبيعة بنيتها المأزومة أولاً، وبسبب قدرتها على المساومة مع النظام ثانياً.

٢. عدم الانزلاق إلى الخطأ الذي ارتكبته هيئة التنسيق النقابية، بعدما حافظت على خطابها المطلبي دون الارتفاع إلى مستوى الاشتباك السياسي مع النظام، واعتماد خطاب إصلاح جدي يضع النقاط على الحروف. ما سمح للسلطة بوضع إسفين شق بين هيئة التنسيق ومختلف المطالب الشعبية، وأظهرها في موقع المدافع عن الموظفين ومصالحهم وعن مطالب قنوية

ضيقة. فبدأ الجدال حول أحقية هذه المطالب، خصوصاً أن أعداداً كبيرة من الموظفين الذي يتقاضون رواتبهم، والذين دخلوا إلى مؤسسات الدولة بالمحاصصة الطائفية والعلاقات الاعتمادية، لا يقومون بأي عمل، بل يتقاضون رواتبهم كل آخر شهر دون أية إنتاجية.

ومن ناحية ثانية، يعكس الوضع القائم المأزق الفعلي الذي يواجه الحراك الشعبي من جهتين:

١. جهة نظام بوليسي قمعي طائفي لن يتوانى عن استخدام كل ما يؤيد سيطرته.

٢. جهة طبقة حاكمة يمكنها بأية لحظة التنكر للحراك، ولمصالح الطبقات الشعبية، والكادحة، والمهمشة، والالتفاف عليها بخطاب طائفي يشرذمها.

يستدعي ذلك التنبيه إلى أن المعركة، وإن أخذت طابعاً غير طبقي في مرحلتها الأولى، تسير رويداً رويداً إلى طرح النقيض لجوهر النظام القائم، أي إلى المواجهة المباشرة مع المنظومة الرأسمالية. وهذا لن يكون إلا بخطاب اشتراكي، أو بخطاب يطاول القاعدة الاقتصادية للنظام في لبنان وأيديولوجيته السائدة، في أقل الأحوال، بحيث لا مجال للهرب من التغييرات على المستوى الاقتصادي، وتحويل لبنان من بلد يقوم اقتصاده على قطاع الخدمات إلى بلد يقوم اقتصاده على القطاعات المنتجة. وهو ما يستتبع أيضاً، صداماً على المستوى الأيديولوجي مع البرجوازية اللبنانية بالضرورة، أولاً بالعلمانية والمساواة التامة والعدالة الاجتماعية، وثانياً بتقويض تلك المزاعم التي لعبت دوراً مفصلياً في تهجير الشباب اللبناني بهدف العمل في الخارج والعودة إلى لبنان برأسمال يسمح بفتح عمل خاص تحت مبدأ تشجيع المبادرة الفردية.

وهي تلك الأيديولوجية التي تعتبر أن موقع لبنان الجغرافي لا يسمح له أن يكون إلا بلداً للخدمات، فأدت إلى تقنين القروض الطويلة الأمد الموظفة في قطاعات الزراعة والصناعة، وإلى حصرها بالقطاعات السياحية والخدمات الأخرى القصيرة الأمد والتي تهدف إلى الربح السريع. وهو ما أدى أيضاً إلى النزوح من الأرياف والتمركز في المدن، مع ما يعنيه ذلك من كثافة سكانية ومن ارتفاع الطلب على السكن وعلى باقي الخدمات من كهرباء وماء، وارتفاع أعداد العاطلين من العمل.

أي، وبكلام آخر، هي المواجهة مع تلك الأيديولوجية التي تمنع في ضرب الطبقة الكادحة المتضررة في لبنان، وتحويلها إلى طبقة تحلم أن تصبح شريكة في النظام،

تساقى لدعم حراك شعبي في سورية أو في البحرين واليمن، بأي شكل كان، في مواجهة سلطات أقل ما يقال فيها إنها فاسدة، تتعارض مع الموقف المتأني عن الحراك الاجتماعي في لبنان.

فما يسري على أنظمة الدول العربية يسري كذلك على لبنان، ليس بوصفه عربياً فقط، وليس بوصفه جزءاً لا يتجزأ من المنطقة، بل لأن الفساد لا يختلف وفق العشيرة أو المذهب أو الطائفة أو لون البشرة أو اللهجة أو الحدود أو اسم الدولة، أو الجنس... إلخ.

من هذا المنطلق بالتحديد كان حرياً تحليل ذهنية تجيز لنفسها في مكان ما، وتعارض نفسها في مكان آخر. والتحليل لا ينطلق من موقف وطني، أو من منطق مصلحي يحاول أن يظهر الموقف مما يجري في لبنان بشكل يختلف عما يجري في العالم العربي المحيط، بناءً على توجه نفعي، أو توجه مصلحي ضيق، بل هو محاولة للبحث في توجه كوني يترفع عن شرط المكان ليصل إلى المبدئية الثورية في النظر إلى الأمور السياسية.

وهو المنطق المتور ذاته، ليس فقط من موقعه الأيديولوجي، بل من موقف تجريبي مباشر يقارع الواقع. فكيف يمكن التضامن مع الشعب السوري مثلاً من أجل قضايا محددة، وغض النظر عن الشعب البحريني الذي يعاني القضايا نفسها؟ لا بل كيف يمكن التضامن مع أي من شعوب الدولتين ورفض التضامن مع الحراك الاجتماعي في لبنان حول القضايا نفسها؟

هو سؤال يبدو بسيطاً بالشكل، لكنه يعكس أزمة على المستوى السياسي، لأنه يقوم على منطق المفاضلة، أو منطق الأولويات، أو منطق ينظر في الأمر وفقاً لعدد الضحايا. كأن يكون النظام في دولة أفضل من النظام في دولة أخرى، فقط لأن مواجهة الشعب للنظام في الحالة الثانية تأتي عنه عدد أكبر من الضحايا، فاستحال العدد معياراً لبطش الأنظمة وفسادها، ودخل منطق المفاضلة بين هذا وذاك، وتأجلت المشكلة، بعدما أصبحت كيفية الموت، وهوية القتل، المعيار المحدد للموقف من القتل ومن الأنظمة التي تمارسه.

هو هذا المنطق نفسه الذي يبرر موقف المتفرج السلبي على الحراك في لبنان، خصوصاً أنه يمس كافة مكونات المجتمع. وبين هذه وتلك حقل خصب لا يمكن غرسه سريعاً، خصوصاً أنه يظهر عقم المزاعم الداعمة للحراك الشعبي العربي، أو إحالتها، وبأقل الأحوال، إلى ذهنية طائفية أو مذهبية، لا تنظر إلى الشعوب ومصالحها

وهو ما يخالف المنطق التاريخي البنيوي الطبقي نفسه جزاء التأزم العالمي للرأسمالية، الذي يظهر على شكل أزمات كل فترة وأخرى، وصولاً إلى الانفجار الرأسمالي نفسه في عدد من الدول الأوروبية وفي الولايات المتحدة، وغيرها الكثير.

دعم لثورات الدول العربية وتخوين في لبنان

وعلى مستوى آخر، أظهر الحراك اللبناني، وبما لا يدع أي مجال للشك، عقم المنطق السلطوي الناظر في حركات الاحتجاج العربية. فبعدما حاولت قوى ١٤ آذار إظهار دعمها للشعب السوري، وقوى ٨ آذار دعمها للشعبين البحريني واليميني، بشكل غير طائفي أو مذهبي، أظهر الحراك الشعبي في لبنان زيف هذه الادعاءات. إذ ما لبثت تلك القوى التي تنقسم إليها الطبقة الحاكمة في لبنان، أن أخذت موقفاً معادياً للحراك الشعبي، ما أظهر زيف ادعاءاتها الداعمة لطرف من الحركات الاحتجاجية العربية، لاسيما أنه، وبمقاييس بسيطة يستطيع أي متابع أن يضع يده على كمية الفساد المستشري في الدول العربية عموماً وفي لبنان خصوصاً، بدايةً من السيطرة على الأملاك العامة، والثروات الطبيعية، وآليات اختزال السلطة، وكيفية تقزيم الدساتير والقوانين لتناسب مع أحجام القوى المهيمنة، وتحويل الخيرات الطبيعية إلى ملكيات خاصة، ووقف مفاعيل القوانين، والمحاسبة، وتحويل الشعب من مواطنين إلى رعايا... إلخ.

يستطيع أي متابع أن يضع يده على كمية الفساد المستشري في الدول العربية عموماً وفي لبنان خصوصاً. من السيطرة على الأملاك العامة إلى تحويل الشعب من مواطنين إلى رعايا.

فما يهم بالأمر هو التركيز على التحركات المطلوبة التي تسير كالنار في الهشيم، دون أن تظهر أي ملامح لحصرها، وهذا ما استدعى الكتابة والرصد، وإعادة خلط كافة الأوراق، إذ كيف يمكن أن تقف تلك القوى موقف الداعم لحراك اجتماعي عربي، وموقف المعارض لحراك اجتماعي في لبنان؟

لذلك، تظهر أزمة تضامن القوى الطائفية التسلطية اللبنانية في أبهى حللها، إذ إن التبريرات التي كانت

لا لیل یکفینا لنخلم مرتبین ..



قطاع حيوي، أي نقابة أو رابطة أو تجمع (باستثناء عمال المرافئ). فلا الاتحاد العمالي العام موجود، ولا هيئة التنسيق، ولا الأساتذة في المدارس والجامعات الرسمية والخاصة (باستثناء بعض المدارس الخاصة والجامعة الأميركية والجامعة اللبنانية على مستوى فردي)، ولا نقابات الأطباء، ولا المهندسون، ولا القضاة، ولا المحامون، ولا أطباء الأسنان، والصيادلة... إلخ، ولا أي قطاع من المتضررين من كل ما يجري، فما هو السبب؟

لقد أنتجت السلطة معظم القطاعات الحيوية على شاكلتها، بعدما تغلغلت فيها منذ انتهاء الحرب الأهلية، بين العمال، والمزارعين، والأطباء، والأساتذة، فبات أي تحرك ليس غريباً عنها فقط، لا بل عدوها. بات كل تحرك شعبي بمثابة مسّ مباشر بمعظم النقابيين، بمراكزهم، بحيثياتهم، بمصالحهم، بما يمثلون. لقد استطاع النظام البرجوازي الطائفي تطويع هؤلاء، والتمركز في قلب تجمعاتهم وقولبة ما يمكن أن يشكل أي تهديد لوجوده من خلالهم. فلم يعد المعلم معلماً، ولا النقابي نقابياً، ولا المهندس مهندساً، ولا الطبيب طبيباً، بل أصبح كل هؤلاء منفصلين عن النضال الاجتماعي، ولا تجمعهم سوى المطالب الفئوية المباشرة المتمحورة حول تحسين شروطهم المالية، ما عكس ابتعاداً عن بلورة خطاب يرتبط بالتغيير السياسي بحجة أنه يشردهم، فأصبحوا ممثلين بارعين في لعبة السلطة بعدما أصبحت مهمتهم الأساسية تطويع أنفسهم وتطويع كل ما تصل إليه أيديهم. باتوا وجه السلطة القمعي الكامن، والذين لا يتحركون إلا وفق ضرورة السلطة وليس ضرورة حياتهم الكريمة.

لم يعد من الممكن التغاضي عن الأمر، ولا يعني أن الكلام دعوة إلى الاستسلام، بل هو يعني، وبشكل مباشر، الحاجة إلى إدراك المأزق الفعلي الذي يقف الناس ومصالحهم حياله. فليس هناك من هو معهم في هذه المعركة، بل جلّ الناس ضدهم، الأكثرية الساحقة ليست معهم، بل باتت، وفي أسوأ أحوالها، أشباحاً لخصمهم. لم يعد من الممكن التغاضي عن الأمر، المواجهة مفتوحة، وليس هناك من حل قريب. فاليوم، لا بد من العمل على تأسيس تنظيمات ونقابات ثورية يكون هدفها تثوير الفئات الشعبية من خلال النضال ضد النظام الذي يؤيد معاناتهم، ومن أجل ألا تدخل القاعدة التي تقول إن الحركات التغييرية لا تقوم بأكثرية شعبية حيز التنفيذ، بحيث يمكن القول بعدها، إن سيرورة تغيير النظام في لبنان قد بدأت فعلياً.

بوصفها الأساس، بل تنظر إلى الأنظمة حسب انتمائها الطائفي. فيتظاهر الأمر وكأن الموقف من النظام، بم عزل عن أية أرضية، هو نفسه الموقف من الشعوب ومصالحها، أو لنقل، وبكلام آخر، إنها قضايا يتحكم فيها منطق النفي الهيجلي، كأن تكون قضايا التعيين هي نفسها قضايا النفي، وهي المقولة الهيجلية التي تعتبر أن «كل نفي تعين، وكل تعين نفي».

بات من الصعب التغاضي عما يحدث في الشارع أو حصره في أمر مطلبى واحد. فالنفايات منتشرة. لا كهرباء. لا مياه. لا قانون. لا أمن. لا حريات.

إن النظر بهذا المنطق هو أساس المشكلة، إذ إن الوقوف إلى جانب الشعوب يختلف تماماً عن الوقوف ضد الأنظمة، حيث تستحيل المقارنة إلى أزمة تتبدى على مستويات فتح وإغلاق باب المواجهة، وباب التضامن، أو باب الشعور بالمسؤولية الإنسانية. وهو أيضاً منطق مواجهة الأزمة النظامية بمنطق الأنظمة نفسها، أو هو النظر بعين الأنظمة لأزمة الأنظمة، بحيث يجري استبدال ديكتاتورية بأخرى، أو قمع بأخر، أو هيمنة بهيمنة، فتنتهي الشعوب من كارثة لتواجه مصيبة، وهو ما يمكن ملاحظته في الحراك المصري على سبيل المثال، وفي تمدد منطق الثورة المضادة وإحاطتها بكل ما أنجزه الشعب المصري خلال الانتفاضة على حكم الرئيس مبارك.

لهذا كله، بات من الصعب التغاضي عما يحدث في الشارع، أو حصره في أمر مطلبى واحد. فالنفايات منتشرة، لا كهرباء، لا مياه، لا قانون، لا أمن، لا حريات، لا عدالة، لا ضمانات اجتماعية، تعديلات، مخالفات، نهب، فساد، قمع، سيارات بلا لوحات، قتل، قتل مضاد، والعدد الأكبر من الناس ما زالوا في منازلهم. لم يعد من الممكن التغاضي عن الأزمة، أو الإسراع إلى الجواب الأسهل عبر القول إن الدعوات إلى المشاركة لا تصل للناس، بل إن الأمر أعقد من ذلك بكثير. فالنفايات تملأ الشوارع، تركز بين المنازل، والأبنية، تعلق بإطارات السيارات، تفوح من المكان، ترتطم بزجاج المنازل، بغرف النوم، بالثياب، بالمياه، بالصحن اللاقط فتظهر كل الأخبار ممزوجة برائحة التناثر. لم يعد من الممكن التغاضي عن عدم مشاركة أي

تاريخ النفايات «سِدر» والسموم المشعة

جيسكا خزريك

خزريك كاتبة وفنانة.
درست اللغويات
والمرشح في الجامعة
اللبنانية وتحضر حالياً
ماجستير العلوم
في الفن والثقافة
والتكنولوجيا في
معهد ماسشوستس
للتكنولوجيا.

نادي شهود الزور

يعمل منذ عام
٢٠١٤ على استقصاء
سياسات ومشهديات
النفايات في لبنان.

لم تنقطع الشمس بعد

«نرفض إعادة إعمار بيروت على جبل من النفايات المعمارية والصناعية». هذا كان شعار مجموعة «سِدر» (النادي العلمي للبحث الأكاديمي في البيئة والطاقة Société de l'Énergie et de l'Environnement Pour la Recherche Académique) والتي تأسست سنة ١٩٩٣ على يد الباحث في الكيمياء التحليلية د. ميلاد جرجوعي، الباحث في السموميات البيئية والاختصاصي في علم الأدوية الطبيعية د. بيار مالميشاف، والباحث في الهندسة النووية والمائيات د. ولسن رزق. التقى الخبراء في عام ١٩٨٨ على أثر دعوة من رئيس التفتيش المركزي في الجمهورية اللبنانية أو «الرابوليش لبياناس». عيّنتهم الرئيس للتحقيق في حمولة مشبوهة من النفايات السامة أتت من إيطاليا وأدخلت إلى لبنان بواسطة أحد أحزاب. قرّر العلماء الثلاثة إنشاء «سِدر» للبحث في المشاكل البيئية في لبنان، ولاسيما مشروع إعادة إعمار بيروت بعد الحرب الأهلية. في سياق عملهم، أخذوا العيّات وحلّلوا النفايات. كتبوا وقدموا حلولاً واقتراحات بعيدة الأمد. هُددوا من قبل النظام، واستجوبوا، كما تمّ اعتقال أحدهم.

بينما كنت أبحث في أعمال مجموعة «سِدر» وأغوص في تاريخ نفايات لبنان، وجدت نفسي إزاء ارتدادات تاريخية مألوفة، تربط «زمانية ومكانية» ومشهدية النفايات مع البنية التحتية للسياسة المحلية في هذا البلد. إذ بينما يدور الجدل الحالي حول أهمية إنشاء مصانع لـ «تدوير» النفايات للحد من أزمات القمامة المستقبلية، تظهر «سِدر» وعلمائها حال مدينة وقد خاضت أرضها وأرباضها وما تحت أرضها في إشكالية تدوير وتسييس النفايات في وقت سابق لأواننا و«أوانها». فبين جبال

نفايات لبنان التي تشكلت أو استوردت في أثناء الحرب الأهلية، وإعادة إعمار بيروت بعد الحرب، وأزمة النفايات الحالية، علاقات وثيقة وتاريخية شاهدة على مدينة أعيد بناؤها من خلال «التدوير» المعماري والسياسي للقمامة. في عام ١٩٨٧ أدخلت «المافيا الإيطالية» بالاتفاق مع أحد الأحزاب اللبنانية، ١٥٨٠٠ برميل وعشرين مستوعباً من النفايات السامة إلى لبنان. من أجل إتمام الصفقة، أنشأ المتورطون اللبنانيون شركة وهمية تحت اسم «Adonis Productions and Engineering». غير أنه عندما وصلت «شهادة تعريف» الشركة إلى أيدي القنصل اللبناني في إيطاليا ظهيرة ١٨/٢/١٩٨٨، لم يجد الأستاذ أديب علم الدين نفسه أمام ورقة تفيد «إتلاف كامل حمولة النفايات الصناعية [...] وتحويل جزء من الحمولة إلى رماد ورمي الجزء الآخر في مجاري النفايات» فحسب، بل وجد نفسه أمام لغة جديدة أيضاً. لغة مستنبطة، وختماً للثبات أو للجمهورية اللبنانية التي جرت تهجتها بطريقة خاطئة أو بلغة إيطالية افتراضية. تحلّقت دائرة الـ «رابوليش لبياناس ١٩٨٧» حول فتازيا أخرى وصفها محقق وكاتب أحد تقارير النفايات السامة بـ «شجرة أرز تشبه شجرة صنوبر».

أتذكر جيداً تلك اللحظة. ما أن قرأت عن الأزمة المحاكاة حتى توقّدت شيء غريب بداخلي، فرحت أبحث في كل مكان عن تلك الشهادة، شهادة التعريف الزائفة. هل كانت تلك الشجرة الهجينة التي توسطت ختم الدولة الوهمية «الرابوليش لبياناس» والتي أعدت رمزا وطنياً لها، حلماً جماعياً وسط حرب أهلية؟

آنذاك، عيّنت الدولة (أي في العام ١٩٨٨) لجنة خبراء مؤلفة من العلماء الثلاثة الذين، كما رأينا، أنشأوا مجموعة «سِدر» لاحقاً. قام دورها على رصد



النفايات، فحص طبيعتها وتقديم مخطط لمعالجتها. تكوّنت نفايات هذه الصفقة من مواد صناعية ذات سمّية عالية جداً كالمفجرات الكيميائية، نفايات نفط، رمل ملوّث، الديوكسين، سداسي كلور البوتادين، الكادميوم وغيرها، وصولاً إلى جزمات وقفاً وثياب ملوّثة لعمال مصانع، وكذلك دهان انتهت صلاحيتها وأدوية انتهت صلاحيتها وأصمغة انتهت صلاحيتها ومنع إنتاجها واستعمالها في جميع أنحاء أوروبا إلخ.

عدا عن البراميل التي تم حرقها أو رميها في البحر. أو التي تم إفراغ محتواها فتنظيفها لبيعها للمطاعم التي استخدمتها لتخزين الزيتون وصنع الكبيس والعرق. وجدت براميل أخرى مكدسة علناً في كسارات ومواقع بناء.



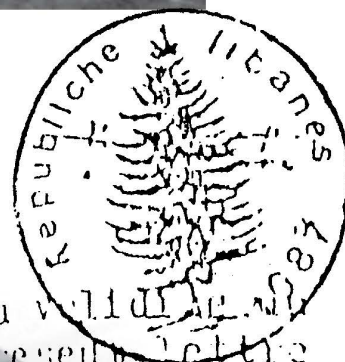
عدا عن البراميل التي تم حرقها أو رميها في البحر أو طمرها في غابات أو كسارات أو أنهر أو في مكبات لبنان الأخرى كالنورماندي، برج حمود ونهر أبو علي، أو التي جرى بيعها كموايد أولية لمعامل «اضطرت أن تتلف منتجاتها الغربية» في أحد المكبات أو الأنهر المذكورة آنفاً، أو التي تم إفراغ محتواها فتنظيفها لبيعها للمطاعم التي استخدمتها لتخزين الزيتون وصنع الكبيس والعرق أو للمنازل من أجل استعمالها لتخزين المازوت والمياه، بالإضافة إلى كل ذلك، فقد وجدت براميل أخرى مكدسة علناً في كسارات ومواقع بناء في طرابلس، شنعير، ساحل علما، بشليبي، أنطلياس، مرقا بيروت، جبيل، غريز، زوق مكاي، عيون السيمان، كفرديان، وصولاً إلى - ومثلما استخلص العلماء عام ١٩٩٥، أي بعد ٧ سنوات على فتح الملف - البلد كله.

لم تكن هذه الحمولة سوى صفقة واحدة من تجارة النفايات العديدة التي استقبلها لبنان سرّاً في أواخر الثمانينيات والتسعينيات من إيطاليا وكندا وألمانيا وبلجيكا وإسرائيل وربما غيرها، وذلك مقابل مكافآت مالية مؤلت مشاريع الأحزاب كالفق ٢٠٠٠ مثلاً أو صندوق القوات اللبنانية، ودعمت استثمارية وعدم تحلل الوزراء ومستشاريهم الذين طال حكمهم حتى اليوم. لم تنقطع الشمس بعد، انتظر، أنظر إلى الحائط، ينخر قليلاً، لا أبرح مكاني. هنالك قطرة جديدة من العرق على الجرف الأيمن من أنفي تتكوّم بأناة، تتجول متتدة نحو

من الأعلى للأسفل:
جزمات وثياب ملوثة داخل أحد المستوعبات المستوردة من إيطاليا؛ الدكتور بيار مالبشاف؛ «حتى تلقي المياه قبلة برميلين» - تجهيز فني لجسيكا خزيك عرض في مركز بيروت للفن في العام ٢٠١٤

من الأعلى للأسفل:
العلماء الثلاثة أمام أحد مستوعبات النفايات؛ ختم «الرايوليش ليباناس» في أسفل شهادة التعريف؛ ١٩٨٧؛ نفايات على أحد الجبال في لبنان، ١٩٨٨





La validité de
présente cette
réserve aux au-
torités compéten-
tes pour délivrer.



براميل في قبو كسارة
شننغير، ١٩٩٤



العيش والتناسل بأمان فيه. [...] على أية حال، خلال سنة أو سنتين، ستحوّل هذه الحديقة الوطنية المخشبة بالمرات الضيقة والمحاطة بالعشب والزهور والأشجار المسقيّة بمياه الصرف الصحي المعالجة، مكاناً للتنزه والدراسة والتأمل لسكان المدينة، وللتلاميذ والطلاب وأقارب اللبنانيين المفقودين الذين سيُنصب حجر جماعي موضوع وسط سرير من الزهور لذكراهم».

اقتطعت المقطع المذكور آنفاً من مقال «سدر» الثالث. اخترق العلماء اجتماعات سوليدير قبل تكوينها وتوقيع عقد التجديد مع الدولة. تابعوا جدل ومخطط إعادة إعمار بيروت في أوائل التسعينيات بانتظام. نشروا عام ١٩٩٣ في الـ Revue du Liban سلسلة من ثلاث مقالات قدّموا من خلالها بحثاً، ونقداً ومخططاً للحفاظ على المدينة وترميمها دون ترحيل سكانها ودون كبح ذاكرتها.

المقال الأول:

مقدمة بيروت ووسط البلد الذي نريده.

المقال الثاني:

بيروت ووسط البلد الذي نريده جزيرة سياحية مربية، كارثة في التصوّر.

المقال الثالث:

بيروت ووسط البلد الذي نريده: الميراث التاريخي والمساحات الخضراء.

عابنوا في المقالين الأخيرين مكبّ النورماندي الذي وصلت مساحته إلى ٣٦٠٠٠٠ م^٢ من خليج لنفايات جمّعت منذ سنة ١٩٨٥ حتى ١٩٩٤، أو كما في الظاهر، حتى اليوم. إنّ النفايات السامة ما زالت حية وهما هي ترتدّ اليوم، في المنزل وعلى الشارع.

عاد مشهد الرائحة بحلة جديدة، منزليّة وسلطوية. ولم تنقطع الشمس بعد منذ بداية أواسط التسعينيات. امتدّت، تفاقمت الأزمنة، أفرغت الجبال، عمّرت، مُلئت بالنفايات، طمرت النفايات، أصبحت الجبال جبلاً غائبة، غابة، ارتدّت وأكلت النفايات تواريخكم. تكوّم النفايات يقتل. هل لا نريد أن نموت؟ ولمن لا يعرف، فسنة ١٩٢٥، رُدِمَ البحر لأوّل مرّة في بيروت وسمّيت أرضه «جادة الفرنسيّين» المعروفة اليوم بـ«النورماندي» أو الـ«زيتونة باي».

خُدّي. تنزلق على غرّة فترحل عن وجهي وتقع على قميصي. أنظر إليها، إنني متأكدة أنها ستختفي بعد أقل من دقيقة. أنهض لأغلق النافذة، يلتصق رأسي بكتفي اليمين، أحاول أن أفصلهما بيدي اليسرى، تلتصق هي الأخرى، تتوقد ساقي. أرمق «الميثان» الذي يزجّ من جسدي، رائحته تصفعني، أغيب عن وعيي. أحلم بجوٍّ غير قائظ، لا ينفع الحلم. أرى أبو كيس من بعيد، أهلل به رقصاً، لا أعلم لماذا أرقص. يرقص لي أبو كيس، يتكاثر ليصبح جيشاً من آباء الأكياس. يرقص الجيش، ويبطء يحاكي بطالات إعلانات العطور الفرنسية، أستيقظ. تهبّ ريح خفيفة. أتوجه نحو الباب، نحو مدخل المبنى.

ردم البحر لأول مرة في بيروت منتصف عش القرن الماضي وسميت أرضه «جادة الفرنسيين» المعروفة اليوم بـ«النورماندي» أو الـ«زيتونة باي».

لم تنقطع الشمس بعد، أنتظر هذا الوقت. يرشح جسدي في القبط وتصبح رائحتي كالزبالة. أنتظر وقتاً آخر. لا أنتظر. إنّ هذا المنزل لا يطاق. أبحث عن جبلٍ غاب، غابة البقايا.

عزيزتي النفايات، لن ترحلي بعيداً

«على حافة البحر، في أجزائه اللزجة والعميقة، سنرّي بحيرات شاطئيّة ساحليّة مكوّنة من المياه العذبة المزوّدة بمياه الصرف الصحيّ التي تمت معالجتها واستخراجها من محطة تنقية منفصلة. سنزرع حول المصافق الأوّليّة والثانويّة للمحطة كما أحواض التهوية الطويلة المجهزة بين سطح الأرض والتربة غطاءً نباتياً كثيفاً مصنوعاً من الورود والنبات الخضراء. ستصنّف هذه المنطقة البركيّة المكسوّة بالشجر والنباتات المائية بالأسماك خصيصاً المعروفة بالسرلود (التي تتوالد مباشرةً من خلال السباحة)، ومفترسي بيض الناموس فتصبح المنطقة جنة للعديد من الطيور المهاجرة وبخاصّة المائية الآتية من أجل أن تستريح وتنمو. على صعيد المثال، تكثر في هذه المحمية الاصطناعية ومن ثم الطبيعية، طيور البط والإوز البري والغطاص والمالك الحزين والكركي ودجاج الأرض ولاسيما اللقلقيات التي أصبحت نادرة والتي أصبحت المحميات المكان المناسب لها حيث يمكنها

جَفَّفَ الصورة!

فاطمة رضا

صحافية من لبنان.

بَدَّلَ المياه والرمال بفراش.
بَدَّلَ الملابس بأخرى غير مبلَّلة من دون الحاجة إلى ترتيبها.
ضَعَّ سَقْفاً أو شادراً بَدَلَ السماء فوق رؤوسهم.
«جَفَّفَ الصورة»!

وأحباء، لم يبقَ لهم من أعزائهم إلا صورة، وطعم قبلة وداع أخيرة على وجناتهم. تقول التقارير إن نحو ١٦٠ ألف مهاجر وصل بحراً إلى اليونان، يضاف إليهم ١٧١٦ مهاجراً وصلوا عن طريق البر، في الفترة بين الأول من يناير/كانون الثاني و١٤ أغسطس/آب ٢٠١٥. وخلال تلك الفترة لقي أكثر من ٢٤٠٠ مهاجر مصرعه خلال محاولة عبور المتوسط للوصول إلى أوروبا. وذكرت المفوضية العليا للأمم المتحدة للاجئين أن أكثر من ٣٠٠ ألف مهاجر عبروا البحر المتوسط منذ يناير/كانون الثاني هرباً من النزاعات في أفريقيا والشرق الأوسط.

المهاجرون ليسوا جميعهم من السوريين، ولكن يبدو أن العامل الجغرافي في متابعة الأحداث يفرض نفسه علينا وعلى آرائنا وعلى تحليلاتنا، وقد ازدادت حوادث وفاة المهاجرين إلى أوروبا، سواء أثناء عبورهم البحر المتوسط حيث قتل أكثر من ٢٣٠٠ مهاجر منذ بداية العام، أو على أراضي الاتحاد الأوروبي، حيث كانت آخر مأساة العثور على جثث ٧١ مهاجراً في شاحنة تبريد متروكة على حافة طريق في النمسا.

هذه الأرقام تضعنا أمام واقع مرير، تشتدّ حدّته مع عدم وجود سجلات لهؤلاء المهاجرين غير الشرعيين، فيتحوّلون إلى صور تتناقلها مواقع التواصل الاجتماعي مذيّلة بعبارة «اختفى/ت في البحر» وتفيض اللوعة مع التعليق الذي يقول «اختفت مع أطفالها في البحر».

انتشار الصور المأساوية لا يُنبئ بحل في الأفق، وبخاصة مع إصرار الاتحاد الأوروبي على موقفه من الهجرة غير الشرعية، وتشديد الإجراءات على الحدود، إذ إن من ينجو من «قوارب الموت»، يبقى عليه التسلل إلى الحدود البرية واجتياز الأسلاك الشائكة أو المعوّقات التي تستخدمها السلطات من أجل الحد من التسلل إلى داخل البلاد.

بهذه الخطوات البسيطة، سيبدو الأطفال في مكانهم الطبيعي، في وضعهم الطبيعي. سيبدون أطفالاً يغطون في نوم هانئ. نعم فالأطفال ينامون هكذا بفوضوية، أيديهم مرفوعة إلى الأعلى، أرجلهم متفرقة، منهم من ينام رافعاً رأسه إلى الأعلى، ومنهم من يفضل النوم على بطنه، منهم من يخفي وجهه، ومنهم من يلقي برقبته إلى الخلف. الأطفال النائمون يفرّدون أجسادهم كالأحلام لا يلتزمون بجغرافية الفراش أو حدوده.

إذا ما جُفِّفَت المياه من مكان التقاط صور مأساة غرق اللاجئين السوريين على ضفاف الحدود الأوروبية ستبدّل الحقيقة المُرّة، وكان هؤلاء الأطفال لم يُضطروا إلى الهجرة أو المخاطرة أو الموت.

تضعنا الصورة أمام حقيقة أنه بات من الصعب رؤية أطفال سوريين غارقين بنومهم، وكأنه كُتب علينا أن نراهم غارقين بدمائهم أو بغيار الدمار الذي تخلّفه البراميل الحارقة أو بطروف مخيمات اللجوء القاهرة أو غارقين في البحر.

هكذا ببساطة تحوّل الأزرق الكبير، حامل همومنا إلى مصدر لها، تحوّل صرخاتنا الصامتة والموجّهة مباشرة صوب زرقته، صرخات نحيب يستعر في صدورها. وحكاياتنا التي نحملها إليك هذه المرة حكايات مكفّنة بأبيض يتماشي ولون أمواجك المتكسرة.

أرقام

حكاياتنا اليوم، مبلّلة بدموع أهل وأطفال وأقارب وأصحاب



تشير تقارير إلى أن بعض الضحايا يسقطون بيد المهريين أنفسهم، أو حتى يقومون بتصفية بعضهم البعض متشبثين بغريزة البقاء، ومن الروايات قيام عصابة تهريب بإغراق أحد المراكب المطاطية عن قصد بعد أن رفض اللاجئون نقلهم إلى مركب أصغر حجماً خوفاً من الغرق أو أن مجموعة من اللاجئين ألقت بمجموعة أخرى في البحر.

مكة أم «القبر الأبيض المتوسط»؟

تصعب إشاحة النظر عن تلك الوجوه النائمة، ثغور مفتوحة تكشف أسنان «الحليب»، أو تأخذ شفاهها شكل مثلثات فارغة في الوسط، وعيون أبت جفونها أن تغلق بإغماضة كاملة، للحظات قليلة تظهر وكأنها تغط في نوم «الغزلان» الهادئ.

تُرى على ماذا تسمرت نظراتهم الأخيرة؟ من فارق الحياة قبل من؟ هل أسلمت الأم الروح وهي تأمل أن ينجو أطفالها أم أنها تعمّدت أن تغرق بعد أن أيقنت أنها ستصل إلى الشاطئ من دون الذين غامرت لأجل مستقبلهم؟ هل تكسرت أصواتهم على صخب الأمواج، أم أن أجسادهم الصغيرة لم تحتمل برودة المياه؟ هل وصلوا إلى القعر قبل أن يعيد البحر لفظهم؟ أم أنّ طراوة أرواحهم طافت بهم إلى الشواطئ جثثاً هامدة؟

هل لنا أن نتأمل أن تنجح وجوه الأطفال الغرقانين، في ما فشلت صور أطفال المجازر الدموية بتحقيقه، فقط لأن الأولى التفتت على ضفاف دول تؤمن بحقوق الإنسان؟ هل يدوي صدى تلك الشهادات «الصامتة» التي تتناوب تكاوين وجوه صغيرة لصبيان وبنات على الإلقاء بها، عمّا حلّ بهم هناك في رقعة من الأرض، حيث هربوا من حمم المدافع والطائرات خوفاً على أجسادهم الطرية، ليسقطوا فريسة الماء؟

بقعة الضوء التي أثارها أوروبيون وخصوصاً في النمسا واستقبالهم الحافل للاجئين غير شرعيين وصلوا إلى بلادهم، قابلها على مواقع التواصل الاجتماعي حملة تنشر صور جثث الأطفال والضحايا على الشواطئ مذبلة بعبارة «مكة كانت أقرب» في إشارة إلى عدم فتح الدول العربية باب اللجوء للسوريين، ما دفع بهم إلى «القبر الأبيض المتوسط». كما سماه أحد الناجين من قوارب الموت، ليحاكوا الانتقادات المبطنة التي أطلقها الاتحاد الأوروبي لدول الخليج بعدم مدّ يد العون في موضوع استقبال اللاجئين رغم أن أوضاع بلادهم تسمح بذلك.

المسألة التنظيمية الثورة على أنظمة لا نعرفها

إبراهيم حلاوي

باحث دكتوراه في
النظريات الثورية
ومفهوم الثورة
المضادة، لبنان.

في الثورات لاستعادة المساحة العامة العملية (من خلال الدعوة في المساحة الافتراضية للحشد في المساحة العملية). على اعتبار أن التجربة العربية كانت الأولى من نوعها في هذا المجال، فإنها اعتمدت مساراً ثورياً تجريبياً وأستكشافياً مع وسائل التواصل الاجتماعي. أثبتت وسائل التواصل تلك والمساحة الافتراضية التي خلقتها قدرتها على التجييش والاستقطاب وفتح قنوات للنقاش السياسي. لكن تدخلت عوامل كثيرة في تفسير الشجاعة الجماعية في مواجهة عنف السلطة من تونس إلى البحرين، وفي استدامة التحركات الاحتجاجية، لم تكن الثورات ثورات فيسبوك كما أراد المستشرقون تأطيرها، وهذا متفق عليه عامة. لكن أن الأوان لتعلم الدروس من جوانب أخرى، والجانب التنظيمي يطرح أسئلة محورية خارج النقاش الضيق عن جدوى وسائل التواصل الاجتماعي. على الصعيد التنظيمي، فإن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لخلق مساحة عامة افتراضية لم يتضمن إنتاج تنظيم افتراضي بديل. أي أن المساحة العامة البديلة لم تكن قادرة على خلق تنظيمات افتراضية بديلة قابلة للتعويض عن التنظيم الفعلي للمجتمعات في الحالة الثورية. وهذا الفشل ليس نتاج تقصير ما للفئات الثورية في استخدام وسائل التواصل، بل هو توصيف للمحدودية الحتمية لدور وسائل التواصل في أي حركة ثورية فعلية. التنظيم الثوري هو تنظيم فعلي بحت. في هذا الإطار، يمكن طرح الأسئلة الآتية: هل كانت الفئات الناشطة في الثورات العربية تعي هذه

يرى كثيرون أن أزمة صناعة القرار في الحركات الثورية التي شهدتها المنطقة أخيراً هي بالعموم حالة إيجابية، أي أن غياب جسم سياسي ثوري موحد وموكل باتخاذ القرارات عموماً كان عاملاً مشجعاً على النضال الثوري. ثارت الشعوب العربية من دون قائد ثوري، ولا حزب بيروقراطي. وهكذا كسرت الثورات الصورة الاستشرافية التي تربط السيولة التاريخية لشعوب المنطقة بنخبة عسكرية واقتصادية تحركها بحسب مصالحها الضيقة بالعلاقة مع الدول الكبرى. رغم أهمية تفكيك هذه الصورة المفروضة، والتي ما لبثت الثورات المضادة أن أعادت ترميمها، تبقى الأسئلة المتمحورة حول أهمية التنظيم وهيكلية صناعة القرار الثوري على هامش الثقافة النقدية في الربيع العربي وما بعده. إن تهميش الأسئلة تلك مرتبط على الأرجح بالغموض النظري حول ماهية الثورات المضادة وعلاقتها بالسلطة. من خلال دراسة وفهم البعد التنظيمي لأدوات السلطة وبالتالي للثورة المضادة، تتبين أهمية طرح الأسئلة المتعلقة بوسائل وأساليب وثقافة التنظيم التي رافقت الثورات الأخيرة.

أسئلة التنظيم والتنظيم الافتراضي

يتفق الباحثون على أن وسائل التواصل الاجتماعي لعبت دوراً أساسياً في تحريك الشارع العربي، رغم اختلافهم على حجم هذا الدور وجدواه. عموماً، ورغم الاختلافات الأساسية في التجارب الثورية بين مجتمع وآخر، نجحت الفئات الشبابية المدنية في العالم العربي باستبدال المساحة العامة التي تسيطر عليها الأنظمة بمساحة عامة افتراضية، ما لبثت أن استخدمت لاحقاً

المحدودية؟ وإلى أي مدى ظلّ الثّوار على اختلاف ثوراتهم وثقافتهم أن وسائل التواصل هي أيضاً وسائل تنظيم؟

الثورة ومعرفة الأنظمة

مع مرور الوقت وفي رد فعل على التجربة الثورية، نجحت الأنظمة إلى حدّ متفاوت في اختراق المساحة العامة الافتراضية وفرض رقابة ومحاسبة عليها. لم تعد المساحة كما كانت سابقاً خارج مؤسسات السلطة. ومع الاعتقالات والقمع المبرمج والمشرعن ضد الناشطين في جميع أنحاء العالم العربي، أصبحت المساحة العامة الافتراضية على خط تماس مع السلطة، كما هو واقع الحال في المساحة العامة الفعلية.

ومع الرّدة المضادة للثورات، تبين أن الشعوب العربية عموماً - والفئات الثورية التي أنتجت الخطاب الثوري في العالم الافتراضي خصوصاً - قد ثارت على أنظمة لا تعرفها. أي أن مفهوم النظام أو السلطة كان ولا يزال مبهماً، للتعويض عن الغموض، اتجهت الثورات إلى تشخيص الأنظمة بالأفراد (حسني مبارك، معمر القذافي، بشار الأسد، إلخ).

مع الرّدة المضادة للثورات. تبين أن الشعوب العربية عموماً - والفئات الثورية التي أنتجت الخطاب الثوري في العالم الافتراضي خصوصاً - قد ثارت على أنظمة لا تعرفها. أي أن مفهوم النظام أو السلطة كان ولا يزال مبهماً.

صحيح أن الأنظمة الدكتاتورية عادة ما تعتمد على شخص الزعيم، لكن استدامة هذه الأنظمة غالباً ما تكون مبنية فعلياً على شبكة علاقات عسكرية - اقتصادية وعلى مصالح نخب محلية وإقليمية وعالمية، كما هو الحال في الدول النفطية. أمّا علاقة هذه الطبقة مع الطبقات الأخرى في المجتمع فتعتمد على الهيكلية الخاصة لكل نظام واقتصاده السياسي. رغم أن هذه الشبكات والعلاقات والمصالح وتوازنات القوى بين النخب متقلبة، يبقى النظام إلى حدّ بعيد في تعريفه مؤسسياً وبيروقراطياً.

تفترض هذه النظرة للأنظمة الدكتاتورية إذاً قدرة تنظيمية هائلة للسلطة. وبذلك نعود مجدداً إلى السؤال

المهمّش: ماذا عن التنظيم الشعبي الثوري؟ لا شك أن الثورات العربية شكّلت لجناً شعبياً وتنسيقيات على مستوى القواعد وهيئات مناطقيّة وتيارات وغيرها من التجمعات. في نقد التنظيم، لا نسعى إلى إعطاء صورة سطحية عن المجتمعات العربية في ثوراتها، خصوصاً أن هذه المجتمعات لم تكن في حالة ثورية عبثية. التساؤلات المطروحة عن التنظيم لا تفترض غياب الأخير، لكنها تفتح المجال لنقد أشكال التنظيم التي اتّبعَت وثقافة التنظيم التي انتشرت مع الثورات.

تتحمل الأنظمة المسؤولية الكبرى في تشتيت المجتمعات وتقسيمها ومطاردة أيّ محاولات لتأسيس تنظيم شعبي معارض. لكن التاريخ السياسي يعكس قدرة الشعوب على ارتجال سبل تنظيم ومقاومة. وهذا ما يحدث عادة عندما يبرز خطاب سياسي معارض بشكل عضوي، أي خطاب مشترك بين الطبقات المقموعة والمحرومة. وهذا النوع من الخطاب، والتنظيم الذي يشكله، يستمدّان شرعيتهما الثورية من قدرتهما على وصف الواقع بلغة وأسلوب الطبقة نفسها، على عكس خطاب السلطة الذي عادة ما يسقط على المجتمع.

مع انتشار ثقافة اليأس والاستسلام في المساحة العامة الافتراضية اليوم، تعود الدعوة إلى الثقة بالمساحة العامة العملية، حيث يشتبك العمال مع السلطة في المصنع، والمدرّسون في المدرسة، والطلاب في الجامعة، وترتجل كل فئة خطاباً ثورياً منبثقاً من لغتها العملية وصراعاها اليومي مع الاستبداد. في هذا السياق، تعود الرغبة والقدرة على التنظيم والتنظيم العضوي يمكن أن يكون لامركزياً. أي أن المسار الثوري للمجتمع يأخذ منحى يناقض مركزية الدولة، كما فعلت الثورات السابقة، لكن هذه المرة يؤسس المجتمع للامركزية منظمة ديمقراطية قادرة على تمثيل نفسها وصناعة قراراتها.

في واقع الأمور، التحديات كبيرة ونفّس الفئات الشبابية قصير. التنظيم السياسي في الأحياء وأماكن العمل والمساحات العامة الأخرى هو الحاجة الأولى والملحة لاستيعاب هجمات الثورات المضادة، وإيجاد سبل لمقاومتها والرّدة عليها.

في التنظيم العملي تكمن البدايات. وفي غياب التنظيم مساحة لموت افتراضي.

الحرب على اليمن ليليات صنعاء

ساره جمال

باحثة وكاتبة
من اليمن.

الليلة الأخيرة قبل الحرب

هذا الرعب برعاية الرياض وطهران. هذا الهلع هو ما ردّ به العالم على حلمنا بدولة المدنية والعدالة الاجتماعية. هذا الاحتلال الثنائي القدسية لن يقتل إسرائيل ولا آل سعود ولا آية الله، بل سيقتلني أنا. سيقتلك أن أتشاجر أنا وأبي الذي يصرّ على نومي بعيداً عن الشباك ويذكرني برصاصة اخترقته في ٢٠١١. أغمض عيني وأردّد هتاف «مسيرة الحياة» من ذلك العام: «لا سعودية ولا إيران. لا وصاية على الأوطان».

٢٨ آذار/ مارس

الليلة عيد ميلادي السابع والعشرين. الليلة هي الثالثة والأقصى منذ ساعاتها الأولى. أنا والداي متكوّمان نحضن بعضنا البعض كلما زارت الطائرات ومضاداتها الأرضية. تخلخلت نوافذ البيت ومعها سنوني وما تبقى من زهر في قلبي. يا رب لا تفجعني في من أحب.

الليلة السادسة

خور مكسر في عدن وفجّ عطان في صنعاء. كُرات من اللهب «الشقيق» وما بينهما زحف انتقامي خرج من أوردتنا ويحتجزنا جميعاً رهائن في المنتصف.

الليلة السابعة

هذه الحرب بدأت تغيّرنِي. بدأ الغضب يتغلّب على سلامي الداخلي. أصبحت ناقمة على الجميع. ناقمة حتى على من بقي بجانبني لأن هذا البقاء تذكّار يومي بأهمية التشبث بحياة لا أملكها. ناقمة على من لم يتكبد عناء النظر إلى

فقط في اليمن توّد لو أنك قادر على تصديق ما يقال، أو الإيمان الأعمى بالـ «القائد الرمز» لينزاح الجمل عن روحك التي تنزف من جلدك اليومي لها، وكأنك المسؤول عن كل شيء بينما كل ما تملك مسؤوليته هو بالكاد عدد ملاعق السكر في فنجان الشاي. فقط في اليمن تكافح التشاؤم كي لا تكون المتبوء الذي يقرأ بين الأسطر ويصاب بالحرس وقت تهليل الحشود. فقط في اليمن تصاب بانهايار عصبي عندما يتضح كل مرة أنك محقّ! فقط في اليمن، أكثر أهله يمنية هم من يودّون لو أن هناك علاجاً لمتلازمة التعلق المرضي ببلد يأكل محبيه بهذا الشكل. فقط في اليمن، بات أقصى طموحي أن أكون مخطئة كما قيل لي طوال ست وعشرين سنة!

الليلة الأولى: الواحدة والنصف بعد منتصف الليل

أشغل نفسي بالمعضلة التي تلازمي منذ المدرسة الابتدائية حول ما إذا كان أسم الضوء برقاً أم رعداً لأفسر ماهية الذي هز الشباك وراء رأسي إلى هذا الحد. ربما هي آخر أمطار الربيع هذا العام. هذه المعضلة مكنتني من شغل بضع ثوان أذكر نفسي فيها، كما كنت أفعل في حصة العلوم، بأن الضوء يسبق الصوت ولكن هذه المرة الصوت سبق الضوء مجدداً. معضلة البرق والرعد بدأت تفقد قدرتها على مواساتي بعد الغارة الثالثة. أركض صوب أمي التي تدير التلفاز لتعرف أن الحرب بدأت. ولكن حرب من ضد من؟ ولم؟ انقطع التيار الكهربائي قبل أن يكمل المذيع جملته ولكنني سمعت ما يكفي لأعلم أن

الخلف وهو يدك آخر معاقل الوحيد الذي كنت صادقة في طلبه: أن نكون بخير.

الليلة الثامنة

أدركت أخيراً أننا لا نزداد إلا جبناً وخوفاً مع تقدّم العمر. يأتي كل عيد ميلاد بعد ٢٠١١ ليؤكد أنه لا يحمل عيداً وبكل تأكيد خالٍ من أي ميلاد. ومع إصراري هذا العام على مواجهة عيد ميلادي بقلب حلوى وهدايا أجمعها لنفسى إن لم يأتي بها أحد، أتتني الذكرى وهي تشبك يدها بيد الحرب. هذه المرة تأتي الحرب كإعلان رسمي لانتها حبة الشجاعة، فكل عام يمضي، يقضم معه قطعة من غضاضة القلب وخفقانه البرّي ليتلوى كحصان وحشي حوّطه راعي يقر مستوطن بحبل استعداداً لترويضه وتجنينه بعيداً عن البرية. يا عشرينات العمر احتفظي لي ببقايا الهندية الحمراء والفرس الوحشية فلا يبدو أن هذه آخر الحروب التي ستقضم ما تبقى منهما، واحتفظي لي ببعض من البأس وإن فقدت مصدر بأسك.

الليلة الحادية عشرة

أحياء صنعاء التي قليلاً ما تتفق على شيء سوى النكبات، تتفق اليوم على تسارع إيقاع رقص البيوت بعد أن توهم قاطنوها أن القصف منحهم فرصة لثناء عدن والحداد على تعز. في هذه الليلة، أرقب بخدر شديد احتراق خيطان النسيج الاجتماعي اليمني المهترئة وهي تركض صوب المحيم لتتأكد من أنها تلاشت كلياً وتتوثق من أن لا إمكانية لإعادة حياتها مجدداً.

دخل اليمن حقبة جديدة من القتل والقول المضاد في ظل تسابق أهله على إنكار ألم كل من هم دون العصابة الصغيرة ليصبح ألم العصابة هو الاستحقاق «الشرعي» الأوحده، فننتحب كل المراثي لمعرفة أن احتكار الجرح يجعل التثامه أمر مستحيل.

الليلة الثانية عشرة

وصلتني رسالة القبول لدراسة الماجستير. أخشى أن أفرح بصوت عال فأقضم مضجع مخاوفي لتضرم نيرانها في الخبر السعيد. لذا أخبئه وأحرس سريته بعناية ولا أضرح به حتى انتهاء المذبحة.

الليلة الثالثة عشرة

أعزائي لا تستخسروا قليلاً من التضامن معنا. فبين كل ثلاثة متضامنين عرب واحد فقط متضامن مع اليمني، أما الاثنان الآخران فأحدهما يتقرب بنا للرياض، والآخر لطهران. ولا تخافوا، سينسانا العالم سريعاً، كما نسي الكثيرين من قبلنا من يعرف عنهم أكثر من اليمن الذي قد يكون أول عهدكم به هو نشرة أخبار الحرب وآخره نكتة بليدة عن القات، وما بينهما جهل مركب بسنين من نضال لم نكلّ خلالها يوماً من أن نفسح لكم جميعاً حيزاً منه حتى ونحن نسقط سهواً من أيامكم وسنينكم.

محيتي للمتضامن الثالث الذي يكتب ويسأل كل يوم من أجلنا نحن لا من أجل تسجيل المواقف وهو يقوّينا ضد الانزلاق مع هذا الطرف أو ذاك فقط بكلمة «كيفكم، قلبي معكم!».

وأنا؟ أنا قلبي على سجن القناطر، ومخيم اليرموك، وشاطئ قابس، وشوارع بنغازي، ومقاعد الدرس الكينية، وكُرز عرسال، ودم النيل الأزرق وجسر اللمبي، والزعرتر الحلبي، وبحر بونت، وشتات الأرمن ويزق الأكراد، و... لا يفوق الحرب مأساة سوى تعاطف انتقائي يفاضل في كل شيء حتى بين الجثث!

الليلة الخامسة عشرة

يا ليتني متّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً.

الليلة السادسة عشرة

منذ أن عرفت نفسي وأنا في تعاملتي مع الأزمات «سكية سمن وسكية غسل»، فبعد ليلة كدت خلالها أن أفقأ عيني لأوقف النواح الذي لم يتوقف إلا بتهويد وقصة قبل النوم، جاء الصباح بخدر فائق يعزّ علي أن أعرف أنه لن يصاحبني أكثر من يوم لأن «السكية السمن والسكية غسل»، كما يقول المثل اللحجي، تحتم علي الاعتياذ علي أن الأيام مداولة. المؤسف هنا أن أقصى ما في السكية غسل هو الحذر في هذه الأيام وأقصى ما في الابتهاالات من تطلعات أصبح أن نرزق اللامبالاة ولو لساعات. لذا، إجلالاً لنخب الحذر المؤقت الليلة هي إحدى ليالي المغالطة بحلقة من مسلسل كلاسيكي

من أمنت بهم وأمنوا بي، أكره الحب والصداقة والأحلام الصغيرة ومعاركها التي تجعلني أتشبه بحياة لا تشبه من الحياة سوى آلة ضخ عضلة هذا القلب المشوه، قلب قبل أن تصدر له أوامر جديدة ليتكيف مع حالة الطوارئ الوطنية والشخصية، يود أن يستأذن الجلاد والضحية والوطني والمهاجر واللاجئ والمحلل والمعلق والموظف الأممي والباحث في شؤون كل شيء وأولياء الأمور في أن يكون له يوم واحد مخصص للنقمة والحقد على كل يوم ظننت فيه أنني سأكون بخير.

الليلة العشرون

عشرون ساعة بدون كهرباء، بدون ماء، وبدون أدنى مقومات البقاء، لا الحياة، فالرغبة بالحياة صارت ترفاً، والبقاء الغريزي يحتضر. كومي الطحين والشمع يا صافية، واقربي عن الذكرى الأربعين للحرب الأهلية اللبنانية، فلا حربهم انتهت ولا حربنا بدأت، وصلي الحرين وفكري بكم من صافية هنا وهناك انتحن معاً حتى يأتي الأجل.

الليلة الحادية والعشرون

٣٦ ساعة بدون ماء أو كهرباء، أهل في عدن تحت جحيم القصف ونحن في صنعاء في قفص لا يصلح لتربية المواشي نرتب فيه ما تبقى من ماء للشرب وطحين للخبز بحسابات دقيقة وانبطاحات متتالية لتفادي شظايا نوّخر استقرارها في صدورنا.

في الأثناء ينزعج «المحلل التلفزيوني» من كلمتي «كفاية حرب»، فيقول الحبير المقيم في إسطنبول والرياض وموسكو وطهران وبيروت إنَّ التيار الذي يصرخ «كفاية حرب» يتقاضى أجراً مقابل تبيع «القضية»، لو كان لدي ما يكفي من الدقائق المسروقة على هاتف يوشك على الانطفاء قبل أن أطمئن على دواء ذاب في حرّ عدن، وطعامنا الذي تكالب العالم على أغاني المؤانئ والمطارات لإيقافه، لاستفسرت عن الجهة التي يمكن أن تدفع، فبعد أن قطعت الحرب أرزاق من قعد ومن قاتل على حد سواء، صرت أتمنى، ولو على سبيل النكتة، أنَّ هناك من يدفع، صارت المطالبة بوقف الحرب تهمة، بالفعل كم من «خبرائنا» الموزعين على عواصم العالم سيفقدون أعمالهم لو تقف الحرب، ارحموا من

قديم أشاهدها للمرة المليار وأتبلد أمامها وأنا أردد حوار الأبطال حتى يغلب النعاس صوت قصف صنعاء ورائحة جبّانات عدن.

الليلة الثامنة عشرة

اكتشفت أنني لم أعد أصلح لغير هذه الحياة، «مش لنا الزينة وبيارق المدينة» كتبت لي، لي وحدي.

الليلة التاسعة عشرة

بدأت أفقد «أمتي» التي كانت تعينني على الاندماج مع «الآخر»، لا يوجد من يفهم هذه اللحظة سوى عيني مقرب داخل اليمن أو آخر عالق في مطار ما يركض أقرانه لجوف بحر أو سماء أو كهف خارج بلدانهم احتضاناً «للفرص» ويركض هو بالاتجاه المعاكس حيث «عز» القبيلي بلاده، علماً بأن عودة هذا القبيلي الذي يفترش المطار لنصف شهر ستقتلع ما تبقى من عز آخره للزمن وستنقله من اغتراب المطارات لآخر أعنف على سبل البقاء، لكن يبقى أهون من كحت الذات وتقليمها وتغليفها للاندماج مع ذاك الشقيق وتلك الصديقة، ما دون هذه الحقيقة التي تأكل إنجازات استثمار الفرد في روحه كي لا تقع فريسة هذا التصدع المرعب، فإنه يصلح مادةً للتحليل على الصحف والقنوات وفي أفضل الحالات عبئاً على بشرية لا تزال تتهرب من أعباء أقدم بكثير في المظلومية التي حوّلتها أغنيات ومناحف في أكثر الأحيان «عدالة».

بعد ساعات ستحلّ الليلة العشرون

هذه الأيام تذكّر بكل الوعود الكاذبة والمعارك الوهمية والعمر المهذور من أجل مكتسبات شخصية لا ترى بالعين المجردة، هي تذكّر بكل أيام غد كنت أحيها على فئات أمل أجمعه بعناء كل مساء قبل أن يسرقه مني الصباح مجدداً، أنا أكرههم جميعاً بفصامهم وكذبهم وبراغماتيتهم وتظاهرتهم بالاكتراث لأي شيء سوى غرس وجودهم في كل مكان تطاوله أيديهم التي لا يمكن أن يحاسب «قدسيته» أحد وهي تطاول كل بقعة أحاول أن أجعل لي فضاء فيها ولو كذباً، أنا أكره كل سنين العبث التي كنت أظن أنها ستمنحني سنيناً أحلى، أكره كل



ما في المخزون فلن يتبقى ما يكفي الأيام الآتية للقفالة التي يبدو أن مراحلها طوال، وأطول من عمر أي أمل.

الليلة السادسة والعشرون

هذه الحرب تجعلنا نظن أن حياتنا قبلها كانت مثالية، ولكننا في قرارة أنفسنا نعلم أن هذا غير صحيح. لم تكن كل أيامنا الحالية حسنة. المسألة هي فقط أن الحرب تجعلنا نظن أن سئى الأمس مهما كان حجمه أفضل بكثير من اليوم. الحرب تجعلنا نسهب في أسباب تقبل كل ما كنا نرفضه بالأمس علّ دعواتنا بانتهاه اليوم تُلبى مقابل أن نذر كل أمانى ومعارك الأمس قرباناً لهذا الدعاء. هذه الحرب تجعلنا نقطع الوعود بالأ نعاود ممارسة الرفض للواقع لأن أي واقع أفضل من اليوم. هذه الحرب تجعلنا نرهن كل معاركنا ورغباتنا الفردية التي ناضلنا سنين من أجلها، وهي مسلمات لدى غيرنا، مقابل حفنة طحين وبضع قطرات ماء وساعة كهرباء. الموت ليس أسوأ ما تحمله هذه الحرب، فإبادة سقف التوقعات مقابل أن يكون البقاء منتهى رغباتنا هو أسوأ ما يحدث، والأسوأ على الإطلاق هو التنقيب عن لبنات ما كنا نريد إن انتهت الحرب لإعادة إعمار سقف توقعات جديد سيبقى مشوهاً جريحاً منهكاً حتى وإن سمحت الهدنة والتسوية السياسية بإعادة إعمارها.

الليلة السابعة والعشرون

لكل شيء مرة أولى. اليوم أول مرة تلتهب الدنيا من حولي ويغطي الدخان ما تبقى من بأس. اليوم عرفت معنى التعبير الصناعي «نكعُ بطوني» فبطني بالفعل سقطت وانصهرت وأتلفت عظامي ولم أقوَ على الوقوف وجلست فوق الرصيف أرمق اللهب، برسم كل العيون التي تقافزت من محاجرها وهي تبحث عن مستقر الصاروخ، برسم صوت أمني المرتجف على الهاتف، برسم الدخان الذي لا يزال يخفي الخسارة، برسم «سرينات» (صفارات) الإسعاف التي تلاحق أنفاسي، لتصلي على الأمل ولنشيعه قبل تشييعنا.

ساعات قبل الليلة الثامنة والعشرين

ما زالت قدماي ترتعشان بعد أن نسف صاروخ الأمس ما تبقى من صحتي النفسية المهترئة ونثرها على الجسر

بقي فينا في هذا البلد رغم حرب الداخل وحرب الخارج وارحموا ما تبقى من سقف آمال ارتطم بالأرض ويات مقتصرأ على «كفاية حرب».

ساعات قبل الليلة الثانية والعشرين

«عزيزتي الكهرباء، عزيزي الماء، تحية طيبة، أما بعد تقول الأغنية الصناعية من قديم الشعر الحميني: «الهجر يومين أو ثلاث أيام/أما ثمان، يا تعب حالي!» وبما أننا في الساعة التاسعة والخمسين من رحيلكما الأليم، فأرجو الالتزام بالعرف. نذبح بعضنا خشية أن تتغير إحدى تفصيلاته وألا يزيد الهجر عن ثلاثة أيام. تقبلاً مني فائق الاحترام و ما عاش اللي يزعلكم».

الليلة الثالثة والعشرون

أصبح أطفال الحي خبراء عسكريين. عندما اهتزت سلال المبنى بنا، قال حمودي ذو الستة أعوام: «سعليش (لا تخافي) يا خالة هذا صاروخ»، لكن الحالة، أنا، منشغلة عن الخوف بعد الساعات الأربع والثمانين (٤ أيام) بدون كهرباء أو ماء. والله ودارت الأيام وأصبحت ماري أنطونيت وتغسلين وجهك بماء معدني يا سارة المشكلة أن الماء المعدني وماء الشرب بشكل عام ارتفع سعرهما قبل ثلاثة أيام فقط بمعدل ٤٠٪.

في هذه اللحظة طوابير البنزين المرابطة دون جدوى لخمس ليال تعانق طوابير الماء وكلها تتراقص بذهول مؤلم باتجاه صوت الانفجارات وكأنها تبتهل في دوائر صوفية لكي تؤجل الشظايا موعدها حتى تشفق علينا ربى صنعاء بقطرة ماء بعد أن نسينا الضوء والأمان.

الليلة الرابعة والعشرون

الطائرات وصلت للأذن الوسطى، والأخريات يرتقن العمود الفقري باتجاه المخبئ لنسف ما تبقى من اتران. مائة وست ساعات بدون كهرباء وأكثر من ٢٤ ساعة بدون نوم تحيل صوت الطائرات إلى بطني لأشعر بعثيان لا حل له سوى الصيام الذي يساعد على اقتصاد المياه التي قد تحتاج إليها أي زيارة للحمام. الأهم من كل هذا هو الاقتصاد في الأمل، فأنا أخفي الأمل تحت مخدتي وأخرج منه قوت اليوم فقط لأنني لو أسرفت في استحضار

قد أكون تجاوزت اصطحاب تلك الصورة التي وجدت مستقراً أعلى كل رف صادفته في تنقلي من بلد لآخر، حتى أخفيتُها أخيراً كي لا يجلدني الشريط الأسود بعد أن اعتصرتني السنوات الأربع الماضية وجففت إجاباتي وابتهالاتي على حد سواء. لكن شفق غروب هذا اليوم كل عام لا يزال يشق صدري نصفين وكأن تابوتك لم يكن، وكأن الوردات الجورية أعلى الضريح الذي شُرق لم تكن، وكأن الثابت الوحيد هو ملاحظتي للخط الأحمر لأن الطفلة بداخلي كانت تؤمن بأن غروب الشمس هو الذي سيأخذك بالفعل، كيف أوقف هذا اللهيب بداخلي وكيف أرثم هلالِي قلبي وكيف أوقف توسلاتي للغروب بأن ينتظر قليلاً حتى أصل لـحجرة الفولاذ الباردة قبل أن يجعلها إغلاقتها ثلاثة موتى لا أكثر؟

يا ناصر، العام الرابع أتى والناس بين ذابح وذبيح، وأنت لا تزال هتيفاً. طوبى لك الهتاف، وما أقساء بقاؤنا في انتظار المذبحة.

الليلة التاسعة والثلاثون

مطر في غير موسمه! يا مطر أخف دموعنا واغسل قبورنا وأفرح أطفالنا وزين ليالينا المقفرة. يا مطر، غط صوت القذائف في عدن والصواريخ في تعز والأنين في مأرب والطائرات في صنعاء. يا مطر أوهم صنعاء ببراءتها من كل هذا الدم. يا مطر، صوتك خافت لا يغطي ولا يخفي. يا مطر، اكذب علينا أكثر، أكثر قليلاً ولو لليلة.

الليلة الأربعون

المجد لشارع هائل للمطبخ والفاصوليا والخبز الطاوه والثمبل والشاهي القوطي وأيسكرم ملاي التواهي والسنبوسة والهريسة. المجد للسلة والعصيدة والمرق الحامض وسوق القات وتُن أبو بادي. للإسكافي العجوز وبسطات الشارابات و الطارايح والسياكل ودوري كرة قدم الحواري.

الله لا قطع لسانك رزق فلم يعد هناك يمن إلا فيك.

الليلة الثالثة والأربعون

حسن نصر الله لم تكن يوماً خيبة بالنسبة لي لأنك لم تحمل في نظري أملاً قط. لكنك كنت أملاً للكثير

الذي كاد أن يهوي بنا. صديقاتي ينعين صديقة لهن اسمها لينا وزوجها عبد المؤمن وانبهما قضاوا جميعاً تحت ركام البيت الذي لم يحتمل بدوره ذلك الصاروخ. أما صديقتي بلقيس التي لطالما وجدت في حجرة معيشتها متنفساً لكل ما قيل لنا على الدوام إنه يجب ألا يقال، فقد التقطت صورة تأملتها كثيراً بحثاً عن كرسي ابتها شمس التي تستمع لأحاديثنا بشكل دوري ومبكر جداً في عامها الأول الذي أكملته قبل شهر. بلقيس كتبت بالأمس:

«كل زجاج تكسر ونشر في الصور يساوي كسراً في القلب. ليس لأهمية ذلك الزجاج، بل لمدلول عدم الأمن وقرب الاعتداء ودخوله منزلك ولو من نافذة كان يمكن أن تكسره بحبة كرة طفل يلعب بعفوية. ليس الزجاج هو ما ننشر. نحن ننشر جراح أرواحنا. فرع قلوبنا. وجع فقد وطن يتحطم وينتثر كزجاج النوافذ يتحطم كجدران البيوت. هو بيتنا الكبير الذي يهدمونه على رؤوسنا».

نحن في اليمن لسنا بخير، طمنونا عنكم!

الليلة التاسعة العشرون

ليس كل ما في إجاريات الحرب سيئاً. هذه الحرب علّمتنا أن نفرح بالانتصارات الصغيرة التي أصبحت مجردة بما يكفي لأعيننا. انتصارات من قبيل «دبة غاز»، ربطة خبز، سيارة أجرة أو حافلة بها ما يكفي من البنزين لمشوار قصير، والأهم خصلات امتدت على حين غفلة وأصبحت قابلة للتجديل والاحتفاء بالقرارات الأهمية التي أنستني المقص لوهلة. هذه الحرب جعلتنا أقدر على الاحتفاء بالآني الذي طالما استبدلناه بمعارك مستقبل يبدو أبعد من نجوم صنعاء التي كان دخان المشتقات النفطية يحجبها لأكثر من أربع سنوات. هذه الحرب جعلتنا نحتضن من نحب ونلتصق بهم ونعيش أنا أكثر حميمية عوضاً عن صولات الغد الكامن وراء النجوم.

الليلة الرابعة والثلاثون:

ذكرى ناصر الرابعة

أتذكر حديثنا في أول خيمة نصبت في الساحة قبل أن ترتقي السماء بليلة، كنت واثقاً أنه لو اختار الجميع الزناد، تختار الهتاف وطوبى لك يا هتيف خيمتنا. قد أكون تجاوزت دموع أصدقائنا واختناقات ريم بعد أن أودعوك حجرة الفولاذ الباردة بانتظار رحلة التراب.



من الصادقين الذين آمنوا بكاريزما الوهم. ما زالت
يداك تغرقان في الدم في سورية ولم تبذل أدنى جهد
لأن تغسلهما قبل أن تغسلهما مجدداً في اليمن. أين
هي الوجهة المنهكة القادمة؟ لا يهم. فأنت لا تنتهي
من وجهة ما قبل أن تهلك أخرى. ألم تتعب بعد؟ هل
ما زالت جهنم تنادي بالمزيد؟ ألا يمكن على الأقل
أن تحتجب عنا قليلاً وتتركنا نحن والمراثي دون أن
تضاعف المنايا بمنية أخرى من خطاباتك؟ ألم تعرف
الفقد قبلنا؟ ألم تدرك حاجة الإنسان إلى الحداد؟ هل
جربت أن ترتاح قليلاً وتزورنا على راحلة السلم ولو
لمرة؟ هل فكرت أن عدن بها ساحل يمكنك أن تستريح
فيه من وعاء الدم وتسلم نفسك لعود أحمد قاسم
وهو يغني لساحل العشاق؟ هل فكرت أن وراء قلاعك
المحصنة بعيداً عن الأبيض المتوسط هناك وراء الحطام
وقود خطاباتك بقايا من بخور ولبان وبهارات وشيدر
وفوطه وشمير وروتي صندوق وأطفال ينتظرون المطر
ليغتنوا له «يا مطر مطيرية يا سراج الليلية»؟ لم أتوقع
منك أن تكثر لنا فأنت لم تكثر لأهلك ولا لجيرانك
قبلنا. فما بالي بالشعب البعيد الغريب الذي رفع صورك
يوماً ما رغم كل شيء علك ترد لهم أرضاً سرقت في
النكبة، لكن لم يعرف أنك ستكون أنت نكبتهم! من
أدمن الحرب لن يفهم وأنت صرت مدمناً يصيبه السلم
بأعراض الانسحاب التي تشبه انسحاب النيكوتين
البطيء من الدم.

لكن أرجوك توقف عن الحديث عنا. اصمت واتركنا
لمصيبتنا أجاارك الله من المصائب.

الليلة الرابعة والأربعون

ارتفع منسوب التحرش الجنسي كما ونوعاً في
شوارع صنعاء بشكل جنوني وكأن انعدام المواصلات
والاضطرار إلى المشي ساعات للتمسك بما تبقى من
فئات لقمة العيش تحت حر الشمس تارة وبين الحفر
التي يعزبها المطر تارة أخرى لا يكفي. بل على كل
واحدة منا خرجت للشارع أن ترتطم بعائلة على البشرية
جل غايتها هي توسيع تلك الثقوب التي نحملها نحن
النساء في قلوبنا بسبب حرب لم نخترها.

هذه المرة، يصنع الرجل اليمني من ذلك وإحباطه
الشخصي عنفاً يفرغه على كل امرأة تمشي في الشارع
وكانه لا يكفي أن الأرض من تحتها ترفض أن تبتلعها



الليلة التاسعة والستون

لعصريات عدن حاستان لا يلزمك سواهما، أنف يستنشق طبخة البخور التي تتسلل من بيت لآخر في تحدّ يجمع نساء «الحافة» اللاتي تصرّ كل واحدة منهن على أنها أمهر صانعات البخور حصراً، وثانية الحاستين هي أذنّ ماهرة تستطيع التنقل بين دربكة الزنقور وعود أحمد قاسم وتحدّر باقي الحواس لتكف عن الشكوى من «كهر» النهار الحارق.

عدن مغناج، «فنقة» كما تذكرها عاميتي العدنية تلمس الحناء على شعرها وراحتها بانتظار أن يستحي الشيب من أن يغزو هامتها فتعاود مجارحته بلبن العصفور والأخضرين.

عدن مغناج السوق والشاطئ والأزقة ترتّب دبابيس شعرها وأقمشتها المشجرة وتترك مكان الفل والكاذي خالياً بانتظار أن تهديها أنيستها اللحية مراسل عصريات البندر.

الليلة السادسة والسبعون

كل حرب تأتي وتقايضنا دون أي مفاوضات توافقية، فتأخذ قدراً من سكينتنا الداخلية وتمنحنا قدراً من الشك، عندما تتوالى الحروب، يتضاعف الشك، فالقطرات الفارة من الصنبور المحكم الغلق تبدو أقرب إلى وقع أقدام لا بد من أن صاحبها مسلح وسيقتل شخصاً ما، ويا خوفي إن لم يجده أن يعتقل أيّاً كان عوضاً عنه، أما الرعد، فهو بكل تأكيد صدى انفجار صاروخ لا يمكن أن يكون قد سقط إلا فوق رأسي، ولا يمكن إقناعي بغير ذلك، فلا بد من أنني أحدث نفسي الآن من عالم الغيب، أما صوت الهاتف، وخصوصاً ذلك الأرضي، فهو بكل تأكيد يحمل خبراً كارثياً يتطلب من المتصل إثبات أنه لم يحدث بالترويج عني لمدة لا تقل عن ١٠ دقائق من التمويه والتشتيت، الشوارع المكتظة تعني أن المجاعة أوفت متطلبات حضورها الكامل ولم يعد تأجيلها ممكناً، وبكل تأكيد سيذبح الناس بعضهم بعضاً على عتبة المنزل من أجل كيس طحين، الشوارع الخاوية تعني أن الناس يعرفون شيئاً لا أعرفه، ويبدو أنه مفرع للحد الذي دفعهم للاختباء.

عودة الكهرباء بعد انقطاع تام لأكثر من عشرين يوماً تعني أن الضوء آت من مركبة فضائية ستنتزل مخلوقات تنتقم لنا منا، كل ذلك محتمل، والأصح

لتخلصها من هذا الهوان المركّب بل عليها أيضاً أن تستقبل هذا القيء اليومي برحابة صدر كونها ما زالت على قيد الحياة، يا رجال هذا البلد يكفيكم استقواء علينا وانحناء للطائرات والدبابات والجوع والذل فنحن الحياة التي ما زالت تقاوم في هذا البلد الذي يحتضر جراء خياراتكم، هذا الشارع لنا فنحن من حمل راية السلم والعدالة فيه ونحن من يرم الحياة التي تهدم فوق رؤوسكم كل يوم.

الليلة الخامسة والأربعون

السلام على صعدة، على فقرائها ورمّانها ونوافذها، السلام على صباحها بعد ليل لم يكن أسوأ ما فيه هو القصف، بل شماتة القريب واستهزاء الغريب الذي طلب منهم البحث عن أماكن آمنة، يقف العسيري تارة «مهنجماً» وتارة أخرى كخريج يبتهج باختياره لقراءة خطاب التخرج، لكن ولا مرة واحدة أخذ هذا الرجل أو بلده أرواح من في هذا البلد المحاصر على محمل الجد، هم يعلمون أننا لن نستطيع أن نفعل شيئاً سوى أن نموت بطائراتهم أو بدباباتنا، هم يعلمون جيداً أننا لا نملك شيئاً سوى أن نموت.

الليلة الستون

عدد الحيوانات التي نشترها ونقايضها ونفقدّها كل يوم في سباق مع الزمن لتعيش كل شيء ولو وهماً حتى يسقط هذا الأخير صريعاً كغيره، مثلاً تزوجت وطلقت وترملت وأنجبت وتيممت ويتممت، أيضاً حصدت الشهادات العليا وفقدتها وكتبت ومسحت وعملت وطردت ورُقيت وتقاعدت وخسرت وربحت ومزقت وتمزقت، في ليلة ما كنت بيتاً وفي أخرى زقاقاً وفي أخريات سرادق عزاء وفي الباقيات مديعاً قديماً لأغنيات منسية عن القادم الأحلى، في ليلة أخرى كنت فساتين وفي غيرها أكفاناً.

ستون ليلة من الأسر والخلاص، من الشك واليقين، من مواجهات حتمية وأخرى ارتطمت بي دون أن يختار أحداً أن يكون نداً، ستون ليلة أكلت من العمر معظمه وتجاويفه وثناياه، ستون ليلة عبثت بالروح عبث القرصان بالغنمة، ستون ليلة استعملت فيها مخزون الجلد الذي يفوق مخزون الدبابات من وقود «العدو» فهل من هدنة لإغاثة الروح؟

الليلة الحادية والثمانون

عندما تنتهي الحرب، سيبقى الذعر قابلاً في أجوافنا وسنفقد أعذار التنفيس عنه. سنعود لقطيعتنا مع المرايا وللكركض في الاتجاه الآخر بعيداً عن أسرارنا ومكامن ضعفنا التي تلوي الأذرع وقت السلم بعد أن تنتهي أسباب الخوف المشروعة. عندما تنتهي الحرب ستطفو كدمات ما قبل الحرب على جلودنا مجدداً وستذكر الواحدة منا كم أعسها ونفاها اختلافاً وشرّها عن الجمع، وأنها لم تنتم للجماعة في حياتها إلا لحظة القصف. هناك صوت دفين نحيمه من الأخلاقيات لأنه يصلي أن تبقى رائحة البارود دائماً كي لا نعاود اشتتام خيبتنا وجيفة الأسرار المشينة التي كلما تطاير رذاذها في الهواء، أدركنّا أننا غرباء وأنّ وحدها الحرب جعلتنا ننتمي ونشبه ونشابه.

الليلة المائة

أعرف تماماً معنى الجرح، فجسدي خريطة لسقطة ذلك العام وانزلاقة العام الذي قبله. فلطالما كنتُ خرقاء المشية منذ تعلمت المشي. هذه الخرقاء تعلمت السخرية من قدر الماء المغلي الذي أحرق رقعة من ذراعها عندما كانت طالبة في الإعدادية، كما سخرت من أدراج القلعة الأثرية التي رأت وقتها أن بإمكانها تخطي صيرورة التدرّج التي كان يمكن أن تجنبها الدائرة المقيمة في منتصف ركبتها اليسرى منذ المدرسة الابتدائية. مع المضي قدماً في العمر، مضت مشيتي الخرقاء بخفة لتختفي الندبات من على الجلد وتبدأ جروح القلب وتقرحاتها الزمنية. عندما تكبر، تصبح الجراح غير المرئية صعبة الاندمال مقابل تلك التي يخطئها الجلد الملتئم كإسكافي محثك. مائة يوم من الفقد والحرمان والحذلان والأسف والحداد والتسلق المستمر لأسوار اليوميات المنهكة والانفصال عن كل ما كانت خرقاء المشية، أوضحت أن خرقاء القلب تدرك الآن تماماً أن حياتها لن تعود أبداً كما كانت، ولا يوجد مرهم أو حتى عملية تجميل تستطيع إعادة نسج ما قُصّ وطعن ونُهش. مائة ليلة تعني تعميم الجرح وتوثيق وجوده وإعلام صاحبه أن جرح الماء المغلي كان أرحم بها منها.

الليلة الأولى بعد المائة

هذه الليلة دشنت بشخص أطلق النار أمام آخر وسط

يمكنني التظاهر بأنه كذلك لأنني دائماً منفتحة بشكل متصالح على عاداتي الغريبة. إنما الأمر الذي يدفعني للجنون هو أنني أخاف الهدوء! أصبحت أرتعد لفكرة أن يومين بلا قصف قد يعني أن الغارة الآتية ستعوض كل الأهداف التي تجاهلتها. الأفظع هو كمّ الشك الذي استوطن روحي جارفاً طمأنينة السنين بكل سخاء ليقتني أن يومين بلا قصف قد يحملان حمل ما هو أسوأ من قصف أعنف. ربما هو فقد ينخر ما تبقى خارج مستوطنات الخراب التي خلفتها الحرب بداخلي. تلك اللحظة المقتبسة من مسرح الدمى الموجود في رأسي، والذي يخرج الشك باحتراف، تصل المسرحية إلى أوج جنون مخرجها حين تبدأ بتخييري بين خاتمتي الهدوء؛ غارة مميتة أم فقد موجع؟ المشكلة أنّ دمار الغارة يمكن أن يعاد ترميمه، وجرح الفقد يصير ندبةً تلتئم مع الوقت. أما مسرح الشك هذا، فيلازم أهل الحرب حتى تأتي الحرب التالية بمستوطنات جديدة.

الليلة الثمانون

تعلمك الحرب أن تصبح مراوغة جيداً. تراوغ قطرات الماء وما تبقى في قعر «دبة» البنزين. تعلمك أن تزرع الفلفل الأحمر المجفف في قلب ما تبقى من الطحين لأن المرحلة لا تسمح أبداً بمشاركته مع السوس. تراوغ رنة الهاتف لأن احتمالات الأخبار التي لا سبيل لمراوغتها أعلى بكثير من غيرها. تراوغ وجهك وملامحه بإضفاء مزيد من التحجر الذي يعينك على العمل وأداء المهام اليومية، فأقل زلة ستفتح شللاً من دموع تحفر أخاديد غائرة في الحّدّ تعكس الدرك الذي يسكنه قلبك الآن. كلاعب كرة يراوغ حتى يقع في فخ التسلل، تكتشف أن الأهداف التي سدّتها في مرمى الحرب، منتشياً بغليبتك على البؤس وقدرتك على البقاء، لن تحتسب لأن جميعها كانت تسللاً اكتشفه الحكم في الليلة الثمانين. فأني غلبة هذه بعد ثمانين ليلة من المراوغة مع كل شيء؟ قد ننجح في التحايل على الغاز والثلاجة، فليس ضرورياً أن يؤكل الطعام ساخناً أو يحفظ بارداً، أما أن تظن أنك تحايلت على دواخلك ثمانين ليلة، فكل الوقت بدل الضائع غير كاف لتغيير النتيجة الوحيدة: روحك الآن خرقاء بالية بالكاد تصلح لمسح الغبار من على الهاتف لتستقبل خبراً جديداً من المؤكد أن لا مجال لمراوغته.

إنَّ حقيقة وجود أيام حلوة عشتها ستمنحني المزيد، تحولت عن عد الضحايا إلى عد أغنيات أحمد قاسم التي يحفظ أبي معظمها عن ظهر قلب عليَّ أهديتها إليه حين أعود.

أحرس شالي الصنعاني وعلبة البخور العدني بحرص أكبر من حراستي لجواز سفر قد يغيّر غلافه من قتل العدد الأكبر منا بعد حين. أبتعد عن معارفي هنا لأن سؤالي عن الذي حدث يضاعف الهالات تحت عيني لم تختار أن تريا كل ما حدث.

أشكر لبيروت سائقي الأجرة الذين لا يعرفونني وفي كل مرة تتبادل الحديث عن ضيعة لبنانية من اختياري أدعي أنني منها بمساعدة لساني الجاذب للهجات عليّ للحظة أنسى أن الأمان الآتي لا يعوض هذه التغريبة التي لا يبدو أنها ستنتهي قريباً. وحدهم سائقو سيارات الأجرة هنا يذكرون الحرب دون السؤال عن المنتصر، هم من يتذكر أن أحداً لم يربح الحرب اللبنانية، وفي تلك الفكرة مساحة لي لأطمئن أن على هذه الأرض من يحس بما أحس، وهذه أقصى درجات الألفة التي أطلب في هذه الأيام، من يعلم أننا وحدنا من نخسر كل يوم للحد الذي يجعل سؤال معارفي المنخرطين في الصحافة والسياسة هنا عن الذي حدث عصياً على الإجابة عندما كلما أريد قوله أنني أسير كل يوم بجرح لا أعرف كيفية تقطيعه، وكشفه أو إخفاؤه يجعلانه غائراً للحد الذي لا تستطيع أحر التعازي رثاءه. هذا هو ما حدث وما دون ذلك فتفاصيل.

الشهر الخامس للمحلبى يعني مرور أكثر فترات الحمل حرجاً كما لمست من صديقاتي الأمهات. أما الولوج في الشهر الخامس من الحرب فيعني اقترابنا من نصف العام والسير بثبات نحو إتمام عام سقط سهواً من أعمارنا التي لو اجتمع المخيط تلو الآخر على جمعها، فلن تعود.

الشهر الخامس يعني أن الوقت قد حان لتعديل بزة الاغتراب فيبدو أن ارتداءها سيطول ولن يفهمها سوى من ارتداها. تنهي فيروز «سنرجع يوماً إلى حينا» فأرفع السماعات لأذني وأدندن «يا ليت عدن مسير يوم» وأنا أفتش عن «صنعاء اليمن صنعاء اليمن فيها مناظر عالية. فيها البنات الحاليات مثل الغصون الراويات»، وأغلق نوافذ الأخبار العاجلة لأعاود ورد كل ليلة: لأتذكر وجوههم ووجوههم وأردد الأسماء بصوت تسمعه جدران الحجرة المظلمة في حيّ بيروت عتيق أعلم جيداً أن للليالي أهله ورداً كوردي تماماً.

الزحام، ليس أول إطلاق نار أشهده ولن يكون الأخير، ومجرد هذا الإدراك يعني أنني تخرجت بامتياز من مرحلة الأمل بالعودة إلى ما يشبه ما قبل المائة ليلة، وكخريجة جديدة، ها أنا أبحث عن وظيفة حياتية تلائم وضعي الجديد. أهني نفسي بإجتياز امتحانات الوهم بتفوق، وأتطلع قدماً لحياة تناسب معطيات تخرجي، فمئذ اليوم أنا أصبحت فعلياً ابنة حرب، حرب طويلة غير عابرة لا تشبه سابقتها. فوجب علي، أنا، أن لا أشبهني.

الليلة التاسعة بعد المائة

اكتشفت أُمي بعد التصاق أذنها بصدري أول ثلاثة أشهر من ولادتي أن نبضات قلبي أسرع من المفترض. صدقت أُمي حدسها أكثر من الطبيب الذي اعتبر تساؤل أُمي وسأوس طبية لا أكثر. وبعد فترة أكد الطبيب تلو الآخر أنني وُلدتُ بصمام مُرتنخ يجعل دقات قلبي «مختلفة». كما أصر الأطباء طوال حياتي على أن هذا الارتخاء لا يغير شيئاً باستثناء المضادات الحيوية التي يجب أن أستبق بها أي تدخل جراحي، ورفضوا منحي أي علاج قائلين إن أعراض الارتخاء تؤلم أضعاف حجم الحالة التي يولد ملايين البشر بها دون ضرر. منذ ليلة الأمس ودقات قلبي تسابق أنفاسي للحد الذي جعلني أتهرب من الجلوس قرب أُمي التي هي وحدها تستطيع سماع دقات قلبي. أحاول استجداء هذا الصمام اللعين ليشند قليلاً ويساعد هذا القلب المتعب على جبر كسوره، ولكن يبدو أن النهار يصل الليل الذي انتهى بكابوس زامن طائفة هزّت الجدران التي كنت أحتمي بها من محتوى كابوس عكر ساعات النوم المسروقة حتى طلع الصباح الذي حمل لي يوماً جديداً فوّق بيني وبين رصاصتين بأقل من متر واحد لسبب لا أزال أجهله كجهلي بالذي كان سيحدث لو أدركتني الرصاصات.

ولدت بصمام مرتنخ يحول بيني وبين لمعة دقات قلبي التي اختارت أن تبقى رُعاء دون ضابط أو كابح، والأهم دون حالة طبية تسمح بوصف علاج يوقفها كذلك الذي يوقف أعراض باقي الحالات، فالعَرَض هنا هو البقاء على قيد الحياة!

ليلة الشهر الخامس

توقفت عن عدّ الليالي بعد أن بدأ الشهر الخامس يطرق الأبواب. بدأت أعد الصور عملاً بنصيحة أُمي التي تقول

الاتفاق النووي الإيراني أسئلة غير مطروحة

نوام تشومسكي

عالم لغوي وفيلسوف
ونشط سياسي. اختير
«المتكف الأكثر نفوذاً
في القرن العشرين».

الحاليون الأسباب المعلنة، يحذر تيد كروز، الذي يُعد أحد مفكري هذه الجماعة، بأن إيران يمكن أن تبقى قادرة على تصنيع أسلحة نووية، وأن بوسعها استخدام أحدها لإطلاق نبضة [قنبلة] كهرومغناطيسية يمكن أن تتسبب «بتدمير الشبكة الكهربائية على طول الساحل الشرقي» للولايات المتحدة، وقتل «عشرات الملايين من الأميركيين». أما المتقدمان الأكبران في الاستطلاعات التمهيدية، جيب بوش وسكوت ووكر، فيقاتلان بشأن ما إذا كان يجب قصف إيران مباشرة بعد انتخابهما أو بعد انعقاد أول اجتماع للحكومة. أما المرشح الوحيد الذي يحمل شيئاً من الخبرة في السياسة الخارجية، لندسي غراهام، فيعتبر الاتفاق «حكماً بالإعدام على دولة إسرائيل»، ما يشكل مفاجأة للاستخبارات الإسرائيلية والمحليين الاستراتيجيين - وما يعلم غراهام يقيناً بأنه محض هراء، ما يطرح أسئلة مباشرة بشأن الدوافع الفعلية.

من المهم تذكر أن الجمهوريين قد تخلّوا منذ وقت طويل عن النظار بكونهم حزباً برلمانياً طبيعياً، إذ أصبحوا يشكلون «تمرداً راديكالياً» يسعى بالكاد إلى المشاركة في السياسة البرلمانية الاعتيادية، كما لاحظ المعلق السياسي المحافظ البارز نورمن أورنستين، المنتمي إلى الجناح اليميني من معهد أميركان إنتربرايز. منذ أيام ريغان، قادت القيادة بتهور على جيوب النخبة الثرية وقطاع الشركات بكونهم لن يستطيعوا اجتذاب أصوات الناخبين ما لم يحشدوا شرائح السكان التي لم تكن تشكل قوة سياسية منظمة من قبل، ومن بينهم المسيحيون الأنجليكانيون المتطرفون، الذين يشكلون اليوم أغلبية الناخبين الجمهوريين، ويقايا ملاك العبيد السابقين، والمتعصبون الحائفون من أن «أولئك» يجزّون بلادنا

ثمة ارتياح وتفاؤل كبيران حول أرجاء العالم بشأن الاتفاق النووي الذي تمّ التوصل إليه في فيينا بين إيران ودول ١+٥ (الدول الخمس المتمتعة بحق الفيتو في مجلس الأمن إلى جانب ألمانيا)، ومن الواضح أن معظم سكان العالم يوافقون على تقييم الهيئة الأميركية للحد من السلاح بأن «خطة العمل الشاملة المشتركة» تؤسس لصيغة قوية وفعالة لسد جميع الطرق التي يمكن لإيران فيها حيازة المواد المطلوبة لتصنيع سلاح نووي لجيل كامل، ونظام للتحقق بشأن الحث على تبين وكبح مساعي إيران المحتملة للسعي السري إلى أسلحة نووية يمكن أن تستمر دون أجل محدد».

ومع ذلك، ثمة استثناءات بارزة لهذه الحماسة السائدة: الولايات المتحدة وحليفتها الأقرب في المنطقة، إسرائيل والعربية السعودية. إحدى هذه النتائج هي أن الشركات الأميركية، التي سيطر عليها الغم، ستُمنع من المشاركة في طهران مع مثيلاتها الأوروبية، وتشترك قطاعات مهمة في مراكز السلطة والرأي الأميركية وجهة نظر الحليفين الإقليميين، حيث تسيطر عليها هستيريا فعلية بسبب «التهديد الإيراني»، الذي يعتبره المعلقون الرصينون في الولايات المتحدة، على اختلاف مشاربهم تقريباً، «التهديد الأخطر للسلم العالمي». حتى الداعمون الأميركيون للاتفاق حذرون: بسبب الجاذبية الاستثنائية للتهديد الإيراني، كيف يمكننا أن نثق بالإيرانيين مع سجلهم الرهيب في القمع والعنف والتدمير والخداع؟

المعارضة داخل الطبقة السياسية الأميركية شديدة القوة إلى درجة أن الرأي العام قد تحوّل بسرعة من الدعم القوي للاتفاق إلى انقسام متساو. الجمهوريون مُجمعون على المعارضة كلياً تقريباً، وبين الجمهوريون البارزون

بالطبع، إسرائيل إحدى القوى النووية الثلاث، إلى جانب الهند وباكستان، التي تملك برنامجاً لتصنيع الأسلحة النووية مدعوماً من الولايات المتحدة، وترفض التوقيع على معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية. كان الوزير ظريف في المؤتمر الدوري لمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية الذي يُعقد كل خمس سنوات، والذي فشل في نيسان/أبريل عندما أقدمت الولايات المتحدة مجدداً على إحباط الجهود لإقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط (ووافقها في القرار كندا وبريطانيا). وقد قادت مصر وعدد من الدول العربية الأخرى هذه الجهود منذ ٢٠ عاماً. وأشار اثنان من الشخصيات البارزة التي تروج لهذه الجهود في معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية وعدد من وكالات الأمم المتحدة، ومؤتمرات بوغوش، جايناثا دانابالا وسيرجيو دوارته، إلى أن «التبني الناجح عام ١٩٩٥ لقرار إقامة منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل في الشرق الأوسط كان العنصر الأساسي في حزمة من العناصر التي سمحت بتوسّع غير كبير لمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية»، وهي المعاهدة الأهم في الحد من انتشار الأسلحة، والتي يمكن بها، حال تطبيقها، إنهاء كارثة الأسلحة النووية. على نحو متكرر، كان يتم إجهاض تطبيق القرار من قبل الولايات المتحدة، وكانت الحادثنان الأخيرتان على يدي أوباما عام ٢٠١٠ ثم ٢٠١٥. ويشير دانابالا ودوارته إلى أن الجهود قد أجهضت «باسم دولة ليست عضواً في معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية، عدا كونها الدولة الوحيدة التي يُجزم بامتلاكها سلاحاً نووياً»، في إشارة مفهومة ومهذبة إلى إسرائيل. ويأملان «ألا يكون هذا الإخفاق بمثابة رصاصة الرحمة للهدفين الأساسيين للمعاهدة بشأن التقدّم المتسارع لنزع الأسلحة النووية، ولإقامة منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل». وقد عتونت مقالتهما، في مجلة آرمر كونترول أسوسيشن، «هل ثمة مستقبل لمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية؟». وجود منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط هو بمثابة طريقة مباشرة لمواجهة أيّ خطر مزعوم قد تشكّله إيران. وثمة قدر كبير آخر على المحك بفعل تخريب واشنطن المتكرر للجهود، لحماية زبونها الإسرائيلي. ليست هذه هي الحالة الوحيدة التي تتم فيها إضاعة الفرص لإنهاء التهديد الإيراني المزعوم على يد واشنطن، ما يطرح أسئلة أخرى بشأن الأمور التي تكون على المحك فعلياً.

الأنغلو-ساكسوني المسيحي الأبيض بعيداً عنا، وآخرون ممن يحولون الانتخابات التمهيدية الجمهورية إلى مشاهد بعيدة عن التيار السائد للمجتمع الحديث -- مع أنه ليس التيار السائد لمعظم البلدان القوية في تاريخ العالم. لكن مخالفة المعايير الدولية تتجاوز التمرد الراديكالي الجمهوري. عبر درجات الطيف السياسي، ثمة اتفاق عام مع الخلاصة «البراغماتية» للجنرال مارتن دمبسي، رئيس هيئة الأركان المشتركة، على أن اتفاق فيينا «لا يمنع الولايات المتحدة من قصف المنشآت الإيرانية إذا قرّر المسؤولون بأنها تخالف الاتفاق، بالرغم من أن «الأرجحية ضعيفة» لشنّ ضربة عسكرية أحادية لو خالفت إيران الاتفاق. ويوصي المفاوض السابق لشؤون الشرق الأوسط في إدارتي كلنتون وبوش، دينس روس، بأن «على إيران ألا تشك أبداً في حال أدركنا بأنها تتقدّم في طريق تصنيع سلاح نووي بأنها ستطلق زناد استخدام القوة» حتى بعد انتهاء مدة الاتفاق، وعندما تكون إيران حرة في فعل ما تشاء. في الواقع، وجود تاريخ انتهاء بعد خمسة عشر عاماً يمثل «المشكلة الوحيدة الأكبر ضمن الاتفاق»، كما يضيف، موصياً أن تزود الولايات المتحدة إسرائيل بقاذفات ب-٥٢ كي تحمي نفسها قبل أن يحلّ الموعد المربع.

وجود منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط هو بمثابة طريقة مباشرة لمواجهة أي خطر مزعوم قد تشكّله إيران.

ويحتاج مناوئو الاتفاق النووي بأنه لم يكن كافياً، فيما يتفق بعض الداعمين مشدّدين «في حال كان ثمة مغزى لاتفاق فيينا، فهو أن يخلص الشرق الأوسط بكامله نفسه من أسلحة الدمار الشامل». ويضيف صاحب هذه الكلمات، وزير الخارجية الإيراني جواد ظريف، بأن «إيران، تبعاً لقدراتها القومية، وكرئيس حالي لحركة عدم الانحياز [حكومات الغالبية العظمى من دول العالم]، مستعدة للعمل مع المجتمع الدولي لتحقيق هذه الأهداف، مدرّكين تماماً، على طول الخط، بأننا سنرتطم بعقبات كثيرة تولدها التشكيكات في السلام والدبلوماسية. ويتابع بأن «إيران وقّعت اتفاقاً نووياً تاريخياً» والآن حان دور إسرائيل «المعارضة للاتفاق».

في ما يخص هذه المسألة، من المهم دراسة الافتراضات الضمنية والأسئلة التي لا تُطرح إلا نادراً. لنتناول بعضاً منها، منطلقين من السؤال الأكثر جدية: التهديد الأخطر على السلم العالمي.

في الولايات المتحدة، كما لاحظنا، ثمة كليشيه معتاد منتشر بين المسؤولين والمعلقين الرقيقين يقول إن إيران قد نالت هذه الجائزة المروعة. ثمة عالم خارج حدود الولايات المتحدة، وبرغم أن آراءه لا تشيع ضمن الآراء السائدة الأميركية، ربما كان لها أهمية. وفقاً لمؤسسات الإحصاءات الغربية البارزة (WIN/Gallup)، من نال الجائزة هي الولايات المتحدة التي يعتبرها العالم التهديد الأكبر على السلم العالمي بهامش واسع. فيما كانت باكستان في المركز الثاني بفارق كبير، ولعل تصنيفها تأثر بفعل الصوت الهندي. وصُنفت إيران تحتها، إلى جانب إسرائيل وكوريا الشمالية وأفغانستان.

بالانتقال إلى السؤال الواضح التالي، ما هي حقيقة التهديد الإيراني؟ لم ترتعد إسرائيل والعربية السعودية، مثلاً، بسبب تهديد إيران؟ أياً يكن هذا التهديد، فهو بالكاد عسكري. أعلمت الاستخبارات الأميركية الكونغرس منذ عدة سنوات بأن إيران ذات إنفاقات عسكرية منخفضة بحسب معايير المنطقة، وبأن أهدافها الاستراتيجية دفاعية، لصدا الاعتداءات. وأكدت التقارير على عدم وجود أدلة بأن إيران تسعى إلى برنامج أسلحة نووية، وبأن «البرنامج النووي الإيراني وإمكانيته لإبقاء الاحتمالات مفتوحة لتطوير الأسلحة النووية جزءاً أساسياً من استراتيجيته الردعية».

الإنفاق العسكري لإيران لا يشك إلا جزءاً من إنفاق العربية السعودية. إذ إن تصنيفها يقع تحت تصنيف الإمارات العربية المتحدة حتى.

ويصنّف التقرير التنفيذي لمعهد أبحاث السلام الدولي في استوكهولم الولايات المتحدة، كالمعتاد، بكونها تحتل الصدارة بفارق كبير بشأن النفقات العسكرية، تليها الصين في المركز الثاني بنسبة ٣/١ من النفقات الأميركية. وتحتهما بفارق كبير نجد روسيا والعربية السعودية، متفوقتين على جميع الدول الأوروبية الغربية. فيما إيران مذكورة بالكاد، وسنجد التفاصيل

الكاملة في دراسة نيسان/أبريل لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية الذي يجد «حالة حاسمة بأن دول الخليج العربي ذات ... تفوق ساحق في كل من الإنفاق العسكري وامتلاك الأسلحة الحديثة». الإنفاق العسكري لإيران لا يشكّل إلا جزءاً من إنفاق العربية السعودية، إذ إن تصنيفها يقع تحت تصنيف الإمارات العربية المتحدة حتى. ويتفوق مجلس التعاون الخليجي مجتمعاً - البحرين، الكويت، عُمان، العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة - على إيران في مجال الإنفاق العسكري بفارق يصل إلى ثمانية أضعاف على الأقل، وهو تفاوت يعود إلى عقود. كما يشير مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية إلى أن «دول الخليج العربي امتلكت وقتلك بعض أكثر الأسلحة الفعالة تقدماً وفعالية في العالم [فيما] تمّ دفع إيران جوهرياً للعيش في الماضي، بالاعتماد غالباً على أنظمة نشأت في زمن الشاه»، تتسم بالتخلف على نحو كبير. بالطبع، يتسع الفارق على نحو أكبر مع إسرائيل، التي تمتلك مخزوناً ضخماً من الأسلحة النووية، إلى جانب الأسلحة الأميركية الأكثر تطوراً ودورها كقاعدة عسكرية أجنبية. بالتأكيد، تواجه إسرائيل «التهديد الوجودي» بفعل البيانات الرسمية الإيرانية: قام كل من المرشد الأعلى خامنئي والرئيس السابق أحمددي نجاد بالتهديد العلني بتدمير إسرائيل. لكنهما لم يفعلوا - ولو فعلاً، سيكون الأمر ذا تأثير جانبي. كانا يتنبّان بأن «النظام الصهيوني سيُمحى من الخارطة بقوة الله» (أحمددي نجاد). بمعنى آخر، كانا يأملان بأن يحدث تغيير النظام يوماً ما. وهذا لا يمكن مقارنته بالدعوات المباشرة الاعتيادية للولايات المتحدة إلى تغيير النظام في إيران، إن لم نتحدث عن أفعال تنفيذ تغيير النظام التي تعود إلى «تغيير النظام» الفعلي عام ١٩٥٣، عندما نظمت الولايات المتحدة انقلاباً عسكرياً للإطاحة بالنظام البرلماني وتكريس دكتاتورية الشاه الذي يحمل واحداً من أسوأ سجلات انتهاكات حقوق الإنسان في العالم. كانت تلك الجرائم معروفة لقراء تقارير منظمة العفو الدولية ومنظمات حقوق الإنسان الأخرى، ولكن ليس لقراء الصحافة الأميركية التي بدأت فعلياً بتكريس مساحة كافية للتحدث عن انتهاكات حقوق الإنسان في إيران، ولكن بعد عام ١٩٧٩، عندما تمّت الإطاحة بالنظام المفروض أميركياً، الوقائع التفصيلية موثقة بحرص في دراسة لمنصور فارهانغ ووليم دورمن.

نحو كبير أيّ سمة منسوبة لهذين الشريرين، دع عنك الممارسة الطبيعية لقوة الهيمنة التي تكون فيها حملة الاغتيال العالمي الخاصة بها هي المسيطر الفعلي على الإرهاب الدولي.

يتشارك الحليفان الإيرانيان الشريران كذلك في جريمة الفوز بالأصوات الشعبية في الانتخابات الحرة الوحيدة في العالم العربي. كما أنّ حزب الله مذب بجرمة أكثر شناعة هي إرغام إسرائيل على الانسحاب من احتلالها لجنوب لبنان الذي كان ينتهك قرارات مجلس الأمن التي تعود لعقود، عدا عن كونها نظاماً لا شرعياً للإرهاب، والعنف المفرط أحياناً. وبصرف النظر عن رأي المرء بهاتين المنظمين، أو المستفيدين الآخرين من الدعم الإيراني، فإنّ إيران نادراً ما تُصنّف في مركز متقدّم بشأن دعم الإرهاب في أرجاء العالم.

ثمّة مصدر قلق آخر، أعلن في الأمم المتحدة على لسان سامانثا باور، هو «عدم الاستقرار الذي تعزّزه إيران بفعل برنامجها النووي». ستتابع الولايات المتحدة التدقيق في هذا السلوك السيئ، كما صرّحت، مكررةً تشديد وزير الدفاع أشتون كارتر، حين كان واقفاً عند حدود إسرائيل الشمالية، «بأننا سنتابع مساعدة إسرائيل لمواجهة تأثير إيران الخبيث» بسبب دعم حزب الله، وبأن الولايات المتحدة ستحتفظ بحق استخدام القوة العسكرية ضد إيران حينما تجد الوقت ملائماً. ويكون «تعزير إيران لعدم الاستقرار» محلوظاً خصوصاً في العراق، حين قامت، من بين جرائم أخرى، بمساعدة الأكراد في الدفاع عن أنفسهم من غزو داعش، وبنائها معملًا للطاقة بتكلفة ٢,٥ مليار دولار كمحاولة لإعادة الطاقة الكهربائية إلى ما كانت عليه قبل الغزو الأميركي للعراق. استخدام القوة معتاد: حينما تُقدم الولايات المتحدة على غزو بلد، وتخلّف مئات الآلاف من القتلى وملايين من اللاجئين عدا عن التعذيب الوحشي والتدمير الذي قارنه العراقيون بغزو المغول، جاعلةً العراق أكثر البلدان بؤساً في العالم وفقاً لإحصاءات WIN/Gallup، مغذيةً في الوقت ذاته الصراع الطائفي الذي يمزق المنطقة إلى أشلاء، واضعاً الأساس لهيمنة داعش إلى جانب حليفها السعودي - هذا هو «ترسيخ الاستقرار». أما أفعال إيران الشنيعة ف «تعزّز عدم الاستقرار». ويصل الاستخدام الاعتيادي أحياناً إلى مستويات تكاد تكون سوربالية، كما حين يشرح المعلق الليبرالي جيمس تشيس، المحرّر السابق لمجلة

لا تُعد أيّ من هذه الأفعال خارجة عن السلوك المعتاد. فالولايات المتحدة، كما هو معروف، تحمل بطولية العالم في تغيير النظام، عدا أن إسرائيل ليست متقاعسة عن هذا أيضاً، إذ إنّ غزوها الأكثر تدميراً للبنان، عام ١٩٨٢، كان يُقصد منه تغيير النظام على نحو واضح، علاوةً على ترسيخ قبضتها على الأراضي المحتلة. وكانت الذرائع واهية جداً، وانهارت فوراً. وهذا أيضاً ليس بعيداً عن المعتاد، أو شديد الاستقلالية عن طبيعة المجتمع، منذ الشكاوى في إعلان الاستقلال بشأن «الهمجيين الهنود عديمي الرحمة» وصولاً إلى دفاع هتلر عن ألمانيا في وجه «الإرهاب الوحشي» لبولنديين.

حينما تقهمل الولايات المتحدة على غزو بلد وتخلّف مئات الآلاف من القتلى فهو «ترسيخ الاستقرار». أما أفعال إيران الشنيعة ف «تعزّز عدم الاستقرار».

لا يؤمن أيّ محلّ جدي بأنّ إيران ستستخدم، أو تهدّد باستخدام، سلاح نووي لو كانت تمتلك واحداً، إذ ستواجه دماراً مباشراً. ومع ذلك، ثمّة قلق فعلي بأنّ يسقط السلاح النووي في أيدي الجهاديين - لا من إيران، حيث التهديد ضئيل جداً، بل من باكستان حليفة الولايات المتحدة، حيث يكون التهديد حقيقياً جداً. في دورية المعهد الملكي [البريطاني] للشؤون الدولية، كتب عالمان نوويان باكستانيان بارزان، برويز هودبوي وضياء ميان، بأنّ المخاوف المتعاطمة من «المقاتلين الذين استولوا على أسلحة أو مواد نووية مهتدين بالإرهاب النووي قد قادت إلى خلق قوة مكرّسة بتعداد يصل إلى أكثر من ٢٠٠٠٠ مقاتل لحراسة المنشآت النووية بالرغم من عدم وجود أي سبب للافتراض، برغم ذلك، بأنّ القوة ستكون منيعة ضد المشكلات المترافقة مع الوحدات التي تحرس المنشآت العسكرية النظامية»، التي تتعرض على نحو متكرر للهجوم بفعل «مساعدة داخلية». بإيجاز، المشكلة حقيقية، ولكنها تُستبدل بأوهام ملفقة لأسباب مغايرة.

تتعلق المخاوف الأخرى بدور إيران كـ «داعم أساسي للإرهاب في العالم»، بخاصة دعمها لحزب الله وحماس. كلتا المنظمين ولدتا كمقاومة حرّة ضد عنف واعتداء إسرائيل المدعومة من الولايات المتحدة الذي يفوق على



لوحة مناهضة
للولايات المتحدة الأميركية
على جدار السفارة الأميركية
المغلقة في طهران
(تصوير فيليب مايوولد)



فورين أفيرز، بأن الولايات المتحدة سعت إلى «تدمير استقرار حكومة ماركسيّة منتخبة بحريّة في تشيلي» لأننا «كنا مصمّمين على السعي إلى الاستقرار» (تحت حكم الطاغية بينوشيه).

فيما غضب آخرون لأن الولايات المتحدة ستتفاوض مع نظام «وضيع» مثل إيران، مع سجلّها المروّع في حقوق الإنسان، وحثّ، بدلاً من ذلك، على السعي إلى إقامة «حلف مدعوم أميركياً بين إسرائيل والدول السنيّة» - بحسب ليون فايسليتر، المحرر المشارك في الدورية الليبراليّة المحترمة ذي أتلانتك، الذي يعجز، إلا بالكاد عن إخفاء كراهيته العميقة لكلّ ما هو إيرانيّ. ويوصي هذا المثقّف الليبراليّ المحترم بصرامة أنّ من الواجب على العربيّة السعوديّة، التي تجعل من إيران تبدو جيّة فعليّة بالمقارنة معها، وإسرائيل، بجرائمها الشنيعة في غزة وأماكن أخرى، التحالف لتلقين إيران درساً جيداً. ربما لا تكون هذه التوصية لامعقولة كلياً لو تأملنا في سجل حقوق الإنسان للأنظمة التي فرضتها الولايات المتحدة ودعمتها في أنحاء العالم.

قدم الرئيس بوش الابن هدايا كبيرة لإيران عبر تدمير عدوينا الأساسيين. صدام حسين وطالبان. بل إنه وضع عدو إيران العراقي تحت التأثير الإيراني بعد الهزيمة الأميركية التي كانت كبيرة إلى حد أن الولايات المتحدة أرغمت على التخلي عن أهدافها المعلنة رسمياً بشأن إقامة قواعد عسكرية. وضمان حرية دخول حصريّة للشركات الأميركية إلى مصادر النفط في العراق.

بلا شك، تشكّل الحكومة الإيرانيّة تهديداً لشعبها، بالرغم أنها - للأسف - لا تحطّم الأرقام القياسية في هذا المجال، ولا تصل إلى مستوى الحلفاء المقربين. لكنّ هذا ليس محور قلق الولايات المتحدة، أو إسرائيل والعربيّة السعوديّة بكل تأكيد.

كما أنّ من المفيد التذكير - كما يتذكّر الإيرانيون حتماً - بأنّ يوماً لم يمرّ منذ العام ١٩٥٣ دون أن تقوم الولايات المتحدة بالإيذاء القاسي للإيرانيين. حالما أطاح الإيرانيون بنظام الشاه المكروه المدعوم أميركياً عام ١٩٧٩، سارعت واشنطن لدعم الهجوم الإجرامي لصدام حسين على إيران. بل مضى ريغان شوطاً أبعد حين أنكر جرعة حسين الكبرى، أي اعتدائه بالأسلحة

الكيميائيّة على السكّان الأكراد في العراق، وألقى اللوم على إيران. عندما حوكم صدام على الجرائم التي ارتكبتها برعاية أميركية، تم إقصاء هذه الجرعة المروّعة من الاتهامات، إلى جانب جرائم أخرى كانت الولايات المتحدة متواطئة فيها، لتحصّر التهمة في إحدى أصغر جرائمه، قتل ١٤٨ شيعياً عام ١٩٨٢، وهي التي لا تكاد تشكل حاشية في سجلّه الإجراميّ الشنيع.

كان صدام صديقاً مقرباً من واشنطن إلى درجة أنّه مُنح امتيازاً لم يُمنح إلا لإسرائيل: كان له الحصانة في مهاجمة سفينة بحريّة ما أودى بحياة ٣٧ شخصاً من طاقمها - بارجة USS Stark عام ١٩٨٧. وهذا ما فعلته إسرائيل في هجومها عام ١٩٦٧ على البارجة USS Liberty. كادت إيران تسلم بالهزيمة بعد فترة وجيزة من إطلاق الولايات المتحدة لعملية براينغ مانيس ضد السفن الإيرانيّة ومنصّات النفط في المياه الإقليمية الإيرانيّة. وكانت ذروة العمليّة في إسقاط طائرة مدنيّة إيرانيّة في المجال الجويّ الإيرانيّ من قبل البارجة USS Vincennes، دون أن تشكّل الطائرة أيّ تهديد فعليّ، موقعة ٢٩٠ قتيلاً - والتتويج اللاحق لقائد البارجة بوسام شرف بسبب «تصرّفه الجدير بالترسيم على نحو استثنائيّ» ولمحافظته على «جوّهديّ واحترافيّ» خلال الفترة التي حدث فيها الهجوم على الطائرة. «لا يسعنا إلا الوقوف رعباً بفعل هذا الإظهار للاستثنائيّة الأميركيّة»، كما علّق ثل راغو.

بعد الحرب، تابعت الولايات المتحدة دعم عدوّ إيران الأساسيّ، أي عراق صدام حسين. بل إنّ الرئيس بوش الأب قام بدعوة المهندسين النوويين العراقيين إلى الولايات المتحدة من أجل تدريب متقدّم في مجال إنتاج الأسلحة، ما شكّل تهديداً خطيراً جداً على إيران، وكثّفت المقاطعة على إيران، بما فيها مقاطعة الشركات الأجنبية المتعاملة مع إيران، إضافة إلى أفعال تهدف إلى منع إيران من الاستفادة من منظومة التمويل الدوليّة. في السنوات الأخيرة، تزايد العداء ليصل مرحلة التخريب، وقتل علماء نوويين (عبر إسرائيل على الأغلب)، والحرب السيبريّة، حيث يتم كل هذا بجو من الغرور. يعتبر البنتاغون الحرب السيبريّة فعلاً حربياً، يبرّر رداً عسكرياً بالتنسيق مع الناتو الذي أكّد في أيلول/سبتمبر ٢٠١٤ على أنّ الهجمات السيبريّة قد تحرّض التزامات الدفاع الجماعيّة لقوى الناتو عندما نكون الهدف، لا المعتدين.

ولكن، من المنصف، على أية حال، الإضافة بأن ثمة انحرافات في النموذج قد حدثت. قدّم الرئيس بوش الابن هدايا كبيرة لإيران عبر تدمير عدوّيها الأساسيين، صدام حسين وطالبان. بل إنّه وضع عدو إيران العراقيّ تحت التأثير الإيرانيّ بعد الهزيمة الأميركيّة التي كانت كبيرة جداً إلى حدّ أنّ الولايات المتحدة أرغمت على التخلي عن أهدافها المعلنة رسمياً بشأن إقامة قواعد عسكريّة، وضمان حرية دخول حصريّة للشركات الأميركيّة إلى مصادر النفط الهائلة في العراق.

هل ينوي القادة الإيرانيون تطوير أسلحة نووية اليوم؟ بإمكاننا اتخاذ القرار بأنفسنا بشأن مدى معقوليّة إنكاراتهم، أما بشأن وجود نوايا كهذه في الماضي، فالأمر خارج نطاق التشكيك، بما أنّ التأكيد كان علنياً على مستوى السلطة الأعلى التي أعلمت الصحافيّين الأجانب بأنّ إيران ستطوّر أسلحة نوويّة «بكل تأكيد، وأسرع مما قد يعتقد المرء». وقد كان أبو برنامج الطاقة النووية الإيرانية والرئيس السابق لمنظمة الطاقة الذريّة واثقاً من أنّ خطة القيادة «كانت تهدف إلى صناعة قنبلة نوويّة». كما أشار تقرير للسي أي إيه إلى «عدم وجود أدنى شك» بأنّ إيران ستطوّر أسلحة نوويّة لو قام جيرانها بذلك (وهذا ما فعلوه).

كلّ هذا كان تحت حكم الشاه، السلطة الأعلى المشار إليها. أي خلال الفترة التي كان فيها المسؤولون الأميركيّون البارزون - تشيني، رامسفيلد، كيسنجر، وآخرون - يحتّون الشاه على متابعة البرامج النووية، ويضعفون على الجامعات لدعم تلك النشاطات. تحت هذه الضغوط، عقدت جامعتا إم آي تي، اتفاقاً مع الشاه لإدخال الطلاب الإيرانيّين في برنامج الهندسة النووية مقابل هبات مالية من الشاه، بمواجهة اعتراضات قوية جداً من الهيئة الطلابية، مقابل دعم قوي من الإدارة، في اجتماع سيتذكّره الكادر القديم في الجامعة جيداً دون أدنى شك. ولدى سؤاله لاحقاً عن سبب دعم هذه البرامج حين كانت تحت حكم الشاه، ومعارضتها حالياً، أجاب كيسنجر بصراحة بأنّ إيران كانت حليفاً آنذاك. بعيداً عن السخافات، ما هو تهديد إيران القوي الذي يسبّب كل هذا الخوف والحنق؟ المكان الطبيعي الذي نلجأ إليه من أجل الحصول على إجابة، هو الاستخبارات الأميركيّة مجدداً. تذكروا تحليلها القائل إنّ إيران لا تشكّل أيّ تهديد عسكريّ، وإنّ مبادئها الاستراتيجيةّ دفاعيّة، وبرامجها النووية (حيث ليس ثمة جهود تُبذل

لتصنيع القنابل، على حدّ علم الاستخبارات) «جزء جوهريّ من استراتيجيّتها الردعيّة». من، إذاً، سيهتمّ بإجراء ردعيّ إيرانيّ؟ الإجابة بسيطة: الدول المؤذية التي تهتاج في المنطقة ولا تريد التسامح مع أيّ شرط بشأن اعتمادها على العدوان والعنف. سنجد في الطليعة الولايات المتحدة وإسرائيل، مع العربية السعودية التي تسعى بكلّ جهدها للانضمام إلى النادي عبر غزوها للبحرين لدعم سحق الحركة الإصلاحية من قبل الدكتاتوريّة، والآن هجومها الدمويّ على اليمن، مسبّبةً تعاطف الكارثة الإنسانية هناك. وهذا التوصيف متناغم مع الولايات المتحدة. قبل خمسة عشر عاماً، حدّر بروفيسور علم الحكم في جامعة هارفرد، المحلّل السياسيّ البارز سامويل هنتنغتون في الدورّة المكرّسة فورين أفيرز، من أنّ الولايات المتحدة، بالنسبة إلى معظم دول العالم «أصبحت القوة الكبرى الحبيّة»، وذلك بسبب «التهديد الخارجيّ الأعظم الذي تشكّله على مجتمعات تلك الدول». وقد تكرّرت كلماته بعد فترة وجيزة على لسان رئيس الجمعية الأميركيّة للعلوم السياسيّة، روبرت جيرفس، الذي أشار إلى أنه «في عيون معظم دول العالم، في الواقع، تعتبر الولايات المتحدة هي الدولة الحبيّة الأساسيّة». وكما رأينا، يدعم الرأي العام الدوليّ هذا الرأي اليوم بنسبة كبيرة. علاوة على ذلك، تُرتدى العباءة بكثير من الغرور. هذا هو المعنى الواضح لإصرار القيادة والطبقة السياسيّة، في وسائل الإعلام والتعليقات، على أنّ الولايات المتحدة تحتفظ بحق اللجوء إلى القوة لو قرّرت، وعلى نحو أحاديّ، بأنّ إيران تنتهك التزاماً ما. وهذا أيضاً مبدأ رسميّ مديد للديمقراطيّين الليبراليّين، إذ إنّ العقيدة الكلتونيّة، مثلاً، تنص على أن للولايات المتحدة حق اللجوء إلى «الاستخدام الحاديّ للقوة العسكريّة» حتى لو كان هذا لغايات مثل «حرية وصول مستهترة إلى الأسواق الرئيسيّة، ومنايع الطاقة، والموارد الاستراتيجيةّة»، دع عنك الاهتمامات «الأمنيّة» أو «الإنسانيّة». وإنّ الالتزام بهذه العقيدة يتأكّد على نحو جيد في الممارسة، إذ يكاد لا يكون ثمة داع لمناقشة هذا بين الناس الراغبين بالنظر إلى وقائع التاريخ الحاليّ.

تلك هي بعض المسائل الحساسة التي ينبغي أن تكون محور التركيز في تحليل الاتفاق النوويّ في فيينا، سواء دعمه الكونغرس أو خيّره، كما سنكتشف لاحقاً.



حركة «بوديموس» الإسبانية إننا نستطيع!

سنثيا كريشاتي

جامعية من لبنان.

الشعبية واللياقة معنى جديداً، من خلال موارد قليلة، وتضامن كبير، وريادة إعلامية مميزة، وخطاب وطني – شعبي يتخطى التحديد الإيديولوجي أو الطبقي من دون التخلي في الوقت عينه عن النزاع، تضيف «بوديموس» مساحات جديدة إلى الساحة السياسية الإسبانية.

أما اقتراحاتها بالنسبة إلى الانتخابات البرلمانية الأوروبية فواضحة: على السلطة أن تكون مسؤولة أمام الشعب، وبخاصة في ما يتعلق بقطاع الطاقة، والديون، ومسائل أخرى عُدّة هي اليوم بين أيدي الأوليغارشية. ورؤية «بوديموس» استباقية، في هذا السياق، يطور هذا الفريق مجموعة إرشادات وضعها «فيلارخو Villarejo» لمكافحة الفساد، وتقتصر هذه المجموعة من الإرشادات شيئاً لتقصير فترة ولاية الممثلين السياسيين وخفض أجورهم، كما تطالب بالشفافية الاقتصادية وتعرض على تراكم مهمات المسؤول الواحد. ويطمح قادة حركة «بوديموس» الشباب إلى إجراء تدقيق ومراجعة للديون واسترجاع مفهوم الوطن، الذي أهمل لوقت طويل من قبل اليسار لصالح اليمين، «باعة الوطن» الذين سلموا السيادة الإسبانية إلى الترويكات الأوروبية. وأخيراً يدعو قادة هذه الحركة إلى ابتعاد أوروبا عن الولايات المتحدة ويرون أن الحكومة الأميركية لم تتردد قط في إملاء سياسة الإتحاد الأوروبي خلال الأزمة الأوكرانية وتظاهرات ميدان الاستقلال في كييف.

في ٢٥ أيار/ مايو، فاجأت «بوديموس» إسبانيا وأوروبا من خلال كسر الثنائية الحزبية بين الحزب الشعبي الإسباني اليميني وحزب العمال الاشتراكي الإسباني اللذين كانا يحتكران الساحة السياسية الإسبانية منذ نهاية ديكتاتورية فرانكو عام ١٩٧٧ وبداية الانتقال الديمقراطي الإسباني، كانت نتائج الانتخابات إستثنائية

كانوا سبعة، في ١٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤، لتقديم مبادرة بوديموس Podemos (إننا نستطيع) في مسرح «تياترو ديل باريو» (مسرح الحي الشعبي) في لافابيس في مدريد، «قلنا في الشوارع، وفي الساحات، أجل، هذا ممكن، ونحن نقول اليوم أجل، نحن قادرون». هكذا قرر بابلو إغليسياس، أستاذ العلوم السياسية وعلم الاجتماع في جامعة كومبلوتنسي بمدريد ومقدم برنامج «لا تويركا La Tuerka» المتلفز ومخرجه، أن يستهل الإعلان المفعم بالأمل الذي يُطلق في هذا اليوم، «نحن لسنا لائحة، نحن صرخة. نحن الفرحة لأننا الأكثرية»، يتابع خوان كارلوس مونيدرو، وهو محرر وكاتب، وعلى غرار إغليسياس، أستاذ علوم سياسية في جامعة كومبلوتنسي. كان بين الحضور أيضاً زملاء لهما: أستاذة علم الاجتماع والباحثة كارولينا بسكانسا، والمحلل السياسي أنيغو إيريخون، إلى جانب الأخصائية في الطب النفسي أنا كاستانيو، والنقابية تيريزا رودريغز، والناشط الاجتماعي ميغيل أوربان. وقد أعلن الأعضاء السبعة المؤسسون أن «بوديموس» في طور التحول إلى حزب – حركة سيقدّم لائحة مرشحين للانتخابات البرلمانية الأوروبية في شهر أيار/ مايو.

بعد بضعة أسابيع، في ١١ آذار/ مارس ٢٠١٤، أصبحت حركة «بوديموس» رسمياً حزباً سياسياً وباشرت حملتها الانتخابية للبرلمان الأوروبي، بإدارة أنيغو إيريخون، وبفضل استراتيجية محددة للتواصل السياسي، ابتكرت «بوديموس» خطاباً جديداً يتمحور حول المفاهيم التي اغتصبتها الأحزاب الحاكمة في سبيل رسم الحدود بين نخب النظام القائم – الطبقة الحاكمة – والشعب، وهكذا بالنسبة إلى عدد كبير من الإسبان، اكتسبت الديمقراطية، والشعب، والعدالة، والسيادة

يمكن السيطرة عليها على صعيد الثقافة الإيديولوجية في إسبانيا. وقد أصبحت انعكاساتها تصم الآذان ابتداءً بعام ٢٠١٠، خلال الموجة الثانية. وهكذا باتت المفاهيم المكتسبة والمقبولة خلال «الانتقال الديمقراطي» موضع شك. مع معدلات بطالة هائلة، وطرْد جماعي، وإقتطاعات من الموازنة أملتتها الترويك (المفوضية الأوروبية، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي)، بدا أنَّ الديمقراطية التمثيلية لم تعد مرادفاً للرفاه. وثارَت الشكوك أيضاً حول أوروبا وقد أدرك الإسبان، للمرة الأولى، منذ نهاية الحرب الأهلية عام ١٩٣٩، أنَّ إسبانيا، عوضاً عن تحقيق تقدّم موعود منذ زمن، كانت في طور تراجع رهيب.

التواصل السياسي الشعبي

على المستوى الأكاديمي، كان إغليسياس، وإيريخون، ومونيدرو، ويسكانسا يتأملون هذه التغيرات كلها. فجامعة كومبلوتنسي بمثابة فسحة للتجارب الاجتماعية والسياسية على المستوى النظري كما التطبيقي. هناك عددٌ كبير من الأساتذة والطلاب في صلب المنظمات ومجموعات الطلاب الجامعيين. وقد اجتمعت مجموعات عدة من الطلاب الجامعيين ابتداءً من عام ٢٠١١ من أجل صياغة مبادرة «شباب بلا مستقبل (Juventud Sin Futuro)» التي نشأت كنقيض للتدابير المناهضة للمجتمع التي أوصت بها الترويك والتي طُبِّقَتها الحكومة الإسبانية. تزعم هذه المنظمات الشبابية أنَّ النظام الرأسمالي غير عادل، وفوضوي، ولا يُحتمل. وترى المجموعات الملحقة بالكليات أنَّ من واجبها «التدخل سياسياً في الجامعات التي تنتمي إليها، فندمج بين الصرامة الفكرية والتطرف، والشرعية والعصيان».

تقوم «شباب بلا مستقبل» بعملية تعبئة وتشارك بشكل فاعل في تظاهرات مدريد. وفي جامعة كومبلوتنسي ذاتها، يؤسس أساتذة وباحثون من بينهم بابلو إغليسياس وأنيجو إيريخون مجموعة جديدة: «لا بروموتورا (La Promotora)» لتشجيع التفكير النقدي، وتحقيق التقارب بين العمل الأكاديمي الجاد والإنتاج الفكري الملتمز.

فضلاً عن ذلك، كان بابلو إغليسياس، وأنيجو إيريخون، وخوان كارلوس مونيدرو هم أيضاً في صلب «مركز الدراسات السياسية والاجتماعية»، وهي مجموعة بحث مناهضة للرأسمالية، لديها التزامات عميقة في أميركا اللاتينية. وعمل الباحثون والأساتذة

بحيث جمع حزب العمال الاشتراكي الإسباني والحزب الشعبي الإسباني أقل من ٥٠٪ من الأصوات. في حين كانا يملكان عام ٢٠٠٩ أكثر من ٨٠٪. أما «بوديموس» فقد حصلت على ١,٢٠٠,٠٠٠ صوت أي ٨٪ من الأصوات و ٥ نواب منتخبين في البرلمان الأوروبي. في بروكسل، انضمت «بوديموس» إلى مجموعة برلمانية أقلية تتألف من ٥٢ نائباً، بيد أنَّ الحماسة كانت بحيث إنَّ بابلو إغليسياس طرح ترشيحه لمنصب الرئاسة، الذي فاز به في نهاية المطاف النائب الألماني مارتن شولز الذي أعيد انتخابه مع ٤٠٩ أصوات.

تاريخ حزب بوديموس في بداياته منقطع النظير. فهو ينبع من صدق مجموعة متزايدة من الإسبان الذين فهموا الحاجة إلى بناء روية، والثقة بالناس، وعدم الخوف، وطرح الأسئلة المناسبة، والتحدث، والمشاركة، والتلاقي والتبادل. ومنذ عام ٢٠١٠ حتى ٢٥ أيار/ مايو ٢٠١٤، في غضون ٤ سنواتٍ فقط، إنتقلت «بوديموس» من الاستنكار إلى التنظيم، ومن مقاعد جامعة كومبلوتنسي في مدريد إلى البرلمان الأوروبي.

في أي إطار نشأت «بوديموس»؟ كيف يمكن تفسير نجاح هذا الحزب - الحركة؟ ما علاقة بابلو إغليسياس والأعضاء المؤسسين الآخرين بوسائل الإعلام؟ ما هي الأسس الإيديولوجية والفكرية لحركة «بوديموس»؟ ما الذي يميّزها عن اليسار التقليدي؟ ثم تتألف بنية حركة «بوديموس»؟ وما هو مشروعها لإسبانيا اليوم؟

الانتقال الديمقراطي وأزمة ٢٠٠٨

عام ١٩٧٥، ارتقى خوان كارلوس (والد فيليب، ملك إسبانيا الحالي) إلى عرش إسبانيا، وأعاد العمل بالدستور وقاد إسبانيا في «انتقالها الديمقراطي» في أعقاب النظام الذي أقامه الديكتاتور فرانسييسكو فرانكو. نشأت فسحات خطاب جديدة في البلاد. وباتت الديمقراطية مرادفاً للرفاه وهي سوف تقدّم للإسبان خدمات اجتماعية، وصحية، وتعليمية، وبنى تحتية ضخمة. كانت فكرة أوروبا تنبلور وتساهم في إعادة تشكيل النظام الانتاجي الإسباني وإعادة توجيهه نحو اقتصاد خدمات، يتمحور بشكل أساسي حول السياحة والبناء. كان مفهوم المواطنة الإسبانية وما زال مستوحى من عهد فرانكو، كما أنَّه كان يفترض التخلي عن السياسة مقابل نموذج ديمقراطية تمثيلية. بيد أنَّ كل شيء تغير عام ٢٠٠٨، عندما اشتعلت الأزمة المالية العالمية وولدت تأثيرات لا





من T  l   K، انتقل عرض البرنامج إلى موقع P  blico الإلكتروني، فاخذ جمهور المشاهدين يتسع تدريجياً، تبدأ كل حلقة بمونولوج لإغليسياس أو مونيدرو، يليه نقاش تم أداء لموسيقى الراب. تلقى إغليسياس دعوات للظهور على الشاشات الإسبانية البارزة وقد أصبح أيقونة إعلامية حقيقية وقائداً مهاباً، يهتمهم خصومهم بالشعبوية. غير أن إغليسياس لا يتراجع: «الشعبيون الحقيقيون هم من يقطعون وعوداً يصعب الوفاء بها».

أصبح برنامج «لا تويركا» البذرة التي أنبتت حركة «بوديموس»، فقد سمح هذا البرنامج لنواة جامعة كومبلوتنسي بالتوفيق بين النظري والتطبيقي. تصوّروا مفاهيم مثال الطبقة الاجتماعية، أو الدولة أو الاشتراكية أو الديمقراطية، أو السلطة، أو الأوليغارشية، أو الثورة أو الهيمنة واخذوا يشرحونها. ومنذ ذلك الحين اتخذت هذه المصطلحات معنى ملموساً وتحكّمت بممارسات وتوازنات عاشها مئات آلاف الإسبان.

«الغاضبون» في الميدان

فيما كان برنامج «لا تويركا» في بداية انطلاقته، كانت انعكاسات الأزمة تتفاقم في إسبانيا. بلغ الاستياء ذروته في مدريد بشكل خاص. وخلال الأشهر الأولى من عام ٢٠١١، شجبت مجموعات عدّة من بينها «شباب بلا مستقبل»، ومشروع «الديمقراطية الحقيقية الآن» ومجموعات عدّة أخرى التدابير التقشفية ودعت إلى التعبئة. وفي ١٥ أيار/مايو ٢٠١١، وصل أنيغو إيريكسون إلى مدريد، آتياً من كيتو، عاصمة الإكوادور حيث كان يجري أبحاثاً من أجل أطروحة الدكتوراه، فتوجّه مباشرة إلى ساحة «بويرتا ديل سول»، وهناك كما في عدّة مدن أخرى في إسبانيا، احتشد مئات آلاف المتظاهرين. كانوا يناهضون الرأسمالية، ويؤيدون العولة البديلة، ويسمون «الغاضبين» في إشارة إلى البيان الشهير للكاتب والمناضل السياسي ستيفان هيسيل الذي ينادي: «اغضبوا»، فالسبب الأساسي للمقاومة هو الغضب.

أخذت حركة «الغاضبون»، أو حركة ١٥ أيار/مايو الجميع على حين غرة. سعى إغليسياس ورفاقه إلى فهم التغيير الذي أدخلته هذه الحركة في الثقافة السياسية الإسبانية. فاستشفوا منه سؤالين (دون أن يجدوا أي أجوبة): وقد طرح أحدهما على الاقتصاد الذي يعمل الإنسان وكأنّه سلعة والثاني على الديمقراطية التمثيلية التي باءت بالفشل.

الملحقون بهذا المركز مستشارين لدى عدد كبير من الحكومات مثل فنزويلا والإكوادور وبوليفيا والسلفادور وباراغواي. ويسود في مركز الدراسات السياسية

أخذت حركة «الغاضبون» الجميع على حين غرة. سعى إغليسياس ورفاقه إلى فهم التغيير الذي أدخلته هذه الحركة في الثقافة السياسية الإسبانية.

والاجتماعية اعتقاداً راسخ بأن أميركا اللاتينية هي المختبر الأكثر إثارة للاهتمام للتحوّلات الشعبية القادرة على توليد آمال سياسية واجتماعية كبيرة حول العالم. من خلال مجموعة «لا بروموتورا»، يلقي إغليسياس وزملاؤه محاضرات وينظمون مناظرات يجذب البعض منها اهتمام وسائل الإعلام. فإذا قناة T  l   K، وهي قناة تلفزيونية إجتماعية محلية، رقمية، لا تبغّي الربح كما أنها واحدة من أقدم القنوات الاجتماعية في المدينة، تقترح على بابلو إغليسياس تقديم برنامج حوار مفتوح. تسعى القناة إلى تعزيز حرية التعبير الحقيقية من خلال إعطاء الكلمة للحركات الاجتماعية والأقليات المنبوذة من وسائل الإعلام الجماهيرية. كذلك الأمر فهي تسهّل وصول المواطنين إلى وسائل الإعلام ومشاركتهم فيها. إنجذب إغليسياس إلى فكرة التواصل السياسي الشعبي. ومن خلال «لا بروموتورا»، يرى رفاقه أنّ النضال عبر وسائل الإعلام ممكن، وأنّه لا بد من السعي إلى كسر احتكار اليمين، العدائي والمحافظ، للقنوات التلفزيونية الرقمية الأرضية الإسبانية. إنهم يريدون تكييف خطاب أكاديمي، ملّ في بعض الأحيان، مع النموذج السمعي البصري الأكثر جاذبية. بهذا المعنى، يسبح إغليسياس وزملاؤه عكس التيار. فاليسار التقليدي يكره التواصل السياسي، وبخاصة ذلك الذي يستخدم وسائل سمعية بصرية، على اعتبار أنها تشوّش العقل. غير أنّ هؤلاء يقبلون التحدي بحماسة.

انطلقت بدايات برنامج «لا تويركا» - ويعني الغريب والخارج عن المألوف - من مركز متواضع لـ T  l   K في فالينكاس، الحي العمالي في جنوب شرق مدريد، في ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠. في البداية، كان هذا البرنامج يُعرض كل يوم خميس وقد حقق نجاحاً شبه فوري.

تبني الوثائق التأسيسية الثلاث للحزب - الحركة: المبادئ السياسية، والأسس التنظيمية، والميثاق الأخلاقي. وبموجب الوثائق التي اعتمدت في هذا اليوم، أصبحت جمعية المواطنين تجسّد مجموعة المواطنين المسجلين، وهي تضم اليوم ٣٥٠ ألف شخص تقريباً. ويتمثل دورها في مناقشة القرارات البارزة والتصويت عليها (البرنامج الانتخابي، والانتخابات التمهيدية، وانتخابات المناصب الداخلية، والاستراتيجية السياسية...)، ولانتساب إليها، يكفي أن يتجاوز عمره ١٨ عاماً، وأن تقبل بالميثاق الأخلاقي، وأن تلتزم بالمشاركة بمشروع «بوديموس». فضلاً عن ذلك، تنبثق عن «بوديموس» ثلاث هيئات أخرى، تُنتخب جميعها مباشرة من قبل الجمعية: الأمانة العامة (برئاسة إغليسياس، منتخب)، ومجلس المواطنين (الجهاز التنفيذي) ولجنة الضمانات الديمقراطية.

بدأت حركة «بوديموس» مسيرتها من دون أموال، وقد التزم إغليسياس ورفاقه بعدم الاعتماد على المصارف وعلى الشركات الكبرى. خلال اجتماعات دوائر الحركة في مناطق مختلفة من البلاد، يتلقون تبرعات ويطورون رويداً رويداً استراتيجية تمويلهم. وتنضوي هذه الأخيرة على ثلاثة مبادئ: الاستقلالية المالية (تتكوّن ٩٨٪ من ميزانية حركة «بوديموس» من التبرعات)، والابتكار (المستوحى من الاقتصاد القائم على المشاركة، ومن القروض الصغرى، والتمويل الجماعي ومشاريع التعاون الدورية) والشفافية. كل ثلاثة أشهر، تنشر الحسابات والنفقات على الموقع الإلكتروني ويُلزَم أعضاء الأمانة العامة والمجالس المختلفة بالإعلان عن مداخلهم.

فضلاً عن ذلك، تساهم شبكات التواصل الاجتماعية والإنترنت في زخم حركة «بوديموس». تسهّل تكنولوجيا الاتصال الجديدة مشاركة الجميع في حياة الحزب وتشكّل صلة الوصل التي تشدّ بنية «بوديموس». لا حاجة إلى المندوبين فمؤيدو الحركة المجتمعون في دوائر يصوتون على الوثائق السياسية عبر الإنترنت. حضور بوبوديموس على الشبكات الاجتماعية جليّ: برنامج AP-pgree، ومنندى بلازا بوديموس Podemos موجودة على موقع Reddit، وثمة حساب على موقع تويتر (له ٧١٠ آلاف متابع) وموقع على «فيسبوك» (٩٧٩ ألف إعجاب).

الأسس الفكرية

بالنسبة إلى الذين شكّلوا نواة «بوديموس» التأسيسية من جامعة كومبلوتنسي، لا تقتصر السياسة على الإصغاء

جعلت حركة ١٥ أيار/ مايو الناس يدركون غياب البديل، غيابُ قررت «بوديموس» أن تحوّلته إلى فرصة: «إما أن نشكّل هذا البديل وإما أن يُعاد تشكيل السلطة». تحليل إغليسياس وزملائه ماركسي، وهو يثبت عجز الرأسمالية عن التعافي بعد كل أزمة. باتت التدابير السايية التي استخدمت سابقاً غير قابلة للاستعمال خلال الأزمة المقبلة: استرداد معدل الربح من خلال تحويل التكاليف إلى الأجيال المستقبلية، وتدمير الطبيعة أكثر فأكثر، وجعل بلدان الجنوب، ومن بينها إسبانيا، تدفع ثمن فقدان أرباح الشركات الكبرى.

«بوديموس»، الحزب - الحركة

أثيرت خطة تحوّل «بوديموس» إلى «حزب - حركة» في آب/ أغسطس ٢٠١٣، خلال عشاء نظمه «اليسار المناهض للرأسمالية Izquierda Anticapitalista»، وهو حزب سياسي راديكالي صغير. اتفق إغليسياس وميغيل أوربان من اليسار المناهض للرأسمالية على العمل معاً. وقد رفض الائتلاف اليساري الإسباني الآخر، «اليسار الموحد Izquierda Unita» بقيادة الشيوعيين، المشاركة في تحرك يساري بهذا الغموض.

كانت الخطة المعدّة لـ «بوديموس» بعيدة المنال، وطموحة جداً، كما أنّها تمتد على ١٨ شهراً وتهدف إلى الإطاحة بحزب العمال الاشتراكي الإسباني ورئيس الوزراء ماريانو راخوي براى خلال الانتخابات العامة المقررة في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٥. تعتبر الانتخابات البرلمانية الأوروبية الاختبار الأول بالنسبة إلى الحزب - الحركة الناشئ. وخلال الاجتماع في «تياترو ديل باربو» في لافابيس في مدريد، أعلن إغليسياس ترشّحه على رأس لائحة انتخابية إذا وقع ٥٠ ألف شخص عريضة على الموقع الإلكتروني لهذه المجموعة. مضت ٢٤ ساعة وتهافت بعدئذ المنتسبون إلى هذا الموقع الإلكتروني، فتم توقيع العريضة وانطلقت الماكينة الانتخابية.

تستمد «بوديموس» قوّتها وقراراتها من الجماعات المحلية على غرار «الغاضبون». قد تلتقي هذه الجماعات وتناقش مواضيع مختلفة، وتقوم بالتصويت شخصياً أو على الإنترنت. عندما أصبحت «بوديموس» رسمياً حزباً سياسياً في آذار/ مارس ٢٠١٤، وضعت البنية الأصلية للحزب. وفي ١٧ و ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٤، انعقدت جمعية المواطنين في «قصر فيستالغري» بمدريد. حضر أكثر من ٨٠٠٠ شخص وناقشوا سوياً هذه البنية وصوتوا على

للخوف والخضوع، وقد أدت هذه المجموعات غير الرسمية دوراً حاسماً في فوز حركة «بوديموس» في انتخابات البرلمان الأوروبي في أيار/ مايو ٢٠١٤، وبعد عام، سوف يبلغ عددهم تقريباً الألف خلية وهم لا ينحسرون داخل الأراضي الإسبانية. في الساحات العامة في مدريد وبرشلونة، تنور الحشود ابتهاجاً يوم الأحد ٢٤ أيار/ مايو ٢٠١٥. تُسلم مفاتيح المدينتين إلى «الغاضبين». وقد حققت «بوديموس» نجاحاً كبيراً في الانتخابات البلدية الإسبانية. فمثلاً، سوف تُنتخب آدا كولانو عمدة لمدينة برشلونة، ومانويلا كارمينا، عمدة للعاصمة مدريد، وكلتا هاتين مدعومتان من حركة «بوديموس».

في آذار/ مارس ٢٠١٥، قبل بضعة أشهر من الانتخابات العامة الإسبانية، كانت «بوديموس» في طليعة إستطلاعات الرأي مع ٢٢٪ من الآراء المؤيدة. بيد أن خلافات مع اليسار الموحد وعدد من الأحزاب اليسارية الأخرى، واتهامات بالتخلي عن القيم الراديكالية، واستقالة مونيديرو، وتأثيرات الأحداث الأخيرة في اليونان جعلتها تتراجع. وفي استطلاع للرأي أجرته «رويتزر» في ١٩ تموز/ يوليو، قبل ٥ أشهر من الانتخابات التشريعية، لم يعد لدى «بوديموس» سوى ١٥٪ من الآراء المؤيدة. وبذلك، بات على هذا الحزب - الحركة وخلايا العمل جاهدين بلا كلل ولا ملل على تعزيز موقفهم قبل الانتخابات العامة الإسبانية في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٥. غامر إغليسياس برهان طموح، قبل ١٨ شهراً، وعد بإطاحة ماريانو راخوي وبأن يصبح رئيس وزراء إسبانيا المقبل. هل سيربح رهانه؟

للمراجع:

Bescansa, Carolina, Iñigo Errejón, Pablo Iglesias, Juan Carlos Monedero, Ana Domínguez, and Luis Ciménez. *Claro Que Podemos: De La Tuerka a La Esperanza Del Cambio En España*. Barcelona: Los Libros Del Lince, Nov. 2014. Paru en Français aux Editions Indigènes, Mai 2015.

Rios, Pere. «A NEW POLITICAL FORCE: Podemos Is Breathing New Life into a Decadent Democracy.» *El País*, May 29, 2014.

E. Cué, Carlos. «Spain's Two-party System Dealt Major Blow in EU Elections.» *El País*, May 26, 2014. Accessed August 16, 2015.

«Las raíces de Podemos». ABC <http://www.abc.es/videos-espana/20140531/raices-podemos-959854683001.html>

Morel, Sandrine. «Séisme Politique En Espagne.» *Le Monde*, May 25, 2015.

Tremlett, Giles. «The Podemos Revolution: How a Small Group of Radical Academics Changed European Politics.» *The Guardian*, March 31, 2015.

Ortiz, Jean. «Podemos Et La Machine à Perdre» *L'Humanité*, July 22, 2015.

إلى ما يتبع من المجتمع وحسب، فالسياسة تقضي قبل كل شيء وبشكل خاص ببناء مدلولات واقتراحها حتى إن لم تنجح الأمور دائماً، وأسوة برفاقهم اليونانيين في «سيريزا» (ائتلاف اليسار الراديكالي)، يستمد قادة حزب «بوديموس» الإِسبان الشبان مبادئهم الفكرية من كتابات الفيلسوفين السياسيين أرنستو لاكلو وشانتال موف اللذين وقعا معاً كتاب «الهيمنة والاستراتيجية الاشتراكية» وندين لهما بإعادة تأهيل الشعبوية في التيارات اليسارية. كذلك، يعتبر عمل وفكر المنظر السياسي الإيطالي أنطونيو غرامشي، الذي يرى في الهيمنة الثقافية أساساً للنضال السياسي، حاضرين بقوة هما أيضاً، وبالنسبة إلى إغليسياس ومونيديرو وإيريوخون ورفاقهم، تمثل نظرية لاكلو الشعبوية وسيلة.

لا يكفي إيجاد ذريعة بسيطة لكبح غضب الناس، بل ينبغي أيضاً الفهم أن هذا الغضب ليس اعتباطياً والاهتمام بأسبابه. وبهذه الطريقة، يستمدون العبر من تجربة اليسار اللاتيني الأميركي الجديد، يعتبر تشكيل موضوع سياسي جديد وإطار إيديولوجي جديد مهما بالنسبة إليهم. وهم يرون أنه لا يمكن القيام بأي تجربة ديمقراطية من دون أجهزة الدولة. ويشكل الالتزام القوي بالحقوق الاجتماعية وعالم العمل وتحسين ظروف المعيشة، والتعليم، والصحة، والسكن، والغذاء جزءاً من أولوياتهم. كذلك، هم يسعون إلى إنجاز تحالفات عالمية جديدة، تحكمها مبادئ جديدة.

إن مفهوم «الطغمة»، والمقصود النخبة الحاكمة، إحدى أبرز مقولاتهم. وغالباً ما يأتي إغليسياس على ذكر هذا المصطلح خلال مداخلاته الإعلامية المتعددة. ومفهوم الطغمة هو الآلية التي تستطيع من خلالها الطبقة المهيمنة اقتصادياً أن تتحول إلى الطبقة المهيمنة سياسياً. وتحفظ هذه الطبقة بامتيازاتها كافة وتحتاج مؤسسات أخرى أيضاً تابعة للدولة، مثال القضاء، والنقابات العمالية، وصفوف الموظفين الحكوميين، إلخ. تتخطى مقارنة «بوديموس»، ذات الجذور اليسارية، الانقسامات التقليدية لليمين واليسار. إنهم القوم «الذين في الأسفل مقابل من هم في الأعلى» والذين يدعون إلى التغيير.

«بوديموس»

«بوديموس» عبارة عن تحرك حركات على حد تعبير بابلو إغليسياس، تجمعات عفوية، من دون أساس، ولا قادة، مواطنون من كافة أنحاء إسبانيا اجتمعوا ليضعوا حداً

الفراغ المعماري في رام الله

يارا سقف الحيط

باحثة في المتحف
الفلسطيني، رام الله.

العناصر الثابتة في المباني، بحيث تقتصر على العناصر الإنشائية والتعديلات الصحية، وتبعاً لذلك، يجري تحقيق أكبر حيادية ممكنة في الفراغات لتمكينها من استيعاب التغيرات السريعة والاستجابة للحلول الطارئة.

الفراغ المعماري المحايد

بعد فترة وجيزة من تشكيلها في منتصف التسعينيات، قامت السلطة الفلسطينية باستئجار شقق سكنية في أنحاء مختلفة من مدينة رام الله لاستضافة وزاراتها حديثة النشأة. نظراً لعدم توفر ميزانية كافية حينها، لم يُصر إلى إجراء تعديلات تذكر على تلك الشقق، فتطوعت كل وزارة لتشغل تلك الفراغات المنزلية، التي استمر معظمها في استضافة مؤسسات السلطة لأكثر من عشرين عاماً. انتشرت ظاهرة استخدام الشقق السكنية كمكاتب في مدينة رام الله في نهاية التسعينيات نتيجة الأعداد المتزايدة من موظفي القطاع العام والمؤسسات غير الحكومية الوافدة للعمل على «تنمية» الاقتصاد الفلسطيني اليافع، وبنيت التحتية، فبعد التوقيع على معاهدة أوسلو عام ١٩٩٣ - التي مهدت الطريق لتكوّن السلطة الفلسطينية - تمّ عقد اتفاقية اقتصادية سميت «بروتوكول باريس الاقتصادي»، تأسست فيها المصالح الاقتصادية للاحتلال في الأراضي الفلسطينية وسيطرته الكاملة على المصادر ومعايير الحركة. وبالرغم مما نجم عن اتفاقية باريس من مأسسة لتبعية الاقتصاد الفلسطيني الهيكلية لاقتصاد الاحتلال الإسرائيلي، فقد شهدت الفترة اللاحقة لتوقيع الاتفاقية بدء تدفق مليارات الدولارات من المساعدات التي تعهدت بها الدول المانحة (وهي أوروبية وأميركية في معظمها) لدعم بناء الاقتصاد الفلسطيني وللتأسيس لما يفترض أن يكون مرحلة ما بعد الاحتلال.

فضاء العمل في رام الله هو حيّز هلامي، يمتدّ، يتشعب، ويتداخل مع المدينة. غالباً ما يضجّ بالحركة من الساعة الثامنة وحتى الخامسة، ليهدأ تدريجياً ويسوده السكون، فيما عدا بعض الاستثناءات، والمناوبات الليلية، تصل أعلى تضاريسه الطابق الثامن والعشرين، أما أكثرها انخفاضاً فتندحر تحت مستوى سطح الأرض المحفور حديثاً ببضعة أمتار، حيث يقوم عمال بناء بإرساء أساسات لبنانية أخرى. هو فراغ متواصل ومتجانس في بعض الأجزاء من المدينة، كحي الماصيون ومنطقة الإرسال، ليتفرّع ويتجزأ عند اختراقه مركز المدينة متعدد الاستعمالات، فيحتل طابقاً أو اثنين من بناية، أو بيتاً من العشرينيات، تفوح منه رائحة معطر الجو المخفّف بهواء المكثّف في الصيف، أو المعتزج برائحة غاز غير محترق، منبعث من مدفئات يستعان بها في حالات تعطل التدفئة المركزية المتكررة شتاءً. يمكنه التمدّد واحتواء مئات الأمتار المربعة وعشرات الطوابق، أو التقلّص ليقصر على مقطورة سائق شاحنة يغادر المدينة لتسليم شحنة من المشروبات الغازية، أو بقعة يقف عليها شخص يتفقد بريده الإلكتروني على هاتفه المحمول.

حدود فضاء العمل في تغير مستمر. تبدأ وتنتهي مشاريع وبرامج بحسب إيقاع السنوات المالية للمنظمات الدولية المانحة، وتغادر شركات ومؤسسات خاصة مكاتبها المؤقتة للاستقرار خارج المدينة الآخذة بالاحتفاظ. تبعاً لذلك، فإن جزءاً كبيراً من فراغات المدينة يتكوّن ويتشكل لتمكين مثل هذا التغير بأقل خسائر ممكنة.

فمنذ نهاية التسعينيات، وبداية الحراك متسارع الوتيرة في قطاع الإنشاءات في مدينة رام الله، أصبح تحويل الشقق السكنية إلى أماكن عمل، والعكس بالعكس، أحد الاعتبارات المهمة في تصميم السكن لدى العديد من الممارسين، في سبيل ذلك، يجري العمل على تقليص

«وهذا الانتقال، الذي يؤثر في ما يقرب من ثلث سكان العالم، كان أمراً لا بد منه. فالعالم يتغير بسرعة: إذ إن الزيادة الهائلة في التجارة العالمية والاستثمارات الخاصة في السنوات الأخيرة أتاحت إمكانات كبرى لزيادة الوظائف والدخل والارتفاع بمستويات المعيشة عن طريق الأسواق الحرة. غير أن الأنظمة الاقتصادية التي كانت تسيطر عليها الدولة في تلك البلدان، والمثقلة بسيطرة البيروقراطية وعدم كفاءتها، حالت إلى حد كبير دون قيام الأسواق بوظائفها، وبالتالي كانت غير قادرة على مواصلة تعزيز الرفاه البشري. ورغم أن تلك النظم كانت تضمن التوظيف والخدمات الاجتماعية، فقد كان ذلك على حساب الإنتاجية، وارتفاع مستوى المعيشة للجميع [...] وقبل كل شيء، فقد كان للانتقال، وسيستمر في أن يكون له في المستقبل أثر عميق في حياة الناس. وحدث في بعض البلدان التي تمر بمرحلة الانتقال أن انخفض مستوى المعيشة في الأجل القصير، بينما ازداد رفاه البشر في بعضها الآخر زيادة ملموسة».

من غير المستغرب أن تتبنى السلطة الفلسطينية منذ تشكيلها سياسات اقتصادية نيولبرالية. فأصبح انسجام بنية الاقتصاد مع متطلبات السوق الرأسمالي العالمي المرشد النظري في العملية التنموية مع عدم الأخذ بعين الاعتبار، عند وضع السياسات، وجود احتلال يستهدف الإنسان والموارد المادية والطبيعية. ومع أن هذه السياسات لم تطبق بشكل كامل بسبب الاحتلال، فإن من الصعب تجاهل مغزى تلك الأفكار التي تصب في جوهر الفكر التنموي وتقوده.^٢

في سياق متصل بالرأسمالية العالمية، لعل أكثر المظاهر المادية وضوحاً في إظهار عوارض تبني السياسات النيولبرالية هي المباني المرتفعة، أو الأبراج. فهي تلازم الاقتصاد الرأسمالي حيث حل، وتعمل بمثابة أيقونة للرأسمالية المتأخرة، فديناميكيات قطاع الإنشاءات مناسبة تماماً لأهواء السوق الحرة. من جهة أخرى، هنالك مظهر فراغي آخر مصاحب للرأسمالية، ولكنه أقل وضوحاً وأكثر تعقيداً في آن معاً، وهو الفراغ المحايد.

«الفراغ المحايد»

يقوم مبدأ الفراغ المحايد على المخطط الأفقي الحر، الذي يعمل على تحرير الفراغ الداخلي للمبنى من أي عناصر ثابتة ما عدا العناصر الإنشائية، فيتيح بذلك إمكانية تطويع الفراغ بسهولة لاستخدامات متعددة.

من المثير للاهتمام أن ما نجم عن حالة الارتباك تلك من فراغ داخلي هجين، مرافق لمأسسة علاقات قوى سياسية، اقتصادية واجتماعية جديدة، قد أثر إلى حد كبير في النتاج المعماري اللاحق.

تزايد الحاجة إلى فراغات العمل جاء نتيجة لبداية تشكل اقتصاد معتمد إلى حد كبير على القطاع الخدماتي. فشهدت تلك الفترة بداية استدخال مفهوم التنمية، كهدف معلن للمنظمات والمؤسسات المانحة. لم تر تلك الجهات أي مفارقة في كونها تهدف إلى تنمية اقتصاد دولة مستقبلية تم للتو تجريدتها من أي أفق سياسي أو إمكانية تحقيق سيادة حقيقية، بل وجدت معادلة مريحة تبدد فيها أي أفكار حول تلك المفارقة إن وجدت، حيث طرحت نفسها منذ البداية كجهات محايدة سياسياً تسعى إلى التنمية الاقتصادية، متجاهلة الارتباط العضوي بين الاقتصاديات الوطنية والسياسة، وخصوصاً في حالة تشكيل نواة لدولة لا تزال تحت الاحتلال. أضعفت تلك الفجوة بين الاقتصاد والسياسة في مخططات الدول المانحة من إمكانية بناء هيكلية إنتاجية قابلة للاستدامة. وبالتالي، فإن عمل السلطة الفلسطينية منذ تشكيلها كان أقرب إلى عمل منظمة غير حكومية، باعتبارها كياناً إدارياً يشرف على تنفيذ مشاريع بالغة الصغر ممولة من المانحين^١. وبسبب تحكم دولة الاحتلال الإسرائيلي بما يفترض أن يندرج ضمن مسؤوليات الحكومة الفلسطينية، اقتصر نهج السلطة الإنمائي على اعتبارات إدارية وعملية، وعلى تنفيذ الوصفات الاقتصادية السائدة التي توصي بها المؤسسات المالية الدولية.

إن عمل السلطة الفلسطينية منذ تشكيلها كان أقرب إلى عمل منظمة غير حكومية. باعتبارها كياناً إدارياً يشرف على تنفيذ مشاريع بالغة الصغر ممولة من المانحين.

في العام ١٩٩٦، أصدر البنك الدولي (صاحب المشاركة المركزية في رسم سياسات الدول المانحة منذ اتفاقية أوسلو) تقريراً عن التنمية في العالم بعنوان «من الخطة إلى السوق» استعرض فيه تجارب الانتقال إلى اقتصاد السوق الحرة في البلدان ذات الاقتصاد المخطط مركزياً كبلدان أوروبا الشرقية، والدول المستقلة حديثاً في الاتحاد السوفياتي السابق، والصين وفيتنام. جاء في المقدمة:



❖
مشهد عام لمدينة رام الله



يشكّل موظفو القطاع العام ما بين ٢٠ و ٢٥٪ من القوى العاملة الفلسطينية، وعلى الرغم من كون هذه النسبة تفوق حاجة التوظيف الفعلية بكثير، فإن الدعم المالي الذي تقدمه السلطة من خلال رواتب الخدمة المدنية يشكل عنصراً أساسياً في إعطائها صفة الشرعية. ٤٤٪ من موظفي القطاع العام يندرجون ضمن قطاع الأمن، الذي نما خلال العقد الماضي بوتيرة أسرع من أي مكّون آخر للاقتصاد الفلسطيني، فكانت حصته ٢٦٪ من موازنة عام ٢٠١٣، مقارنة بنسبة ١٦٪ لقطاع التعليم، و ٩٪ للصحة، و ١٪ لقطاع الزراعة. ٦. وربما لا حاجة إلى القول هنا أن هذا القطاع المتنامي لا يوفر الأمن للفلسطينيين، بل يعمل على تخفيف أعباء السيطرة الأمنية للاحتلال الإسرائيلي على المناطق التابعة للسلطة الفلسطينية من خلال قمع المظاهرات واعتقال الناشطين ونزع سلاح الأحزاب السياسية.

أمّا في ما يخص القطاع الخاص، الذي نشأت شركاته في الفترة التي تبتعت اتفاقية أوسلو، فتأسست أول شركة اتصالات فلسطينية، ونشأ قطاع تكنولوجيا المعلومات. أخذ الطلاب الفلسطينيون بالتركيز على الحقول والتخصصات الجديدة التي يحتاج إليها سوق العمل في القطاع الخاص، والذي اتجه بشكل كبير نحو القطاع الخدماتي على حساب القطاعات الإنتاجية. أصبحت عبارة «بناء القدرات» لا غنى عنها في أي مقترح تمويل لمشروع جديد، مع فصل السياق الذي سنّبت تلك القدرات من أجله.

الحياة وإشكالية التأقلم

بعد فشل العديد من المدن التي صممها معماريو الحداثة في منتصف القرن العشرين في تحقيق العدالة الاجتماعية ونوعية الحياة المرجوتين منها، ومعها الفكرة القائلة بإمكان المعمار، أو المخطط أو مجموعة منهم، تصميم مدن بكاملها والتحكم بدنامياتها، اتجهت دراسات تخطيط المدن ومشاريع العديد من الممارسين، المخططين والناشطين المدنيين نحو مبادئ المرونة والتأقلم، حيث كانت تعقيدات العلاقات بين المدن وسكانها، والسياقات المتغيرة بوتيرة متسارعة، تتفوق باستمرار على محاولات التنبؤ بها والتأثير عليها. ولهذا، فإن انعدام الاستقرار السائد في العديد من مدن العالم، وخصوصاً في الأحياء العشوائية والتجمعات غير الرسمية، دفع المخططين إلى استحداث أساليب للتعامل مع هشاشة الظروف واستيعاب التغيرات المستمرة بمرور الزمن.

يعتبر نموذج بيت الدومينو، الذي صمّمه لُ كوربوزيه عام ١٩١٤ بداية استخدام مبدأ المخطط الأفقي الحر في تصميم المسكن، حيث كان استخدامه في السابق مقتصرًا على تصميم المصانع والمستودعات. يتكوّن نموذج منزل الدومينو من هيكل من الأرضيات الأفقية التي تفصلها عن بعضها أعمدة إنشائية عمودية. وأي إضافات إلى هذا الهيكل الإسمنتي الفارغ يمكن تغييرها بسهولة بحسب البرامج المتغيرة.

تطورت تكنولوجيا بناء الفراغ المحايد بالأساس مع بدايات تطور الاقتصاد الصناعي في أوروبا لمتتبع المجال لاحتماء التغير السريع في وسائل الإنتاج (الصناعية، المعتمدة على خطوط الإنتاج) أو الإدارية (المكاتب). ثم انتقل الفضاء المحايد من المصانع إلى البيوت في تصاميم معماريي الحداثة الذين رأوا في البيت وحدة مكّونة للمدينة.^٢

تظهر علاقة هذا النموذج بالرأسمالية في جهتين رئيسيتين: في مقالته «الشخصية المدوّرة»، التي كتبها في عام ١٩٣١ مع تصاعد النظام الفاشي في أوروبا، يكتب والتر بنيامين: «الشخصية المدوّرة لا تعرف إلا شعاراً واحداً: إفساح المجال. وفعلاً واحداً: إبعاد الأشياء عن طريقها. فحاجتها إلى استنشاق الهواء والفراغ المفتوح هي أقوى من أي كراهية تضمرها».^٣

يصلح وصف بنيامين كتعبير مجازي لسلوك الرأسمالية. وما يقوم به الفراغ المحايد من رضوخ كامل للظروف المتقلبة التي تفرضها الرأسمالية وفرض قبولها كأمر واقع لا يمكن التصديّ له.

أمّا الجهة الثانية فتكمن في آليات إنتاج هذا الفراغ. إذ يتم تبسيط آلية إنتاجه لتتكوّن من خطوات تتكرر باستمرار بنفس الطريقة والشكل. فإنتاج الفراغ المحايد يتطلب معرفة فنية ضحلة تمكّن من دفع أجور منخفضة لعمالة سهلة الاستبدال.

رمزية العمل

من أجل تطبيق مبادئ الكفاءة النيولبرالية، وإيجاد أدوات تمكّن من قياسها، تقوم النيولبرالية بتوسيع تعريف السوق ليشمل كل مجالات النشاط البشري.^٤ فالرؤية التنموية المجردة والمنفصلة عن الواقع المعاش في فلسطين، إضافة إلى سياسات التنمية الوطنية الاقتصادية التي ركزت على قطاعات غير إنتاجية وخدمائية، لم تستطع أن تغير في بنية سوق العمل وتوسيعه، ما أدى إلى أزمة هيكلية.



- ❖ من اليمين إلى اليسار:
العمل داخل الإرسال
سنتر؛ مبنى سكني في
كفر عقب
- ❖ لقطات عامة لمبنى
الإرسال سنتر
- ❖ مشهد عام لحي الماصيون
في رام الله

على الرغم من الإيجابيات الكامنة في استراتيجيات المرونة والتأقلم مع تمكين المستخدمين من التحكم بالفراغ وتطويره، تبقى هنالك إشكالية مهمة تتمثل في تعزيز هذه الاستراتيجيات للظروف الاجتماعية والسياسية السائدة عبر سعيها إلى استحداث ديناميات تسهل التعامل معها وجعلها أكثر استساغة بدلاً من أن تهدف إلى تغييرها. تُشكل المباني ذات الفراغات المحايدة في مدينة رام الله نموذجاً لعمارة تعمل بموجب ديناميات المرونة والتأقلم. ومع أن تلك المفاهيم لم تندرج بشكل منهجي ضمن استراتيجية متبعة في تخطيط المدينة، حيث الغالبية العظمى من قوانين التخطيط المعمول بها تعود لفترة الانتداب البريطاني، وعدد لا بأس به من المباني «المحايدة» يجري بناؤه من قبل مقاولين، يمكن اعتبارها انتشاراً تلقائياً لهذا النموذج بداعي الحاجة، والسؤال هنا: هل في حياد الفراغ تواطؤ مع حياد السياسات التي تصنعه؟

تعليقاً على الأزمة الاقتصادية التي حلت باليونان أخيراً، كتب المفكر المصري سلافوي جيچيك: «إن إنكار الجانب الأيديولوجي للأزمة هو فعل أيديولوجي خالص» وقد تم ذلك بالفعل عندما مُررت قضايا سياسية بحته محدّدة لمصير الدولة ونمط عيش سكّانها على أنها مسائل إدارية فنية تنتظر حكم خبراء الاقتصاد.^٧

إنّ البنية الهيكلية لفضاء العمل في رام الله ودينامياته الساعية إلى تحقيق الكفاءة في استيعاب التغيير المستمر، مشابهة إلى حد بعيد لبنية الاقتصاد الفلسطيني الحالي. فالفصل بين السياسة والتنمية الاقتصادية أدّى إلى الهوس بوصفات الكفاءة والحلول الفنية دون مراعاة السياق السياسي والمؤسسي،^٨ إذ تشكل معايير الكفاءة والاعتبارات الفنية أساساً لتقييم الاستراتيجيات المعمول بها، بعيداً عن العواقب السياسية لتلك الاستراتيجيات. فمثلاً، يبرّر غياب دعم قطاع الزراعة في فلسطين بانخفاض إنتاجيته في مقابل قطاع الخدمات، إلا أن أهمية هذا القطاع سياسياً تتجاوز مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي، حيث إن معظم الأراضي الزراعية التي تعود للفلسطينيين موجودة في المنطقة (ج) التي تمارس فيها إسرائيل سيطرة كاملة، وقلة استخدام الأراضي غالباً ما تهدد بمصادرتها. وتحاشي المخططات الاقتصادية للتقييدات البيروقراطية التي تفرضها حكومة الاحتلال، وتكوين هيكليّة تسعى إلى تخطي العقبات الإسرائيلية بدلاً من مواجهتها، يساهمان في تعزيز الوضع الحالي إن لم يزيده سوءاً.

ما الحاجة إلى «البلكونة»؟

في عام ٢٠٠٥ أعلنت وزارة الأشغال العامة عن مسابقة معمارية لتصميم مجمع وزارى جديد في مدينة رام الله ليضم مباني لثلاثي وزارات. من أهداف المشروع المذكورة في إعلان المسابقة، ترشيد النفقات وخفض بدل الإيجارات عن كاهل الخزينة الفلسطينية، وتوفير المباني المناسبة المصممة أصلاً كمكاتب للوزارات.

عند نهاية لقاء أجرته مع المهندس محسن الحنبلي، مصمم المشروع الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة والذي شارف تنفيذه على الانتهاء، علق بذهنى ما قاله عن أن مباني المجمع الثمانية هي نسخ طبق الأصل الواحدة منها عن الأخرى. وكنت قد وضعت جهاز التسجيل في حقبيتي عندما انتابني الفضول لمعرفة ما إذا كان الرجل يصمّم شققاً سكنية وما إذا كان يأخذ إمكانية تحويلها لمكاتب بالحسبان. فأجابني بأن ذلك «يعتمد على المالك، ولكننا غالباً ما نقوم بذلك». وعند سؤالى عن التفاصيل التي تتيح سهولة تحويل المسكن إلى مكتب، أجابني كما أجابني العديد من المعماريين الذين قابلتهم، فتحدث عن توزيع العناصر الإنشائية والتعميدات الكهربائية والصحية، ثم أضاف: «كما أنني أُجتنّب وضع بلكونات في الشقق، فهي تصبح فراغاً ضائعاً في المكتب، ما حاجة المكتب بالبلكونة؟ ستكون مضیعة لوقت العمل».

الهوامش:

١ إبراهيم الشقاقي وجوانا سبرينغر، «فصل الحكم عن الاقتصاد في فلسطين: وصفة لدولة فاقلة»، شبكة السياسات الفلسطينية، ٢١ نيسان ٢٠١٥.

٢ إيلين كُتاب وآخرون، مقدمة في نقد التنمية، وهم التنمية: في نقد خطاب التنمية الفلسطيني، مركز بيسان للبحوث والإنماء، رام الله ٢٠١٠، ٩.

٣ Aureli, Pier Vittorio. «The Theology of Tabula Rasa: Walter Benjamin and Architecture in the Age of Precarity» *The city as a Project* (2015).

٤ Benjamin, Walter. «The Destructive Character» in *Walter Benjamin: Selected Writings, Volume 2, part 2, 1931-1934*, ed. Michael W. Jennings et al, trans. Rodney Livingstone (Cambridge: The Belnap Press of Harvard University Press 1999), 541.

٥ إبراهيم الشقاقي وجوانا سبرينغر، مرجع سابق.

٦ صابرین عمرو وعلاء الترتير، «بعد حرب غزة، أي ثمن لقطاع الأمن في فلسطين؟» شبكة السياسات الفلسطينية، ٨ أكتوبر ٢٠١٤.

٧ Žižek, Slavoj. «This is a chance for Europe to awaken», *The New Statesman*.

٨ إبراهيم الشقاقي وجوانا سبرينغر، مرجع سابق.

عزيز العظمة لغة جديدة لفهم الأصولية الإسلامية

حمّود حمّود

كاتب وباحث
ومترجم سوري.
آخر مؤلفاته
«الحج إلى واشنطن:

الإخوان وأميركا»
(٢٠١٣)

«بحثاً عن المقدس:
البعث والأصولية»
(٢٠١٤).

نباشر في هذا العدد من «بدايات» نشر مقابلات مع مثقفين من سورية تستنطق عن السلطة والمجتمع السوريين وعن معاشيتهم الثورات والردّات المضادة للثورات في بلدهم. نبدأ هذه السلسلة بنشر مقابلة مع عزيز العظمة أجراها حمّود حمّود تصدر قريباً في كتاب بعنوان «سورية والصعود الأصولي». والعظمة هو مؤرخ وأستاذ جامعي وكاتب. من أعماله «العلمانية من منظور مختلف» (١٩٩٣) «قسطنطين زريق: عربي للقرن العشرين» (٢٠٠٣) صدر له أخيراً بالإنكليزية «نشوء الإسلام في العهد العتيق المتأخر: الله وشعبه» (٢٠١٤).

استعصائها على المسارات التحليلية المعتادة والمبتناة على افتراض التنظيم والتماسس الرسميين: ظواهر مثل عصابات المخدرات في كولومبيا أو الجيوش المليشياوية في وسط أفريقيا (حول مناطق الثروات المعدنية في الكونغو وغيرها) وفي غربها حتى زمن قريب، وفي المثلث الذهبي في جنوب شرق آسيا، حيث نجد حركات لا تزال قائمة على تجارة المخدرات نشطة و متماسكة كانت قد رعتها وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) من الستينيات في لونغ تينغ في شمال لاوس. إنّ العديد من هذه الجماعات (وربما كلها)، بما في ذلك الجماعات الإسلامية، لها أو كان لها اتصال مع السي آي إيه، أو على الأقل بعض الأجهزة السرية الأخرى التي عملت بمثابة داعم أساسي ولوجستي لها، لكل فاعليات هذه الجماعات أسس اقتصادي واضح وأساسية.

بعبارة أخرى، لدينا ظواهر نجمت عن وضع حيث «اللا رسمي» (الاقتصاد غير الرسمي أو «الأسود»، من خلال شبكات المافيات، أو السياسات اللادستورية ذات الوزن الغالب للأجهزة الأمنية - لكن أيضاً، ولا ينبغي لنا أن ننسى هذا، العديد من المظاهر الراهنة للأسواق المالية - الخارجة على القانون ولكن المتمتعة بحماية سياسية، من أنشطة صناديق التحوط والاقتصاد الافتراضي والتجارة الإلكترونية السريعة جداً في الأسهم والأموال) يتطلّب منا اليوم اهتماماً أكبر من

◆ كيف تقيّم الصعود الكاسح للمدّ الأصولي في البلاد الإسلامية من خلال الحدث السوري؟

■ إننا بحاجة لفهم الأحداث الجارية في سورية، في سياقها الأوسع، إلى لغة مناسبة: لكن دعني أقول في البداية إنّ المفاهيم الأقدم في هذا هي باللغة الأهمية، ومقاصدها كذلك مهمة وحاسمة، وينبغي أن نعود إليها في مرحلة ما، ليس أقلها، دحض الأطروحات الشائعة حول فشل التحديث والحداثة. إنه طرح سهل، ومناسب ومألوف للعقول الكسولة أو العقول التي تبتغي ذلك عن قصد، إنه تبسيط خاطئ تماماً وتمثيل زائف لهذه المسألة. هكذا أيضاً مسألة «عودة» الدين؛ فإنها لا تصمد أمام النظر والتحري، لكن تجري إعادة اختراعها بطرق مبتكرة، وخصوصاً بين المسلمين.

إننا بحاجة إلى لغة جديدة ما دمنا نتعامل الآن مع ظواهر جديدة، ظواهر اعتبرت وكأنها لا تستحقّ النظر، وكأنها مجرد انحرافات عن السويّة، مثل فشل الدولة، والفاعلين السياسيين والاجتماعيين خارج نطاق الدولة، وبروز وتوسع نفوذ الجهادية المتطرفة، من الجزائر منذ أكثر من عشرين عاماً إلى أفغانستان والشيشان والصومال واليمن وشمال أفريقيا والزرقاء والكرك، إلى الرقة والموصل وأماكن أخرى. هناك ظواهر اجتماعية تُناظر الأخيرة هذه في خروجها على بنى الانتظام والدولتيّة والقانونيّة وغيرها من البنى الرسميّة، وبالتالي

هؤلاء الدواعش أتون من اللامكان. للعراق بهذا الاعتبار، بالمناسبة، وضع آخر.

لقد قدّم بعض زعماء الرقة (وأمكنة أخرى) البيعة، وفاوضوا بشأن المصالح والامتيازات مع إبراهيم السامرائي البغدادي الهاشمي الحسيني وممثليه - وهو في الواقع إبراهيم عواد الذي قدّم من اللامكان، رغم عراقيته: طالب متوسط في التجويد القرآني وإمام مسجد، كان يلعب كرة القدم في الشارع، قد دفعه ورعاه أبو مصعب الزرقاوي الذي جاء هو نفسه أيضاً من اللامكان، أي من سياق الهوامش المضاعفة المتضافرة والمتشابكة مع «مكان» آخر هو شبكات غير منظورة للبعث العراقي وأخرى متبقية من أزمنة أخرى هي العشائر المستعيدة الروح. كان على الزعماء المحليين المتّقين أو الجدد أو المتجددين في سورية التفاوض مع أبي عمر الشيشاني، وهو كذلك شخص من اللامكان: هو في الواقع طرخان باترشفيلي، جورجّي المولد والجنسية، خدم في الجيش الجورجي، ومن عائلة مسيحية قد يكون لها أصول إسلامية. وهذا إضافة إلى تونسيين وليبيين وبلجيكين وأستراليين وسعوديين، وهلمّ جزاءً. نقول هذا، رغم أنّ كل هذه الترتيبات والتحالفات المحلية هي، في طبيعتها، غير مستقرة على نحو شديد، وليس أقل من ذلك لأنها علاقة بين مكان مستقر واللامكان: اللامكان بمعنى نبذ المنشأ وإعادة تشكيل الذات ثم اللامكان، أي المكان الخيالي والافتراضي (دابق، الشام، القسطنطينية، رومية في خطاب داعش)، على نحو يضارع هذه الذات الجديدة. واللامكان بمعنى الخروج عن كل الأزمنة التاريخية والخروج عليها.

علاقات هشّة وغير مستقرة

هذا إذا لم تولّد داعش وما شاكلها من داخل الحركات الجهادية عناصر داخلية للاستمرارية والتجذّر، ومن المقدرة على الاستنساخ الذاتي محلّيّاً؛ غالباً المال والأسلحة والانضباط ومناطق فارغة لحكمها - شريطة أن يتاح مستمرّ من الزمن كافٍ للاستقرار على وتائر وممارسات قابلة للاستنساخ ثمّ الاستقرار لدى قطاعات محورية من المحكومين أو للاستقرار باعتباره نسقاً لهيمنة وإدارة للفوضى. لدى الحركات الجهادية (وهذا واضح جداً في سورية) انشقاقات مستمرة وصعود وهبوط لحركات، مثل انشقاق «أحرار الشام» في ريف دير الزور والاندماج مع داعش، ومثل التداخل المنظور في مخيم اليرموك في نيسان/أبريل ٢٠١٥، ثم الاندماجات والتحالفات

«الرسمي»، مع نتائج أكيدة لفهم العلاقة بين النظام القانوني الرسمي والأساليب والبنى غير الرسمية من التنظيم. وعلى نحو متلازم، لدينا أوضاع غدت فيها نسب وتوازنات الأهمية النسبية للمركزي والهامشي مشوّشة: إنه وضع الانكماش البين لعناصر وأدوات الترابط والتكامل المركزية (سواء أكان ذلك جغرافياً أم اجتماعياً أم اقتصادياً أم سياسياً)، وتوسّع مدى الهوامش بكافة معانيها وانقلاب بعضها على المركز مشكّلة ترتيبات جديدة وانقلاباً نوعياً في الأوضاع التي كنّا قد اعتدنا عليها وتدرّينا على النظر فيها. وفي مسام انحسار النظم الدولتيّة وغيرها، تقوم نظم تدير التوحّش انطلاقاً من بقايا النظم السابقة الجغرافية والبشرية والعمرانيّة والبيروقراطية والمنجمية.

إنّ أوجه التشابه بين الحالات التي ذكرتها (وسوف أنحّي الأيديولوجية جانباً حالياً) مهمة وعديدة، وقد نظر إليها المراقبون بازدياد، تم اعتبارها على أنها مجرد حالات غير سوّية ملوّهة الإجرام والانحراف، ولم تؤخذ على محمل الجد بما فيه الكفاية، ولم يتم التعامل معها بأدوات ولغة ملائمة لفهمها. والمشارك بينها هو، أولاً، أنها حركات تعيد إنتاج نفسها وتستمر في أوضاع تناحرية. وأنها ظواهر بنيوية مرافقة لضمور أو تهتك أو للانهايار الكارثي لبنى وميكانيزمات ضبط وتماسك سابقة عليها باستخدام مادة هذه البنى السابقة الاقتصادية والبشرية. كما أنها تشترك (وهذا مهم للغاية) بميزة أنها تأتي من اللامكان. فما حدث في شرق سورية في الأشهر الأخيرة كان تماماً غير متوقع ومن غير المرجح على الإطلاق: هكذا، فقد أصبح غير المحتمل وما كان عصياً على التصور، من يوم لآخر، أمراً واقعاً. هذا تصور للأمر يؤكد تنظيم داعش الذي له خاصية الكابوس - وغالباً ما تعيق الكوابيس الفهم ويشكل آخر تتجدها، لهذا يحتاج المرء إلى أن يبقى متزناً في مثل هذه الأوضاع. إن لداعش علاقة غريبة مع المكان، كما يفهم عموماً: أي المكان بكونه ليس مجرد إحداثيات خطوط طول وعرض، أو مجرد اسم، بل المكان بما هو نظام مستديم من العمران ومن البشر والحجر ضمن شبكة من الأماكن المرتبط معه. وفي المقابل، ليست هذه الحركة مجرد جيوب متصلة فحسب، أخذت غالباً بالعنوة، بل هي تنشأ من اللامكان وتصدر عنه، هذا رغم أنها حينما تتشكل تقوم ببناء علاقات محلية، وهي علاقات، بحكم طبيعة الأشياء، هشّة وغير مستقرة. وهذا يعود، ليس أقله، بسبب أنّ

أخذود

في ربيع ٢٠١٥، دعنا لا ننسى أنّ البيعة (تاريخياً وفي استخدامها الحالي من قبل داعش أو عائلة الأسد أو آل سعود) هي إشارة إلى الخضوع وليس الشراكة، وهذا قد ينشأ عن أقاء الشر، أو لغياب سلطة أخرى، أو بالتواطؤ،

داعش ليس لديها على نحو كبير بيئة حاضنة بقدر ما لديها بيئة غير ممانعة وفي بعض الأحيان متواطئة.

كما شاهدنا في الموصل وجبل سنجار، حيث انتهر بعض السكان هذه الفرصة لسلب الأملاك والبضائع والأراضي العائدة لجيرانهم، إنني أذكر كل هذا لأقول إنّ داعش ليس لديها على نحو كبير بيئة حاضنة بقدر ما لديها بيئة غير ممانعة وفي بعض الأحيان متواطئة، وعلاوة على ذلك، المهم أنّ لا ننسى أنّ شرق سورية قد تصخّر سكانياً نتيجة لتطورين اثنين في السنوات الأخيرة: الأزمة الزراعية، ومن ثم، بالطبع، العنف الذي حل منذ سنة ٢٠١١ والذي ربما كان قد أزر وعورة الطباع في بعض البوادي والأرياف، وأخرجها من عقالها، وأخيراً، إننا بحاجة إلى أنّ نتذكر أنّ داعش، رغم اندماجها مع الطائفية في بعض الأوساط وفي ظل ظروف معينة (لا سيما في بعض أجزاء من العراق) فإنها لا تسلب وتقتل وتسرق وتهجر وتطرد المسيحيين والشيعة فحسب، بل إنها تقوم بمثل هذه الشناعات ضد السنة من غير الموالين أيضاً، وفي الواقع، إنّ العشائر التي قدمت البيعة في أجزاء من سورية تعي تماماً هذا الأمر.

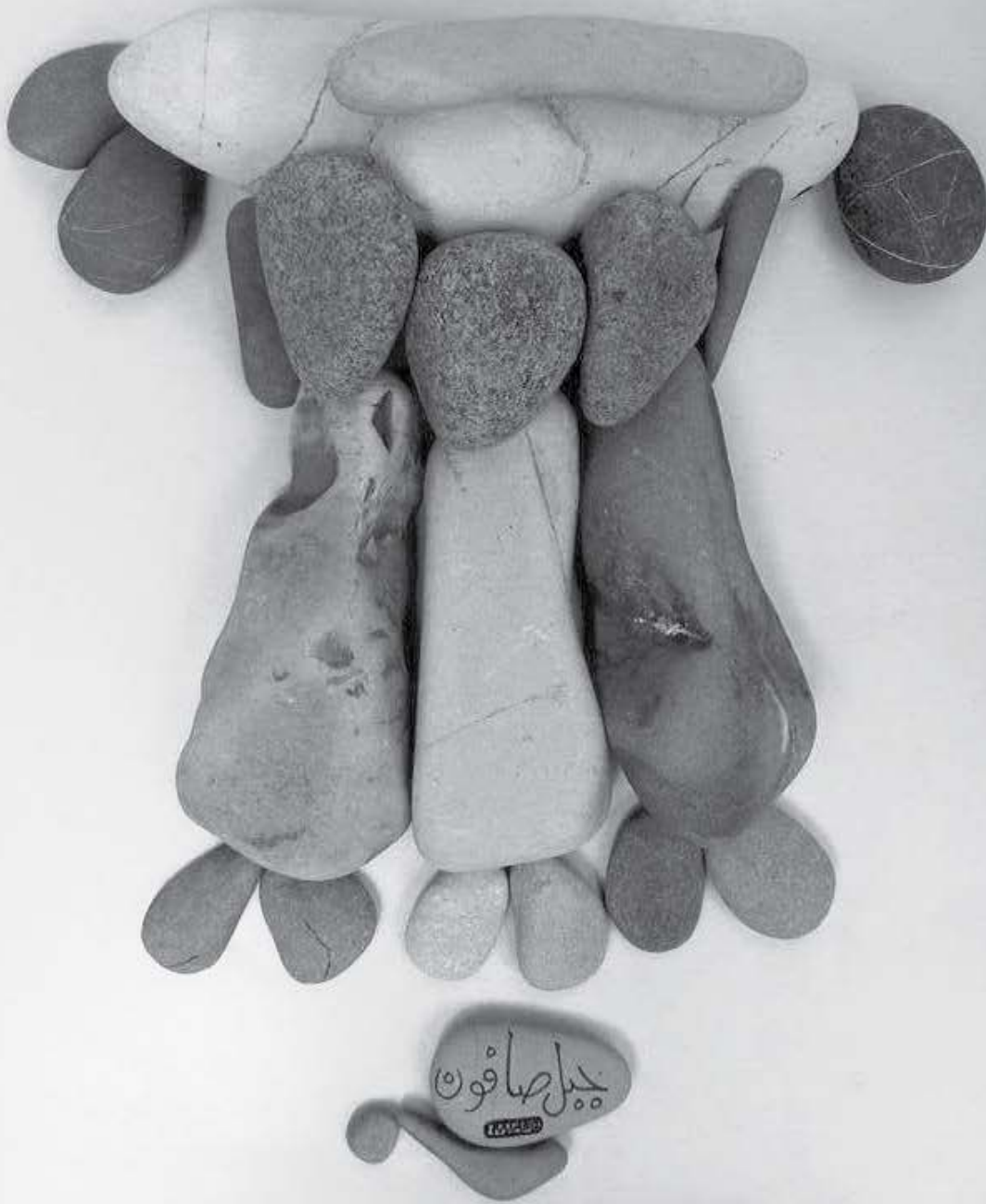
تربية التوحش

وبالرغم من قدوم هذه الجيوش الخاصة من اللامكان، في العالم العربي كما أيضاً في لاوس أو الكونغو أو كولومبيا، فإنها قد نجحت بدرجات متفاوتة في الاستمرار والدفاع عن الجيوب والمناطق التي استقطعتها. لدى البعض منها طموحات أيديولوجية في جعل هذه الأراضي يوتوبية، حيث تحاول تحويل الأراضي التي تسيطر عليها من لا مكان إلى مكان يوتوبي قادم (هكذا، نجد أنّ داعش وما ناظرها تريد خلق أطفال مجاهدين متطعين بالقتل وكذلك استيراد مقاتلين، فضلاً عن مجاهدات النكاح، وإعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية والسلوك الشخصي، بل الدين الإسلامي على صورة غريبة غير مألوفة، مع جرعة قصوى من السُميّة التي تحملها جميع الأديان التوحيدية)،

في صراع دائم مع العالم الخارجي المائل أبداً كنقيض ترسم بموجبه صورة الذات، إنهم يتوسلون ويستندون إلى مفهوم وحشي للهوية، وهو مزيج من طائفية محلية حادة متزجة مع جيل في سورية والعراق لم يشهد إلا القليل مما ابتعد عن الوحشية والبؤس. هم يستندون أيضاً في الخطاب والتعبئة إلى نتائج التعددية الثقافية الأوروبية، وهي تمثل تصوراً عن الذات باعتبارها متفردة ومتوحدة ومستوحشة، على نحو جمعي، ومعظم تلك التنظيمات تجعل من أفرادها، ومنهم الأطفال أيضاً، متوحشين على نحو كامل ومقصود، وذلك من أجل زيادة التماسك الداخلي والتأكيد على التمايز النوعي بل الجوهري وحدة الانفصال عن الخارج، لقد ظهر هؤلاء ذوو الهوى الإسلامي مع مسرح سياسي مغرق في الإغراب، شاهد على خيال محدود مشدود نحو بورنوغرافيا دموية، كما أنهم يعملون على إعادة التنشئة الاجتماعية للأعضاء كلياً وذلك على صورة تسمح بتفكيك الهيئة الاجتماعية والروابط الاجتماعية السابقة على الانتماء لهذه الجماعات، وتفكيك الشخصية الفردية ودمجها في كتلة من الغوغاء لا حدود لمطالبها؛ إنه انتقال من الإنساني إلى الوحشي لتحقيق الكمال، نجد دوماً في سياق هذا الضرب من التنشئة الإسلامية المستأنفة سلوكيات تتبدى فيها الفظاظ أو قلة الأدب على أنهما من باب الالتزام بالواجب الديني: الزجر والتدخل في شؤون الآخرين، مثلاً، أو التمتع عن مصافحة الأفراد من الجنس الآخر، وهذا ما يماثل الفرق الدينية المشاكلة للجهادية الإسلامية في كل مكان: لقد أقام تمرد تايبينغ في الصين مثلاً (١٨٥٠-١٨٦٤) مملكة تايبينغ المسيحية السماوية على الأرض في نانجينغ، حيث مورست كل أشكال ودرجات العنف (وتم الردّ ذلك أيضاً بشكل كامل من قبل أعدائهم الصينيين وكذلك الفرنسيين والبريطانيين، على أساس العين بالعين والسن بالسن)، مما خلف عشرين مليون قتيل، مثال آخر هو جيش الرب في أوغندا، إنّ التربية على التوحش جزء لا يتجزأ من إعادة التنشئة الاجتماعية للفرق الخلاصية هذه ولسيناريو الفتن والملاحم.

اقتصاديات مافيرية

دعنا نؤكد أيضاً أنّ كل هذه الحركات هي كذلك مشاريع اقتصادية وأرباب عمل على نطاق واسع. كل أولئك - من حركات خلاصية وغيرها - من نتكلم عنه - يعملون على السيطرة على الموارد الاقتصادية الضخمة: النفط والآثار



❖
كل الصور في هذا المقال
تحتوي تجهيزات للفنان
السوري نزار علي بدر
بعنوان «حجارة صافون»
عن هجرة السوريين
إلى أوروبا

والصوافي والغنائم والرسوم على البضائع والأفراد (ما يسمّى بالجزية والزكاة) في سورية، والمخدرات في كولومبيا ولاوس، الذهب والماس والمعادن النادرة الثمينة (التي تعتمد عليها الهواتف المحمولة) في الكونغو ورواندا، هذا إضافة إلى الخوة والغنيمة والفدية، وبالطبع الدعم المالي الخارجي ذي الدوافع السياسية.

ولهذا حقاً، فإنّ اعتبار هذه المجموعات تحت عنوان الانحراف أو الشواذ ليس كافياً أبداً لفهمها، كلها عصابات نهب وقطع طرق، لكن العبارة المختصرة هذه لا تقرّبها من ملكة الفهم. إنّ هذه الآن تمثّل ثوابت بنوية لنظام عالمي ناشئ، وينبغي أن تدرس على هذه الصورة، لا على أنّها انحرافات. كذلك أيضاً التحولات الجارية نتيجة للتحولات والتبادلات الاقتصادية الدولية، التي تعتبر عموماً انحرافات، وتخضع في كثير من الأحيان إلى محاكمة أخلاقية بدلاً من أن تدرس تحليلياً على نحو سليم: الاقتصادات المافيوية والسياسات والاقتصادات السوداء والسياسات المفترسة للبنوك والمؤسسات المالية وبعض أجهزة الدولة، فضلاً عن الأموال الافتراضية التي يجري إنشاؤها وإعادة تدويرها تبعاً في ثوان معدودة، والسماوات الأخرى للرأسمالية المتأخرة بعد سنة ١٩٨٩ التي تحررت من تحديات النماذج الاشتراكية البديلة.

ينبغي على المرء ألا تفوته الإشارة إلى التحولات في وظائف الدولة. خصوصاً منذ ١٩٨٩: أي النزعة إلى تقليص وظائفها وخصخصتها لصالح بعض الجماعات في كثير من الحالات.

لدينا أيضاً تشظّ داخلي اجتماعي-اقتصادي وفي مستويات أخرى، لجميع المجتمعات من دون استثناء، وبروز سمات العالم الثالث في أجزاء كثيرة من العالم الأول، ولدينا كذلك سياسات الهوية، بما في ذلك النزاعات الأهلية (العرقية والطائفية والدينية) التي تحلّ محل الأسس الأخرى لبناء الأنظمة السياسية، وغالباً في تلازم مع سياسات التشاركية القائمة على أساس المحاصصة. وينبغي على المرء ألا تفوته الإشارة إلى التحولات في وظائف الدولة، خصوصاً منذ ١٩٨٩: أي النزعة إلى تقليص وظائفها التمديدية ووظائف الهيمنة، وخصخصتها لصالح بعض الجماعات في كثير من الحالات (كما هو الحال مثل سورية). لدينا هنا

حقيقة وهي أنّ الديمقراطية الليبرالية ليست حقاً تعويذة تحتوي حلاً شاملاً لجميع المشاكل، ومن المرجح بقاؤها في مناطق معيّنة من العالم فقط. وبالطبع، لدينا ظواهر ثقافية مثل ما بعد الحداثة والتي تشكل رديفاً أيديولوجياً لهذه التحولات النكوصية العالمية، ذلك أنّها تجذّر تمثّل بعض النخب الثقافية في البلدان المتخلفة لدونية أهمهم واستعصاء الترقّي عليها.

♦ من الواضح أنّ لسلطة الدولة في أغلب البلدان العربية اليد الطولى في استكمال تدمير الفضاء السوسيوولوجي. أليس هناك من إشكال علماني في دعوة هذه الأنظمة، وبخاصة في بلدين مثل سورية وتونس، بالعلمانية وهي التي تساهم في تفرينغ الأصولية؟ الآن الإسلاميون لا يتخذون مسلكاً في الهجوم على العلمانية إلا من خلال الاحتجاج بسلطات الأنظمة «العلمانية» هذه (هناك بعض من الأصوات المثقفة السورية تشارك الإسلاميين هذا النفس في الهجوم على العلمانية والعلمانيين، لكن بأساليبها المتوترة، تحت حجة لفظة ديماغوجية: «علمانيون». ياسين الحاج صالح هو فقط أحد هذه الأصوات في هذا الخط الهجومي، ومعه لائحة عريضة من المثقفين، هل لديك من تعليق على هذا؟

■ دعنا لا ننظر إلى هذه التسميات كما لو كان المرء يقدّم شهادات حسن السلوك، وإنّ وسم العلمانيين بالعلمانيين، وعطف ذلك على رعاية الاستبداد، ليس إلا نقضاً خطيباً للعلمانية يتسم بموقف مضطرب من طرف علمانيين معطوفين على الشعبوية.

المجتمع المدني والدولة الاستبدادية
القول بأنّ النظام السوري علماني، رغم رعايته النكوص الاجتماعي (الطائفي والقبلي) والديني، ليس قولاً لصالح العلمانية ولا ضدها، إنني أدرك تماماً الجدل الذي تشير إليه أنت، وأنا شخصياً تعرضت للنقد في هذا الشأن، وإلى الزعم بأنني مُوال للنظام أو مثقف استبداد كما يقال، وذلك مع قدر كبير من التجني والاختلاق عليّ والادعاء بمعرفة مواقفي على نحو غريب لست قادراً على التعرف إليه وأنا أراقب في السنوات الأخيرة تفسّخ النظام إلى نظام مسلّح للنكوصية والابتزاز والسطو الذي أخذ الدولة رهينة - ارجع إلى ما سبق أن قلته حول اختلاط الرسمي باللا رسمي -، هذا الكلام سهل جداً ومجانيّ، وإنّ ما يترتب عليه هو أنه موضوعياً رديف للتيارات الأصولية، أحياناً بوعي تاماً، وأحياناً من دون

وعبي. ياسين الحاج صالح، كما أستشف من الكتابات الأخيرة، قد راجع رؤاه حول الإمكانيات الثورية للقوى الإسلامية، وأراني متأكداً من أنه على وفاق معي الآن حينما أجزم بأنها الآن ليست من جانبنا نحن السوريين، وأن الخيارات السياسية (هذا إذا كان لنا أن ندعوها خيارات في هذا المرحلة من الزمن وبعد كل الذي حدث) ليست واضحة.

أن الخطابات الإسلامية حول الديمقراطية هي شعوبية أكثر منها ديمقراطية أي أنها استبدادية المآل.

لطالما ارتبث بالجماعات الأصولية، خلال فترة ما أطلق عليه فترة حركة المجتمع المدني في دمشق، وربيع دمشق الذي سبق الربيع العربي، بعد وقت قصير من تسلم بشار الأسد السلطة. فقد أوضحت وجهة نظري (مع صديقي فيصل دراج) في جريدة «الحياة»: أن النهج المشجع على استجلاب القوى المعادية للحدثة والديمقراطية والعلمانية، وذلك في إشارة إلى الإخوان، إلى ما يسمى «التسويات التاريخية» في ظل ظروف غير واضحة، ومن موقف الضعف تنظيمياً، والذهاب إلى أن الديمقراطية شعار فضفاض دون توصيف، تعويذة تشفي كل العلل الاجتماعية والسياسية – كل ذلك من السذاجة بمكان، وكان لدى العديد تشاطراً و فهلوة وما ندعوه بالعامة «زُعْبَرَة»، على منوال ما قلته سابقاً حول تعامل الكثير من المثقفين العرب مع العلمانية في العقود الثلاثة الماضية.

أكثر سذاجة هو ذلك الشعار السخيف الذي يعلن بالسبائية المرفوعة أن «الإسلام هو الحل». إن موقفني الآن كموقف في أيام ربيع دمشق حول الرؤية الساذجة عن المجتمع المدني، باعتباره ببساطة ما هو غير الدولة الاستبدادية (أو في تونس، ما هو ليس إسلامياً)، وحول الترهة شبه السوسيولوجية الذاهبة إلى أن المجتمع ليس فقط متميزاً عن الدولة، بل إنه مقابل لها على وجه التناقض. هذه نظرة شائعة، وكان قد روج لها أستاذ علم الاجتماع السوري برهان غليون الذي تحدث بنحو غريب عن «الدولة ضد الأمة» وفق إطلاقية أيديولوجية تحول دون أي وصف سوسيولوجي لأي منهما، أي المجتمع والدولة. هناك كثير من الانتقادات بسبب هذه المواقف، لكن قناعاتي بها ثابتة، ومنها – وقبل عدة سنوات مما دهمنا من الحدثن

في السنوات الأخيرة – أن الخطابات الإسلامية (وكان المرء آنذاك مهتماً بالإخوان أكثر من داعش) حول الديمقراطية هي شعوبية أكثر منها ديمقراطية أي أنها استبدادية المآل، وبأن مثل تلك القوى ليست من الشركاء في أية تسويات تاريخية تبتغي المصلحة العامة.

لقد قيل في الردود النقدية أنني أقوم بـ«الحكم على النوايا». هذه تهمة صائبة أتحمّل وزرها، ذلك أنني قدّمت بهذا الموقف حكماً سياسياً، والحكم السياسي دون الحكم على النوايا ساقط، ولا تنطوي الأحكام السياسية على المجاملة. وأعتقد أن ما حدث في مصر في ظل مرسي لهو دليل كاف على ذلك: جوع إلى السلطة، جوع وكأنه خلقي لا يمكن إشباعه أبداً، ما نسميه «العين الجائعة» التي تروم تمام الاستحواذ، هذا جنباً إلى جنب مع شعور هؤلاء الإخوان بأهلية وبأحقية حصرية كما أسلفت، مع خطاب مستفيض في المظلومية وأيديولوجية تستبدل الشعب بالإخوان (التمثيل وكأنه الاستبدال: تمثيل الإخوان لجوهر المصريين والمسلمين، وهكذا دواليك). لقد كان شخص مرسي سبيلاً للاستيلاء على الدولة: فهو كان من الناحية الاسمية رئيساً للجمهورية، بيد أنه كان في الواقع الفعلي ممثل الإخوان في مكتب الرئاسة.

في الحديث عن الأصولية وعلاقتها بالمكان، وعن تجذر الأصولية في العديد من الأرجاء السورية، وعن علاقة هذا بالمكان وباللدولة، أقول لقد عملت الدولة السورية في الفترة البعثية على طمس العلاقة بالمكان، وشجعت الهجرة الجماعية للناس من الأرياف الذين شعروا إما بالقلق والاضطراب في المدن أو حملوا إلى المدينة ضغائن قوية انقلبت بسرعة إلى أحقاد مكتومة. لقد أراد البعث، ومنذ أيامه الأولى، إغراق المدن بالمهاجرين من الريف، والعديد من هؤلاء المهاجرين، الذين عاشوا الإحباط على جوانب وهوامش دمشق وحمص وحماة وغيرها من المدن، انقلبوا من ثم على الدولة نفسها التي سعت إلى إحضارهم إلى حيث وجدوا أنفسهم. أما تراث المدينة والتراث الوطني المؤرشف في المتاحف والذي يعود إلى المدن، فإن ذلك لا يعنهم بشيء، وهو عديم المعنى للأصوليين العديمي الجذور الذين يخربون التراث الوطني لسورية والعراق أو يهربونه لمصالح تجارية عبر الحدود. في هذا محو للتاريخ الفعلي لحساب تاريخ أصولي متخيل، يدمر المكان وتاريخ المكان ويحول ما تبقى من سكانه إلى كائنات منقطعة عن أزمته. إن هذا مكمل لزعم داعش بأن سورية ليست للسوريين، وأن العراق ليس للعراقيين بل لأمة قيد الاختراع.

النيوليبرالية والجيش الخاصة

حتى الشعور بالوطنية في السنوات العشرين الماضية قد أحبط من قبل سلطة مجموعات استولت على الدولة، في العراق في الصيف الماضي، تبخر الجيش أمام هجمات داعش، وبعد ذلك بأشهر في الرمادي، وقد فشلت الدولة في الاضطلاع بدورها الأساسي والجوهري. وفي سورية تستخدم الجماعة الحاكمة الجيش لتدمير البلاد، وتتسبب في هروب وهجرة نسبة كبيرة من مواطنيها، داخل البلاد وخارجها، إنها تستخدم الجيش باعتباره مليشيا، جنباً إلى جنب مع غيره من الميليشيات الطائفية المحلية والأجنبية المدعومة من إيران، على نحو صريح وناپ، وفي الوقت نفسه، لقد كانت جاهدة للتخلي عن السيطرة على مساحات واسعة من شرق سورية لصالح جماعات إسلامية وكردية، ولم تكن مستعدة للدفاع عن مواقعها العسكرية في مدينة الطبقة أو تدمر وأماكن أخرى، أو لإقالة وزير الدفاع المسؤول عن هذا كله. كانت إحدى نتائج ذلك ظهور جيوش خاصة، بما فيها التشكيلات القبلية، كما تم ذلك في وقت سابق في العراق، وبعض من هؤلاء عملوا على دعم تنظيم داعش الذي أصبح في ما بعد لاعباً داخل المسرح القبلي السوري في الصراع والمنافسة، وإن كل هذا بالطبع يتعلق باقتصاد الحرب في المناطق السورية خارج سيطرة الحكومة، وإلى حد كبير في المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة: وينبغي أن نستذكر أن العديد من جماعات الشبيحة في سورية، هي عملياً جيوش خاصة، لاعبة في مجال الاقتصاد غير الرسمي.

إنّ هذا، إضافة إلى النتائج الاقتصادية لليبرالية الجديدة التي رسمها الدكتور عبد الله الدردري لسورية، وأدت إلى إهمال ولا مبالاة تحولت إلى إمعان في تهتك القيم. لقد كان نظام التعليم في سورية، وحتى نسبة التدريس للأطفال، في العقدين أو الثلاثة الماضية، تحت ضغوط تراجعية هائلة، إلى درجة الاختلال، حتى لتبدو الخطابات الأصولية، وخصوصاً تلك المبهرجة، جذابة في مثل هذه الشروط: فهي مألوفة في مفرداتها، وذات حضور تلفزيوني منذ فترة طويلة، وسهلة التكرار وواعدة بالخلاص، ولها ميزة إضافية، في ظروف السنوات الأربع الماضية، في قابليتها للتمويل والدعم. ودعنا نتذكر أن الميليشيات أرباب عمل، أو أن التعبئة التي تُستجمع تتضافر مع البؤس وتنتج هستيريا جماعية وإيحاءات جماهيرية على نحو فعال، وتغسل الأدمغة. وحالما نتاح لها بنية تحتية فاعلة (مثل لجان الشريعة وغيرها المدعومة

بأجهزة القسر والقمع)، فإنّ الأصولية تغدو مكتفية ذاتياً ومنتجة ذاتياً وقادرة على إعادة إنتاج ذاتها.

♦ في البداية كنا نفكر ما الذي يحدث في «رقصات الموت» في سورية، كما أطلقت عليها أنت مرة، أريافاً تقاتل أريافاً؟ وهذا على اعتبار أن معظم القوى السورية الفاعلة في هذه الرقصات تتحدر من الأرياف. لكن هل من الممكن التوضيح أكثر ما المقصود بالضبط من أن الأصولية ترتبط بالمدن لا الأرياف؟ وهل هذه ظاهرة عامة في العوالم الأصولية؟ وهل لهذا الكلام من علاقة حول ما يُقال عن ارتباط الإسلام بالمدينة؟

■ ليست المسألة أريافاً ضد أرياف بقدر ما هي هوامش ضد هوامش، وذلك في رقصات الموت في ظل تشبيح متبادل من قبل العديد من العناصر المنتمة إلى الفئات المهمشة إلى درجة الرثاءة - البروليتاريا الرثة بعبارة كانت دارجة أيام عزّ الماركسية، إنني لا أعرف بالتفصيل كيف صار حال الأرياف بعد الأزمة الزراعية في سورية في السنوات القليلة الماضية، خصوصاً (٢٠٠٨ - ٢٠١٠) التي فاقم الإهمال من أثرها وفاقم منها غياب الكفاءة عن الشخص الذي كان آنذاك وزيراً للزراعة (عادل سفر) والذي عيّن رئيساً لمجلس الوزراء السوري عام ٢٠١١. علينا أن نأخذ بالحسبان أيضاً تصرف عناصر الأمن في مفاصل نسيج العلاقات الاجتماعية، وبطبيعة الحال، في نسيج العلاقات الاقتصادية، وخصوصاً الاستيلاء على الأراضي وغيرها من الممتلكات بناء على هذا التبرير أو ذاك، وعلى امتداد حياة جيل كامل.

ما حدث في سورية منذ بداية الحراك قبل تحوّلِهِ إلى حروب أهلية هو أن الكثير من العناصر الشبابية المتعلمة، المستقلين والواعدين من المجموعات الشبابية، ممن كان لديهم المقدرة على القيادة والعمل على إنتاج تماسك سياسي و معنوي وطني شامل ومنظور واسع للحراك، قد تم التخلص منهم قتلاً أو اعتقالاً أو هجرة: أولاً، من قبل قوات أمن النظام (وأعتقد أن هذا كان سياسة متعمدة وجزءاً من استراتيجية أمنية هدفت إلى أن تتصدع سورية إلى جزر أمنية تغرق الحراك في المحلية وتمنع التكامل الوطني عن الداخل)، ولاحقاً، من قبل القوى الجهادية التي حلت محل هذه المجموعات الشبابية وفتكت بما تبقى منها أو امتصت القليل من بقاياها.

الجهادية وطقوس الموت

ارتبطت الإسلامية بشكل عام مع أشكال معيّنة من

خيالاً هلويسياً تُركّب فيه صور بدئية راجعة إلى العصر الذهبي المزعوم، ومع فكرة الطليعة التي طرحها سيد قطب وحسن البنا قبله. لا بل هناك البعض ممن يعيش هوس صور الفتن والملاحم ودابق وأجوج ومأجوج وفتح رومية. وتجري صياغة عملية لهذا كله بتوسل لغة الشريعة، ويفترض أن تكون هذه الرؤية الشرعية بدهية وشاملة لكافة البشر الموجودين فعلاً.

هنا يكمن التجريد والاستلاب عن الممارسات الاجتماعية حيث تعتزل الجماعات الجهادية البشر وتعزل نفسها، حاوية خليطاً كبيراً من «المهاجرين والغرباء» من القفقاس وبريطانيا وماليزيا جنباً إلى جنب مع المال من الخارج (ينبغي على المرء ألا ينسى أبداً، مرة أخرى، أن المليشيات أرباب عمل)، ويتفاعل هذا كله مع البنى المحلية التي تُقدّم على تحالفات محلية، والتي غالباً ما تكون انتهائية لكل الأطراف، تتضمن امتيازات محلية للجماعات المحلية وقدراً من الحماية (حتى وإن كانت هذه الحماية غير مؤكدة أو غير مستقرة) من عمليات النهب التي ترتكبها الجماعات الجهادية نفسها، سواء أكانت محلية أم غريبة على حد سواء، والاستيلاء على المرافق العامة.

هل النظام نظام علوي؟

من الضروري معرفة لماذا انقلبت أجزاء كبيرة من الريف على الدولة، بعدما كان قد فضّلها البعث واستقى من بعضها مادة للحزب والاستخبارات (حوران) وبعض تشكيلات القوى المسلحة (بادية حماه)؟ إنني أعتقد أنّ الأزمة الزراعية في السنوات الأخيرة تكتسي أهمية كبرى كعنصر تفسيري وتوضيحي للأسباب المباشرة. كما أنّ مصادرة الأراضي في ظل إطار مجموعة من الذرائع لها القدر نفسه من الأهمية. وهنا ينبغي أن نتذكر عمليات النهب والإذلال: فإذا ما انقلبت النفوس والأمزجة في أجزاء من حوران، التي كانت مصدراً لرجال الاستخبارات وقوى أخرى على الدولة، فإنه ينبغي للمرء أن يفكر أيضاً في عبارات بسيطة أنه منذ بداية الحراك كل هذه العوامل قد اتخذت زخماً خاصاً عندما تفجّرت سمة خاصة تعزى للحواريين: «طلعت حورانيّتهم» (كما يصطلح السوريون غير الحوارنة على ذلك). إنّ المناطق التي كانت خاضعة لنهب النظام منذ ٢٠١١، لم تترك للسكان (ومن تبقى من السكان) سوى الاستياء والإذلال والإهانة والفاقة. وهذا، بشكل ما يختصر الأربعين سنة الماضية في التاريخ السوري الذي تدهور فيه الشعور

العمليات التربوية وهذه، كما قلت سابقاً، من منتجات التحديث. مواقع الإسلامية الأساسية كانت الفئات المتعلمة من الدرجة الثانية، من البرجوازية الصغيرة، والمتعلمة تعليماً تقنياً على العموم والقاطنة في المدن، إضافة إلى مهاجرين جدد إلى المدن، وإنتجولسيا مدن صغيرة ومهنيين. كل هذه الفئات عانت من الانسدادات نفسها في التقدم إلى مواقع النخبة العليا، وهم دائماً مرتبطون عائلياً أو باعتبار مكان المنشأ. وما دامت الإسلامية تعتاش في واقع متناقض مغاير لادعاءاتها عن هذا الواقع، فإنها تتطلب جهداً دؤوباً من التمثيل الداخلي للوهم، وبالتالي وضعية تقبلية لما هو غريب على الرغم من شيوع بعض مفرداتها وادعاءاتها المعيارية.

الإسلامية، من الناحية السوسيولوجية، لهذا ولأسباب أخرى، هي أقل شيوعاً في الريف منها في المدينة – الأمر نفسه يمكن تطبيقه على أيديولوجيات أخرى مثل الشيوعية: لقد تم تعبئة فلاحي ماو من قبل الحزب والدولة، والعديد منهم لم يكن (إذا ما تحدثنا سوسيولوجياً) من الفلاحين أو لم يعودوا كذلك. تعتاش الإسلامية على تدمير الثقافة اليومية السائدة. إنّ نمط الإسلامية الذي نجده اليوم سائداً، على عكس سابقه (على الرغم من أن كليهما إلى حد كبير من منشأ حضري) يزدهر في فترة تعرضت فيه مؤسسات التعليم الحديثة إلى الاستنزاف والإهمال، كما هو الحال في سورية، ما أدى إلى انحطاط المدارك على المستوى الوطني، وعزّز الظلامية والتخلف الاجتماعي.

لقد بدأت الإسلامية بالانتشار في الأرياف عندما أخضعت العلاقات المحلية لم يعد الريف ريفاً. وعندما أخضعت العلاقات المحلية إلى علاقة شائكة بالمكان جاءت مع الجهادية.

لقد بدأت الإسلامية بالانتشار في الأرياف، كما أشرت سابقاً، عندما لم يعد الريف ريفاً، وعندما أخضعت العلاقات المحلية إلى علاقة شائكة بالمكان جاءت مع الجهادية. إنّ الجهادية التي نشاهدها اليوم ليست فقط مولعة بالموت، بل إن لديها طقس موت ثميناً تدعوه «الشهادة». ثم إنها تشكك في حياة البشر وتتحفظ عليها، ما دامت هذه الحياة وتلك الحيوانات لا تتوافق مع الخيال الجهادي لما يشكل حياة مقبولة وصحيحة وإجبارية للبشر. إنّ الحيوانات السويّة في وضع الهجرة تقتضي





القومي والكرامة الشخصية والشعور الطبيعي بالتضامن بين الناس إلى مستويات بدائية أسفرت عن الرغبة في الانتقام الخالص والأعمى، مع تهتك بين للقيم ومنها قيم المواطنة والمصلحة العامة والوطنية والتكافل الاجتماعي المدعوة أحياناً بالنخوة (عادت الأخيرة للبروز والفعل المتقطعين أيام الحراك).

إن النظام السوري ليس نظاماً علوياً. على الرغم من أن العلويين يشكلون مادته البشرية المركزية في العديداً من أجهزة أمن الدولة والقوات المسلحة.

وليس من المستغرب أن أجزاء كبيرة من حلب وأماكن أخرى كثيرة لم تنضم للحراك، وأن ما حُسب منها تالياً في خاتمة الثورة احتلته مليشيات قدمت من ريف المدينة: النظام السوري لديه جذور وروابط اجتماعية سواء أحببنا هذه الحقيقة أم لا، وكانت لديه مثل هذه الروابط في ١٩٧٩-١٩٨١، ولا يزال يمتلكها بعدما توسع بعضها وضمير البعض الآخر. وثمة أجزاء من الريف على حدود الصحراء، وخصوصاً في الشرق، كانت مناطق ذات أهمية للتجنيد العسكري بين الشوابع. إن وزير الدفاع السوري الحالي فهد الفريخ مثال على هذه الوضعية وهو من أرياف بادية حماه، إن الكثير من هؤلاء قد حول وجهة تحالفه إلى جهة داعش - الأمر الذي تمكن مقارنته بمرونة تشكيل التحالفات بين القبائل في غرب العراق، في أعقاب النزوع إلى تشكيل الجيوش الخاصة التي دعيت بالصحوة، في هذه انكسار الرابط الوطني لصالح الرابط الأهلي. وإن استخدام «الحشد الشعبي» في العراق على ما هو معروف عنه من الدموية الطائفية لا بد من أن يدفع بالكثيرين من ضحايا السنة إلى التعاطف مع داعش والانضمام إليها.

وقد حصل في المستويات العليا من المجتمع السوري، وبين الإنتجالياً كذلك، الكثير من التزاوج بين العناصر السنية المدنية وبين العلويين. يحق لنا هنا أن نتحدث عن تحالف مالي وتجاري بين الثروات الجديدة والثروات الأقدم، وعن المصاهرة، وبالطبع، إن النظام السوري ليس نظاماً علوياً، على الرغم من أن العلويين يشكلون مادته البشرية المركزية في العديد من أجهزة أمن الدولة والقوات المسلحة، وعندما نتحدث عن العلويين فإن المقصود ليس

العلويين على نحو مجرد، بل أفراد منتمون إلى أفخاذ وقرى معينة - وبالمقابل فإن علي مملوك رئيس أمن الدولة سني دمشقي، وكذلك رستم غزالي كان سنياً من حوران. لكن الثلاث سنوات الأخيرة قد شهدت صعوداً مذهلاً في التعبئة الطائفية من جانب النظام (وتعبئة طائفية سنية مقابلة ومماثلة في استشراسها)، عند العلويين، وعلى نحو أوسع عند الشيعة على العموم مع وفود المليشيات الطائفية العراقية واللبنانية والأوزبكية إلى سورية: حزب الله وكتائب أبي الفضل العباس وعصائب أهل الحق وحزب الله السوري، إضافة إلى زعران الساحل السوري والحرس الثوري الإيراني الذي أخذ مؤخراً على رشقنا بفارسيته، إنه ليس نظاماً علوياً، بل استبداد تقوده عائلة أمن وبنس علوية تستخدم وسائل مباشرة قائمة على عصبية القربة والقربة والطائفة الفرعية داخل الجماعات العلوية للدعم والتعبئة. ولكنها بالتأكيد لا تمثل العلويين بالمعنى السوسيولوجي ولا تفيد العلويين كجماعة إلا في الخطاب السجالي. إن الجماعة التي تستفيد من المصالح أو المنفعة الموضوعية هي دائرة ضيقة جداً، وليست كلها علوية، فاعلة داخل كتلة اجتماعية أوسع بكثير. تنطبق الاعتبارات نفسها على ما يقال من أن نظام صدام حسين كان نظاماً سنياً.

لكن ذلك يجب ألا يؤدي بنا إلى إهمال وقائع أنتجت الحرب وخصوصاً دور الحرس الثوري الإيراني وأجهزته فيما يدعى بفخر أنه نشر للثورة الإسلامية على حدود إسرائيل: ثمة ما يشي بتغيير متعمد للخارطة الديمغرافية في سورية: لم يبق في حمص إلا عدد قليل من سكانها، ونرى أن حزب الله يعمل على ألا يعود أهل القلمون إلى قراهم بعد تدمير الأراضي الزراعية وقطع ١٠,٠٠٠ شجرة مثمرة فيه، لعل الإيرانيين راغبون في استكمال ما بدأه حافظ الأسد عندما التمس موسى الصدر لاعتبار العلويين شيعة اثني عشرية، وتعميم ذلك على قطاعات أوسع من الشعب السوري باسم تصدير الثورة الإسلامية، وربما رغبوا في أن يشهدوا يوماً ما زوجة الرئيس الأسد مرتدية التشادور.

◆ ماذا يمكن أن نقوله عن الخطاب المثقف السوري ودوره المأمول حيال هذا الدمار في الدولة وبخاصة الدمار على المستوى الاجتماعي والأهلي الطائفي؟ وكنا قد أشرنا سابقاً في هذا الحوار إلى الانقسامات الهائلة والصلية التي تسكن هذا الخطاب، والذي ذهب أطراف منه إلى دعم الأصولية وسارت في الوقت نفسه وفق السياسات

المعرفة في ظل الاستبداد. وذلك يجعل معرفة السوريين (وغيرهم) بسورية معرفة انطباعية تسيرها الأهواء في معظم الأحيان. إلا أن الحروب الأهلية السورية بدأت ترهص بنتاج أدبي رفيع، خصوصاً في مجال الرواية، وبيعض التحليلات والشهادات النيرة المنشورة في الصحافة وفي مجلة بدايات وفي بعض المواقع مثل الجمهورية، وبعض الدراسات الجديدة، لكن أكثر ذلك بقي هامشياً ولم يصبح جزءاً من الثقافة السياسية العامة التي قد يكون لها الأثر في صنع السياسات.

◆ لكن ألا تعتقد أن هذه الأشكال الأصولية الجديدة التي تحركت من الهوامش وامتزجت بالحركات الشعبية يقف وراءها غياب الانضباط في الحراك الشعبي وغياب قيادات مثقفة، بل واختلاط الأصوات المثقفة مع المدّ الأصولي؟ لقد كان هناك إصرار من الشارع المثقف منذ البداية على عاملين: الأول، عدم اعتراض ونقد الأصولية، ما دامت المعركة ليست معهم «الآن»، بل مع الأنظمة الاستبدادية. والثاني، إصرار شديد على غياب أي قيادة مثقفة أو حتى منظمة، ما دامت هذه الحركات هي حركات الشارع، حركات شعبية، لا حركات نخب (وأنا في ذهني الآن برهان غليون)... إلخ. ألم يمثل هذا إحدى نوافذ المدّ الأصولي؟

■ نعم، بالطبع. إنني أذكر ما تقوله أنت وأشير إلى نقاط قد قيلت بالمعنى نفسه وبدقة في سياق هذا الحوار. إن اختلاط الأصوات المثقفة مع المدّ الأصول واضح في العديد من الحالات، والقليل من المعارضين سعى إلى إبعاد نفسه عن الغموض في هذا الخصوص. البعض قام بهذا، البعض على الأرض، وآخرون في المعارضة خارج سورية، والبعض أيضاً في المجلس الوطني والائتلاف الوطني حالياً وسابقاً ودفعوا ثمن ذلك مما تأتى عن الإخوان وبالطبع داعمي الإخوان. لقد أصبح التردد في نقد الأصولية في السنوات الأخيرة مرضاً، وتضخم على نحو كبير حيث كان هناك إصرار على «وحدة المعركة» و«وحدة الصف» والجدال الفارغ حول أن العلمانية هي لعبة الاستبداد وتحيز للأسد، وأنا لست متأكداً تماماً مما إذا كان المعارضون حقاً يعتقدون بهذا وبأنهم لا يدركون أن القوى الأصولية ستصّب عليهم كل جام غضبها إذا ما استطاعت. لا بل بالفعل قد فعلت ذلك. اختطاف رزان زيتونة وسميرة الخليل يجسّد مثلاً على ذلك من بين العديد من الأمثلة. «الجهاد في سبيل الله» ليس معركة الحرية ضد الاستبداد.

الطائفية ولم تعتبر الحركة الشعبية منذ البداية الحراك السوري سوى أنها حراك السنة. وذهبت أطراف أخرى أيضاً، بذات ميكانيزمات المرض، لتدعم أطرافاً مضادة أخرى سواء اكتست أثواباً طائفية أو استبدادية. الصورة معقدة، لا شك بذلك، لكن هل من كلمة حول دور للمثقف حيال ما أشرنا إليه؟

■ المهم أن نلاحظ هنا أن أدوار المثقفين في سورية وأماكن أخرى من العالم العربي قد تغيرت إلى حد كبير في العقود الماضية، وبعض هذا يعود إلى التغيرات في وسائل الإعلام. إننا بعيدون عن الأوضاع التي استلزمت أفكاراً وأمزجة تستخدم مفردات «الطلبة» أو «جيل القدر». لقد اتجه المثقفون نحو العمل التكنوقراطي بمعانيه الأوسع (ومنها التعليم الجامعي) وإلى الانتماء المهني للمؤسسات القائمة وفقدوا الكثير من قدرتهم على المبادرة، والكثير من المكانة الاجتماعية التي كانت لهم سابقاً، وشجاعة الرأي المستقل. أشرت إلى وسائل الإعلام، ولكن كانت هنالك أيضاً عملية طويلة من الترويض ومن الترهيب، وليس أقلها خيبات الأمل والفشل السياسي في ١٩٦٧ و ١٩٨٩ وفي لحظات أخرى كذلك. والعديد منهم، كما أشرت سابقاً، أخذوا يمالئون مشاعر الرأي العام المفترض. لقد عملت كل هذه العوامل على حرمان المثقفين من دوائر حامية وخاصة بهم. ونتيجة لذلك، فإن ما نجده من النشاط الجماعي الذي مورس تحت مظلة المثقفين تحديداً كان ضعيفاً وبالكاد كان حقيقياً؛ كانت الأشكال المؤسسية ضعيفة للغاية والإنتاج الثقافي ساذجاً سياسياً. لا شك أن هناك بعض الأفراد ممن يكتب في قضايا مضيئة ومثيرة، بيد أنهم لا يزالون هامشيين دون بيئة حاضنة قادرة على أن تشكل لهم (كما كانت الأحزاب في فترة سابقة)، وأن تضمن لهم الاستمرارية والأثر.

إن قلـــــة الدراسات التي تتناول المجتمع والدولـــــة والثقافة في سورية شأن لافت. وهو مرتبط باجتماعيات المعرفة في ظل الاستبداد.

لهذا على العموم، فإن المسألة ليست مثيرة على وجه خاص، إلا أنها دالة على قلة معرفتنا نحن السوريين ببلدنا: إن قلة الدراسات التي تتناول المجتمع والدولة والثقافة في سورية شأن لافت، وهو مرتبط باجتماعيات

لوقت قريب عصياً على التصوّر وما هو أبشع ما يمكن تصوّره. قد يكون في ذلك انتصار للتجربة على الأمل، لكنّ ثمة سلوى قابضة في أمل غير واضح المعالم وقائم على إدراك تعقّد الوضع في سورية وفي المجالين العربي والعالمي، ووجود متغيّرات قد تتسارع وتقلب من الوجهة التي تسم ديناميات الوضع الحالي: تحوّل نوعي مستديم في التوازنات العسكرية غير المستقرّة، تحوّل نوعي في السياسات الدولية.

إن سورية بلد اقتلع: وحدة جغرافية اقتلع ما فيها من مجتمع بعد أن بادر النظام إلى تحويل نفسه إلى قوة احتلال غداة سوء الاستجابة للأزمة السورية والحراك الذي نجم عنها، غداة فشل رئيس الجمهورية في الاستجابة واختياره اللجوء إلى سياسة صفريّة - وكأنه أراد أن يؤكد لنفسه وغيره أنه ابن أبيه بل وأكثر من ذلك، وفي ذلك حصاد لما زرعه النظام على امتداد ما قارب الآن نصف قرن.

سورية بلد مقتلع خراب وأطلال يسمع فيه عزيف النظام وداعش وصدى اليوم والرصاص، تتناهش الضباع وتتناهش حوله. ولذلك فإنني لا أفهم الباعث على صياغة المشاريع التي تفترض أنه بالإمكان إعادة الإعمار انطلاقاً من الصورة التي كانت سورية عاها عام ٢٠١١، مع بعض التعديلات القانونية والدستورية والإدارية. لا مستقبل لسورية كبلد إلا إذا أعيد اختراعها أي إعادة تكوينها في انقطاع مع ماضيها القريب والبعيد باستخدام المادة البشرية وغيرها التي تبقت، أي إن المنطلق سيكون الواقع الديمغرافي الناتج من الحروب الأهلية السورية والتصدّع الذي ضرب البلد: قلت إن سورية كادت أن تصبح لا مكاناً، وأعني بذلك أن الروابط الأفقية والعمودية التي شكّل تقاطعها الكيان الوطني السوري قد تقطعت: الروابط بين المناطق والفئات الاجتماعية (وهي غير مقتصرة على الطوائف والإثنيات) والنشاطات الاقتصادية والبنى التحتية والمتون والهوامش. هُجر أكثر من نصف السكان داخل الوطن وخارجه نتيجة للحروب - حروب الاحتلال التي شنتها النظام، والحروب الأهلية - وسياسة الأرض المحروقة واستمرار النظام في تفريخ الفئات الجهادية ورعاية الأصولية والقبلية في المجتمع، وبوادر سياسة تحوّل ديمغرافي قائم على التهجير والاستيطان، إضافة إلى خسارة سورية العناصر الأكثر تعلماً وتأهيلاً وقدرة وثقافة، معطوفة على انهيار عميق للنظام التربوي عدا في بعض المناطق التي استعاض بها عن الانهيار بالتفهم والعنف، ليس غريباً عن جوّ الجهالة

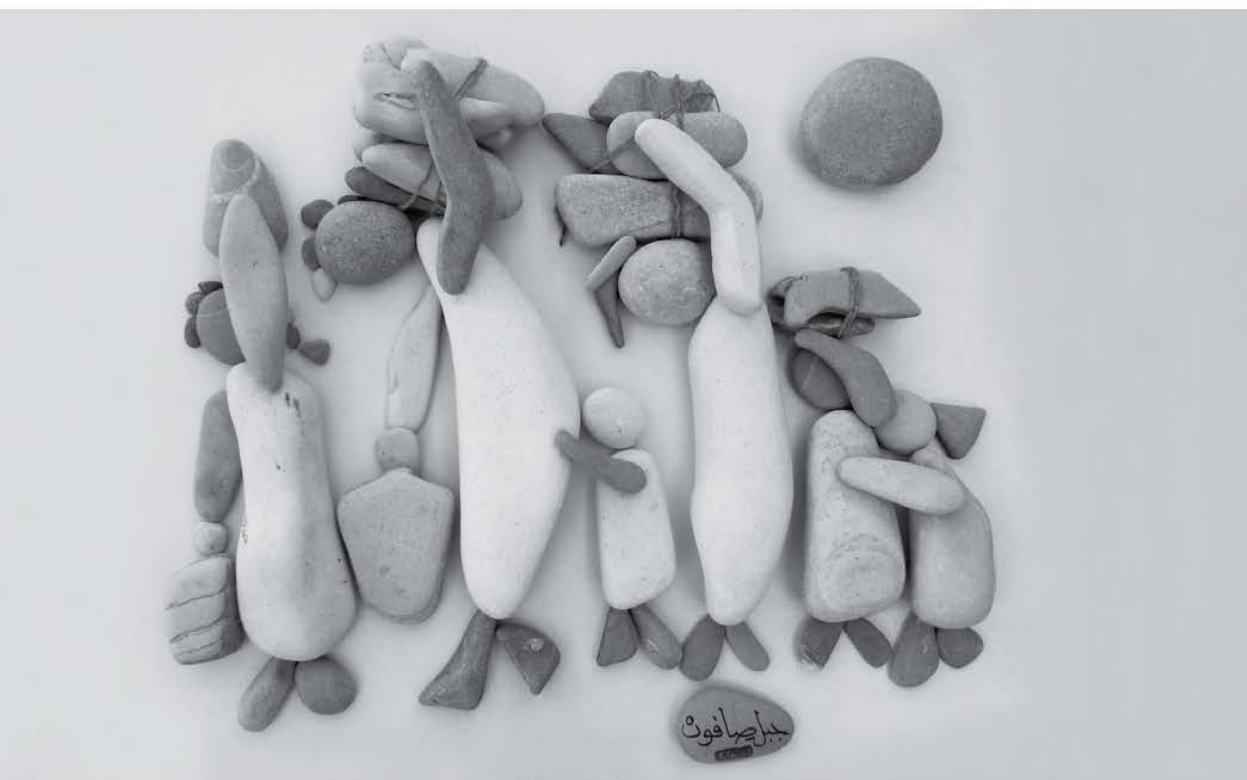
الحجة القديمة نفسها: أنّ «الشعب» أو الشارع له طبيعة وميل ديني بالسليقة ولديه نزوع فطري لمقاومة التطور. وهناك أيضاً فكرة ساذجة للغاية عن الديمقراطية كتدفق عفويّ وعضويّ للأمة وليس تنظيمًا سياسياً وعملية اجتماعية وسياسية. والقادة والمثقفون السوريون لا يرغبون عموماً أن يقودوا بالمعنى الحقيقي للكلمة: استخدام الأموال الموجودة، نعم، والقيادة من الخلف، نعم، لكن ليس قيادة بالمعنى الحقيقي. إن الوحيدين الذين يمارسون القيادة ويستبدون بالقيادة هم الأصوليون المسلحون، وإنني أنظر بأسى لما حصل للجيش السوري الحر على الأرض وعلى يدي «القيادة السياسية» والقوى الخارجية الداعمة لها.

ومرة أخرى، نعم، غياب القيادة المثقفة والمسيبة هي عنصر هام هنا، وهذا يشكل إلى حد كبير نتيجة لسياسة منهجية من قبل النظام، نفّذها منذ بداية الحراك، بالقتل والاعتقال أو النفي لتلك العناصر، وتقطيع البلاد إلى جيوب أمنية حالت دون ظهور سياسات وطنية جامعة. إنّ السياسات التي صيغت إلكترونياً، كما عكستها شعارات أيام الجمعة في البداية، أصبحت بسرعة احتكاراً للإخوان المسلمين، الذين وضعوا المزيد من الدين في المحتوى وقاموا على زخرفة وتشويش الحراك على مقاسهم.

لا مستقبل لسورية كبلد إلا إذا أعيد اختراعها أي إعادة تكوينها في انقطاع مع ماضيها القريب والبعيد باستخدام المادة البشرية وغيرها التي تبقت.

ولكن مرة أخرى، لا بد لي من الإصرار على نقطة كنت قد أشرت إليها دائماً، لا يوجد هناك حركة ناجحة، ولا يمكن أن يغدو تياراً مركزياً، إذا افتقر إلى الوسائل اللوجستية والتنظيمية، وهناك تمويل كبير للحركات الأصولية.

◆ هل هناك من شيء ترغب بإضافته في ما يخص مسار الصعود الأصولي في البلاد العربية، وبالتحديد في سورية؟
■ دعني أستجمع في هذا المقام خيوط ما سبق أن قلت، وأن أقترح تصوّراً لما أرجح أنه سيحصل في سورية في المستقبل، أن أستجمع الخيوط وأحرّفها على أسس الناظم الأساسي لها، وهو الوضع على الأرض، وعلى الصورة المتجلية الآن، أي في نهايات نيسان ٢٠١٥. وإنني أجازف هنا، وتعرّ على المجازفة السوداوية بتوقع ما كان



والتجهيل البدائيين هذا ما صرّح به دون خجل بين أو مستتر مفتي الجمهورية العربية السورية غداة اجتياح الجهاديين لمدينة جسر الشغور. قال المفتي محمد حسّون إن الجيش السوري انسحب بسبب دخول شهر رجب لأن القتال فيه حرام.

اعتراضى على جعل سورية سنية أو شيعية. أي على أن يجعل للوطن نحلة. فلا أريد لسورية أن تكون هذا ولا ذاك إذ إن ما أريد لها هو أن تكون سورية لا يصفها دين.

هذا مع تداخل الإسلام الأصولي والجهادي مع سقوط الأنظمة وتنظيم الفوضى، وشبكات الإرهاب مع أنابيب ومنايع النفط وأزمة الغرب مع مهاجره، وشبكات الاتصال العالمية، وأجهزة الاستخبارات المختلفة، والعشائر المتجددة، وفساد المقاومة، والهويات القاتلة والحطابات السياسية المتقدمة. الحاصل أن أي تفكير في مستقبل سورية ينبغي أن ينطلق من هذه المعطيات وليس من وهم الاستمرار في عمليات سياسية فقدت أسسها البنيوية والديمقراطية، فقد أضحت أجزاء كبيرة من سورية مجرد مواضع ونقاط تقاطع الطول والعرض دون عمران: أشك في أن المهجرين سيعودون، والأرجح أنهم سيصبحون بروليتاريا رثة شاملة للمنطقة. وإذا استثنينا غزواً عربياً - عالمياً لسورية (أو نصراً للمليشيات الجهادية المدعومة تركياً وخليجياً، تتلوه مذابح طائفية) تالياً لتضعضع الموقف العسكري للنظام في ربيع ٢٠١٥ واهتزاز إيران بعد قصف الحوئين، فإنه لن يتبقى لدينا من قوى تقوم على إعادة اختراع سورية إلا القوى في مناطق سيطرتها حيث تدار الفوضى، مع شيء من الأخذ والردّ والكرّ والفّرّ مع قوى النظام. بموازاة ذلك لدينا النظام، لكنّه أصبح الآن نظاماً تكاثرت عناصره الداخلية ومراكز السلطة فيه، ولذلك فإن أية تسوية قد تؤدي إلى إعادة اختراع البلد تقتضي إرضاء القوى التي أنقذت النظام: الشبيحة، وإيران، والمليشيات الأجنبية في سياق نظام مليشياوي مافوي، والوسائط في التعاملات الاقتصادية (كالنقط بين داعش والنظام بوساطة السيد جورج حسواني).

هناك بوادر لإسكان العناصر المليشياوية المعبأة طائفيّاً في دمشق القديمة، وتشجيع بعض ضواحي لدمشق

وغير دمشق. والمرجح أن تتم عملية تشييع لبسطاء الناس الباقين في مناطق أساسية من البلاد، ولم يفت بعض قادة المليشيات تذكيرنا بأن جل سورية كانت شيعية حتى العصر الأيوبي (بنحل مختلفة)، ليس لي اعتراض على التشييع، وعلى تبديل الإنسان لدينه أو الانخلاع عن الدين بالكلية، ولست معنياً بكون أكثرية سورية سنية أم شيعية. اعتراضى على جعل سورية سنية أو شيعية، أي على أن يجعل للوطن نحلة. فلا أريد لسورية أن تكون هذا ولا ذاك إذ إن ما أريد لها هو أن تكون سورية لا يصفها دين ولا تصفها نحلة أو طائفة. أما شكل النظام المتحوّل والمعتضد بالمليشيات والشبيحة، فإن صورته ستعتمد في تصوري على من سيربح الصراع على سورية داخل إيران وبين أجنحة النظام الإيراني، وذلك بعد أن يقرر أرباب القصر في دمشق التخلي نهائياً عن المناطق الشرقية وبعض الشمالية والجنوبية لمن هو قادر على الاستبداد بها. قد تتخذ البلد الواحد من شكلين: إما دولة ذات مظهر علماني، مع طابع أهلي ذي غالبية شيعية (والافتراض هنا هو أن المهجرين لن يعودوا - انظر مثال حمص - بل سيتبدّدون)، وإما دولة تلتزم ضوابط الحرس الثوري الإيراني. إن ما قاله بشّار الأسد يوم ٢٠١٥/٥/٨ لهو ذو دلالة على معرفته بدستور بلاده وبفهمه للتناظر الدستوري مع إيران، فهو ادّعى أنّ الدستور السوري ينصّ على كون الشريعة مصدراً أساسياً للدستور. وهذا غير صحيح: إن الدستور السوري النافذ يعتبر الفقه الإسلامي أحد مصادر التشريع، والبون بين الإثنين واسع، ووجد في ذلك مقابلاً في ما يتعلق بشكل الحكم لمبدأ ولاية الفقيه.

أما الولايات المتحدة، فلا سياسة لها في سورية، لديها فقط تخوّفات وهواجس، و نموذج العراق كحل مثالي. ليس لسورية لدى أميركا أي مكانة تتجاوز الحسابات الجيوستراتيجية: وذلك يجعل مستقبل البلاد منوطاً بالمفاوضات مع إيران، وربما مع استعادة الروح للبلدان العربية التي بدأت تشعر بعدم كفاية الدور الأميركي في حمايتها. أما تركيا، فهي وضعت نفسها خارج الحلبة، ولو أن لديها من المقومات ما يسهّل لها إعادة الانخراط بناءً على ما يحصل من تطورات في سياستها الداخلية. ليست سورية، ولا العالم العربي بالنسبة إلى الأميركيين اليوم إلا مساحة مضطربة بين إيران وإسرائيل، أي عودة الروح إلى المعتمد المزدوج لسياسات الولايات المتحدة أيام الشاه، في منطقة لا يمكن فيها الاعتماد على الدولة

والأماكن الافتراضية التي يعوم عليها البرابرة من داعش والمنظمات المماثلة.

عن المعارضة والمعارضين

لقد انحدر الكثير من القادة، وتقزمت قامات عديدة، القليل ممن أعرفهم وأكنّ لهم بالغ الاحترام، وأقدّر على وجه الخصوص بعض القوى على الأرض في سورية، والذين لم ينجروا وراء الشعبوية الإسلامية ولديهم حرص على الدولة والعلمانية (لكن ليس للطغمة الحاكمة) الذين خبروا ضغوطاً داخلية وقيوداً حقيقية، بالطبع، لم يكن هذا الخط هو الفائز، كما تبين ذلك من الاعتقال الثاني للوي حسين في تشرين الأول ٢٠١٤ (الرجل الشجاع والذي يمتلك رؤية عاقلة، ولو أنه بدا بعد خروجه وكأنّ الوضع قد أفقده توازنه). وعليّ أن أضيف أنني أجد ابتداءً بالغاً في القيل والقال عن هذا الرجل وعن حركته وعن غيره، ما يشكل أسلوباً رخيصاً في العمل السياسي اعتدنا عليه ولم نعتد. وقد كان للثيمة وأكل لحوم الناس عواقب كبرى على الائتلاف، الأمر الذي أنتج في النهاية وضعاً كارثياً. وحينما كان لوي حسين يتخذ مواقف سياسية في البداية ثبت عليها، تحوّل الوضع في سورية على نحو كبير. وحينما كان الحراك الذي كان واعداً قد انحرف ودثر ولم يعد لديه توجه إيجابي (وليس ثمة وسيلة للتغيير السياسي في سورية)، فقد تحوّل هو وحركته من الموقف السياسي إلى الموقع اللاسياسي المبدئي، وهذا يمثل نتيجة، من وجهة نظري، عناداً مبدئياً أكثر منه سذاجة.

أشك كثيراً بالأحزاب القديمة في المعارضة الداخلية، الذين لا يفهمون تماماً ماذا يجري في سورية، وفقاً لتقديري، ويستمرّون في التفكير وفق معايير ومفاهيم تقادمت. إنني أتمنّى كثيراً الآلاف من الشباب، والذين التقيت بالعديد منهم هنا وهناك، وهم شباب متعلمون وليست لديهم إلا القليل من الأوهام، عقلانيون على نحو كبير مثير للإعجاب، وذوو إرادة جيدة وواعدون، أجبروا على المنفى. إنهم مستقبل البلد إذا ما تبقى هناك شيء للعودة إليه قبل أن يضربوا لهم جذوراً في فرنسا أو السويد أو أي مكان آخر. إنهم يرفعون الرأس. كما أنني أقدّر قوات المقاومة الكردية الشديدة في عين العرب، والذين يرفعون الرأس أيضاً: إنهم بقيادة امرأة، وعقلانيون في السياسة، وينظرون إلى أهدافهم المحددة، وأنا أتجاهل هنا المناكفات والطموحات اللاسورية التي تحرك الكثير منهم.

ولا على الشعب. وهي ستستمر في صورتها هذه على أنّها ثقب أسود فيه مُفتنّح الجحيم وبوابته. هذا إلا إذا عادت الروح إلى النظام العربي بعد عقود من التهالك والتهتك تالياً لإدراك ما نسّميه بالعاميّة «السخن» والخطر الوجودي والشعور بإمكانية أو حتّى بأرجحية الانقراض. علنا ندرك أن أميركا والسعودية صديقان وليس حليفين: الحلف لإسرائيل وإيران.

◆ اسمع لي الأستاذ عزيز في السؤال الأخير أن أستفسر عن نقطة أخيرة تتعلق بحضورك في العالم العربي عموماً وسورية خصوصاً: كيف تقيّم حضورك في مجرى الأحداث السورية؟ هل أنت تأخذ مسافة بالفعل بينك وبين العالم العربي، كما قيل كثيراً أخيراً؟

■ لا بد للمرء هنا، في الإجابة عن هذا السؤال الصعب في نهاية هذا الحوار (وهو لدغة ذيل العقرب في هذا الحديث)، من الاعتراف أولاً بأن هناك مسافة موضوعية، وهي مسافة نشأت على نحو طبيعي من واقع حياتي خارج سورية منذ زمن طويل. أما بالنسبة إلى فضاء تجريبي الخاصة وارتباطي العاطفي بسورية/ لبنان، وعلى نحو أخص بدمشق/ بيروت، فإنه في ظل الظروف الحالية للمواصلات والاتصالات ليست المسافة المكانية أمراً كبير الأهمية بالنسبة إلى التجربة اليومية إذا كان المرء مقيماً في فيينا أو أبو ظبي أو في سنغافورة أو لندن وبالفعل، في هذا الجزء أو ذاك من دمشق. إنّ شبكة العالم اليوم وسهولة الحركة، بالنسبة للبعض القادر على الحركة، يزيلان عملياً البعد المادي الذي يقاس بالكيلومترات - وها نحن نشهد في داعش عالماً إسلامياً

إنني أتمنّى كثيراً الآلاف من الشباب. والذين التقيت بالعديد منهم هنا وهناك. وهم شباب متعلمون وليست لديهم إلا القليل من الأوهام. عقلانيون على نحو كبير مثير للإعجاب. وذوو إرادة جيدة وواعدون. أجبروا على المنفى. إنهم مستقبل البلد إذا ما تبقى هناك شيء للعودة إليه.

افتراضياً على درجة بالغة من الفاعلية. كما أنّ عناصر الاقتراب والبعد ليست هي بالحد الكبير بين الحياة اليومية في سورية وبين بلد عربي وسورية وبلد غير عربي، بل بين التجربة اليومية في سورية وأي مكان في الخارج. ومثل هذه الحالة قد ذكرت سابقاً في نقاش الوقائع الافتراضية

إنها «حرب الشبيحة ضد الشبيحة»

وبالمناسبة هنا، يجب عليّ القول إنّ أكراد سورية والعراق قد صعدوا إلى حد كبير في السنوات الأربع الماضية نتيجة قدرتهم على تنظيم أنفسهم والمقدرة على التعامل مع اختلافاتهم بطريقة تفضي إلى الصالح العام كما يرونه، ولم يستسلموا إلى المرض الإسلامي من الناحية الاجتماعية أو من ناحية أخرى. لقد كنت منذ فترة طويلة معادياً لفكرة تقرير المصير الذاتي السياسي الكردي، وما زلت أضيق بالدعوى الكردية الخالصة، التي كانت كثيراً مختلفة وقصيرة النظر، ولا أحثي اغترابهم المتعمد عن الجسم السياسي السوري، والشوفينية التي لديهم والانتهازية التاريخية التي اعتادوا عليها، بما في ذلك التاريخ الطويل من التعاون بين مختلف الجماعات الكردية مع كل من كان مستعداً للتدخل لصالح طموحاتهم القومية بما في ذلك إسرائيل. إنهم يعتبرون أنفسهم أكراداً أولاً على نحو ضيق وليسوا سوريين إلا على نحو جانبي.

أما الآن فإنني ما عدت بالضرورة معادياً لهدف الاستقلال لديهم، فقد أثبت الأكراد أنهم أجدر بذلك منا نحن. وقد شرّعت سلطات الحكم الذاتي الكردي في الحسكة في ١١ تشرين الأول ٢٠١٤، بقوانين، مساواة المرأة في مسائل الميراث، وحظرت الزواج الإجمالي واعتبرت جرائم الشرف على أنها جرائم دون تخفيف الحكم، وهذا يذكرنا بالمرحلة المبكرة التقدمية المتفائلة في القومية العربية، والتي لم تسع إلى التأكيد على الدم، بل على التقدم والطليعية. هذا على الرغم من بوادر تطهير عرقي موجه نحو العرب وغيرهم من الأقوام غير الكردية.

لم يكن فهمي للقومية قائماً على عصبية الدم، رغم أنني لا أنكر مشاعر العصبية لدي. يتمثل فهمي لها في كونها شكلاً من أشكال المجتمع السياسي يفضي إلى الدولة-الأمة من المواطنين، وهو ما يعرف بالنموذج الجمهوري، الذي تجسّد في فرنسا وتركيا الكمالية: إنه ترتيب مدني يناقض الاجتماع السياسي الأهلي. إنه الافتراض أنّ الدولة القومية هي أكثر انفتاحاً على التنمية والتقدم، هذا رغم أنّ من تاريخها الطبيعي أنّ تقوم بأساطير حول الأصل والبطولة. ومن هذه الناحية، فإنّ الأكراد - في مناطقهم السكنية (التي استولوا على الكثير منها من الأرمن والآشوريين في الذاكرة الحية المعاشة حتى اليوم)، ريفيون وعشائريون على نحو

كبير، ينقسمون، أحياناً بصراعات عنيفة، إلى جماعات اجتماعية وسياسية ولغوية بقودها عناصر منفتحون على القضايا الدولية والمحضرية - قد نظموا أنفسهم وأثبتوا أنه لديهم الكثير ليعلمونا إياه، وليس العكس. أما فكرة أنّ الجسم القومي متماسك بالضرورة فهي فكرة أيديولوجية مخيالية عزيزة على القوميين أينما كانوا.

وبالعودة إلى سياسيينا: يعود الكثير من هذه البهذلة - التقزيم لبعض أعضاء المعارضة السورية إلى التصورات المنتفخة لمواهبهم السياسية. يتطلب النشاط السياسي عدداً من المواهب والسمات الشخصية التي يمتلكها البعض ويفتقر إليها آخرون. والعديد من أولئك الذين شاركوا في النشاط السياسي يفتقرون إلى ذلك، وهذا ما يظهر جلياً في الكثير من التصريحات والمواقف العلنية المخرجة والسهولة التي تم بها استيعابهم من هذا الجانب أو ذاك، أما بالنسبة إليّ، فدعني أقول التالي: على الرغم من أنني كثيراً ما أجازف، لم تكن لدي طموحات سياسية. وليس اعتيادي بنفسني عاملاً مستقلاً عن عقلي. إنني أعلم أن مواهبي في ما يخص ممارسة السياسة اليومية متواضعة جداً، بما في ذلك صبري المحدود، ولذلك فإنني أحجمت - وبأ لبت آخرين أحجموا مثلي - عن التطلع إلى الزعامة السياسية، ذلك أنّ أيّ انخراط مباشر لي في السياسة في السنوات الأربع الأخيرة لم يكن ليفيد أحداً.

على ذلك فإن مساهمتي (وهي متشائمة فكرياً، إلا أنها لطالما تحتفظ بفسحة أمل) كانت مبتعدة عن العمل الحركي، حيث إنها ارتبطت بالتقييم وتشكيل الآراء، والتي ألقيتها بمعظمها شفاهياً، ولكن القليل منها قد نشر (ولم يكن لدي جهاز سياسي للتوزيع). ثم إنّ السيناريوهات المرعبة التي تلمّستها لا يمكن أن تكون جذابة سياسياً ولا ينبغي أن تحاول أن تكون كذلك. ويجب عليّ الاعتراف هنا بالتردد في القيام بمداخلات على الصعيد العام. وربما بشلل ما، حيث رأيت الوضع في سورية يتطوّر إلى الحرب بين نظام بربري ومعارضة مسلحة كبيرة وأيضاً رجعية، حرب الشبيحة ضد الشبيحة. حربٌ حيث الخيارات مظلمة ما دام الدافع الأصلي للحراك قد دُمّر، وشروطه الأولية لم تُدعم، مهما بقي من العناصر غير الطائفية وغير الإسلامية المسلحة في ظل حالة من الحصار الجدي مع تراجع في المناورة على الرغم من التسليح والتدريب من جانب الولايات المتحدة وغيرها من الجهات الفاعلة.

ميشال فوكو هل هو نيوليبرالي؟

دانيال زامورا

باحث بلجيكي، يحضر رسالة دكتوراه عن الوظيفة العامة في بلجيكا، شارك في كتابة فصل من كتاب «Critiquer Foucault. Les années 80 et la tentation néolibérale» المترجم أدناه.

على المستوى الفكري، تدفع التغيرات التي تخضع لها الرأسمالية مع انفجار البطالة، بعدد كبير من الكتاب إلى إعادة تعريف «العوامل الاجتماعية القادرة على الاضطلاع بدور العوامل الثورية، وذلك باعتبارها بدائل للحركة العمالية المتعثرة: فلاحو العالم الثالث، والطلاب، والمتقنون، والمنبوذون». ومن بين هؤلاء نجد بشكل خاص المنظر الماركسي هربرت ماركوز مدافعاً عن فكرة مفادها أن الطبقة العاملة التقليدية ستصبح من الآن وصاعداً «مندمجة» في النظام الرأسمالي وأن «الأقليات الفاعلة» وحدها ومعها «إنتليجنسيا الجيل الشاب من الطبقات الوسطى» ستكون قادرة على القيام بعمل سياسي جذري. فقد كانت تلك الجماعات بالنسبة إلى ماركوز، «الأقل حظوة» إذ إنها رمزياً «مهانة، ومحبطة، ومضطهدة، ومن ضحايا التمييز العنصري»، فشكّلت إلى جانب الطلاب، عنصراً حاسماً في انطلاق الثورات. فلم يعد مركز «الزلازل الاجتماعية» يحدّد بالتالي جهة البروليتاريا الكلاسيكية إنما جهة «العاطلين من العمل»، و«السود من سكان الغيتوهات»، و«الفئات الفقيرة التي تعاني» والمجموعات «الإثنية» الأخرى المهمشة. ستُكرّس هذه المقاربة من قبل أندريه غورز الذي دافع، منذ عام ١٩٨٠، عن فكرة مفادها أنه من الآن وصاعداً اختفى العامل الكلاسيكي واختفت معه «الطبقة القادرة على أن تأخذ على عاتقها تحقيق المشروع الاشتراكي والترويج له». فهو يرى أن «غالبية السكان تنتمي إلى هذه البروليتاريا الجديدة التي ظهرت بعيد الثورة الصناعية والتي تضم مجهولي القيد، والمقتلعين من طبقاتهم، الذين يشغلون وظائف ثانوية غير مستقرة، كالعمال المؤقتين، والعمال الظرفيين، والعمال البدلاء، والعمال بدوام جزئي». وبخلاف «الفرد البروليتاري» لدى ماركس، لن يُعرّف هذا الفرد من خلال موقعه في قلب

في مؤتمر بطوكيو في نيسان/أبريل ١٩٧٨، تساءل ميشال فوكو ألسنا نشهد «في نهاية القرن العشرين هذه، شيئاً سيشكل نهاية عصر الثورة؟». غير أن «نهاية الثورة» الفوكوية هذه لا تشبه تلك التي تحدّث عنها فرانسوا فورييه، إنما تشبه بالأحرى «انتشار صراعات تهدف إلى إعادة توزيع لعبة السلطة في المجتمع». ويوازي هذا التحول بنظر فوكو تراجع الماركسية والمشكلة التي كان يطرحها ذلك في عهده. لكنه في العمق، يوسّع الملاحظة التي كان يطرحها في كتابه «الكلمات والأشياء»، عن نظام ماركسي مندمج بشكل تام في فكر القرن التاسع عشر لكنه لا يتصل به بشكل وثيق ليتيح فهم نهاية القرن العشرين. ولعل عصبناً قد حوّل التركيز نحو هوامش الأجراء، ما دفع إلى الواجهة المنبوذين والمساجين والمصابين بأمراض عقلية والمجرمين، والمثليين والأقليات الجنسية. فقد كان فوكو مولعاً دائماً بالمقولات المتضاربة.

العامة الجدد

كان للأزمة الاقتصادية التي أصابت الاقتصادات الغربية في مطلع سبعينيات القرن الماضي كما لأحداث أيار/مايو ١٩٦٨، أهمية كبيرة على مستوى الجدل الفكري وتطوّر الصراعات الاجتماعية. نذكر أحداث أيار/مايو ١٩٦٨ لأنها، إلى جانب كونها حركة إضرابات واسعة النطاق، فقد ساهمت بشكل كبير في تسليط الضوء على الصراعات المتعددة «المحددة» المرتبطة بالحياة الجنسية أو «الحياة اليومية» أو بالعرقية وبالأزمة، لأنها سوف توجّه ضربة قاضية إلى الحركة العمالية من خلال الحد بشكل كبير من عديد القوى العاملة ومن قوتها الاجتماعية والرمزية مع ظهور البطالة الجماعية. وبذلك، ينشئ هذا الإطار عدّة نقلاّت نظرية مهمة.

جماهيرية» تحفزها ثورة «العامة المهمشة» إلا من خلال «اندماج» هذه المجموعات.

تجربة «اليسار البروليتاري»

تناسب هذه النظريات بشكل تام مع نوع النشاطات التي قام بها فوكو مع «اليسار البروليتاري». والواقع أنه، خلال فترة الماوية، حين كان يرافق بيار فيكتور شخصية قيادية في اليسار البروليتاري بين عامي [١٩٦٨-١٩٧٣] اقترب من المسيرة السياسية للماويين. كانت الأهمية المركزية التي تتخذها أعمال مثل احتلال مبان لإيواء البلا مأوى، أو توزيع الطعام على المهاجرين الأفارقة، أو التظاهر من أجل حقوق المعتقلين، ترجع صدى أفكاره السياسية الخاصة. وإن هذا التحول في العمل السياسي للأجراء نحو «الهوامش» كان من شأنه أن دفع سارتر إلى أن يرى فيه «لمحات أخلاقية» والانتقال إلى «ماركسية أخلاقية». ويكمن البعد الأخلاقي بشكل أساسي في التحول التدريجي في المواضيع المرتبطة بالاستغلال نحو مسائل متعلقة بـ«الأقليات»، أو «المهمشين»، أو «المنبوذين» وبالتالي نحو موضوع السيطرة والتمييز. بذلك تعلن هذه الصراعات الجديدة ما بات يسميه فوكو، منذ عام ١٩٧٢، «ظاهرة جديدة بالكامل، ترتبط بظهور العامة الجدد» الذين يشكلون الشريحة «غير البروليتارية» من مجموع الأجراء. وإن هذا التراجع البطيء في مركزية الحركة العمالية، وفي الشمولية المفترضة التي كانت تجسدها، والتي يتحدث عدد من المثقفين باسمها في الحقل السياسي، يستدعي إذا استبدالها بنضالات محددة. فلا ينبغي أن يقتصر دور المثقف على السرديات الكبرى، والخطابات الشاملة، كما يجسدها سارتر، إنما على «استنطاق كل أنواع الخبرات، والإصغاء إلى المصايين بالحسنة والمنبوذين والذين يحضرون... أعتقد أن مهمة الممارس في حقل الفلسفة الذي يعيش في الغرب تتمثل في الإصغاء إلى هذه الأصوات كافة». والمهمة الملقاة على عاتق الفيلسوف، في يومنا هذا، هي أن يفهم خصوصاً كيفية نبذ جزء من السكان وليس كيفية استغلال السواد الأعظم منهم». والمشكلة ليست بالتأكيد مشكلة تحديث مجموعة كاملة من أساليب السيطرة التي كان يُغض الطرف عنها نسبياً حتى الآن، بل في أن تحظى بالتنظير خارج المسائل المتعلقة بالاستغلال. بعيداً عن رسم منظور نظري يدرس العلاقات بين هاتين المشكلتين، صار التفكير بهما شيئاً فشيئاً على أنهما متعارضتان بل متناقضتان.

عملية الإنتاج الاجتماعية إنما بفعل عدم شعوره بالانتماء إلى أي طبقة، من خلال «نبذه» من المجتمع، وهذا هو مصدر راديكاليته المفترضة. سوف توضع صياغات مختلفة لهذه الفرضيات من قبل شريحة كبيرة من التيارات الفكرية اليسارية في سبعينيات القرن الماضي.

ومع أن فوكو نأى بنفسه نسبياً عن هذا النوع من النقاشات في صلب الماركسية، إلا أنه يبدو مؤمناً بشعبية النظرية المستجدة «للبروليتاريا الدنيا» وعمليتها. فبالنسبة إليه، كما إلى عدد كبير من كتّاب تلك الحقبة، سوف تتمتع هذه الشخصيات الجديدة من الآن فصاعداً بأهمية كبيرة على الصعيد السياسي وستشكل محركاً جديداً للصراعات الاجتماعية.

«تقبل الأحزاب السياسية إلى تجاهل هذه الحركات الاجتماعية بل إلى إضعافها. من هذا المنطلق، تبدو أهمية هذه الحركات جميعها واضحة بالنسبة لي. فهي تتجلى جميعها لدى المثقفين، ولدى الطلاب، ولدى المساجين، من خلال ما يُسمى «اللومينبروليتاريا» (البروليتاريا الرثة). لست أعترف بقيمة مطلقة لحركتهم، لكنني أعتقد مع ذلك أنه من الممكن منطقياً وسياسياً استرجاع ما قد احتكرته الحركة الماركسية والأحزاب الماركسية».

يتعلق الأمر بالتالي بطريقة معينة في مواجهة لامبالاة الطبقة العاملة التي باتت أكثر تعقلاً في ما يتعلق بحقوقها المكتسبة وقبولها الإيديولوجية البرجوازية. وهكذا لا يتردد فوكو في التأكيد على أنه إن كان «القرن التاسع عشر قد مارس أسلوبه الخاص في قمع البروليتاريا»، فقد حصلت هذه الأخيرة اليوم على «حقوق سياسية مختلفة» وبالتالي «حصلت البرجوازية من البروليتاريا على وعدٍ بحسن السلوك السياسي والتخلي عن التمرد العلني». وهكذا تكون البروليتاريا قد «استبطنت جزءاً من الإيديولوجية البرجوازية»، إيديولوجيا «النظام، والفضيلة، والامتثال للقوانين، ولما هو مناسب وغير مناسب». وهذه الذهنية التي تفضي إلى «استعمال العنف، والتمرد، والإجرام» تكمن اليوم لدى «البروليتاريا الدنيا من مهمشي المجتمع». هكذا يجد فوكو جواباً على لامبالاة الأجراء في أن هذه «تستعيد هذه الشرائح المهشمة العنيفة من عامة الشعب وعيها السياسي. على سبيل المثال، زُمر الشبان في الضواحي، وفي بعض أحياء باريس، الذين يكتسب وضعهم الجرمي ووجودهم الهامشي دلالة سياسية بالنسبة إليهم». وبذلك ستشكل هذه المجموعة المنبوذة الشرارة التي تحتاج إليها البروليتاريا المتبرجة. والواقع أنه لن توجد أي «حركة

يرى فيها قوة موجهة للتحكم بالسلوك وتنميته. تقوده هذه الأعمال والملاحظات إلى أن يُصدّم فوكو. «بالاهتمام الذي توليه الدولة للأفراد، تصدمنا التقنيات كافة التي وُضعت وطُبقت لئلا يتمكن الفرد من الإفلات من السلطة بأي طريقة من الطرق، ولا من الإشراف، لا من الرقابة، ولا من العقلاء، ولا من الإصلاح، ولا من التأديب. فكل هذه الآليات التأديبية الكبرى - الثكنات، والمدارس، والمشاغل، والسجون - إنما هي آليات تتيج حصر الفرد، والتعرّف إلى هويته، وماذا يفعل، وما الذي يمكن فعله به، أو في أي موقع ينبغي وضعه، وكيف يحدّد موقعه بين الآخرين».

إلى هذه المؤسسات كلها يحرص فوكو على أن يضيف «آليات المساعدة والتأمين» لأنه، «إلى جانب أهدافها المتمثلة في الترشيد الاقتصادي والاستقرار السياسي»، فإنها «تجعل من الفرد، ومن كيانه، ومن تصرفاته، ومن الحياة ذاتها - ليس من كيان الجميع وحسب إنما من كيان كل واحد منا - حدثاً مُجدياً، بل حدثاً ضرورياً لا غنى عنه من أجل ممارسة السلطة في المجتمعات المعاصرة». وفيما لمسيرته الفكرية، يصوّر فوكو الضمان الاجتماعي كأداة تسهم في تطبيع التصرفات والأفراد في النهاية، وكما لاحظ عام ١٩٨٣، «تفرض أنظمة الحماية الاجتماعية المعتمدة نمط حياة محدداً يخضع الأفراد له، وأيّ شخص أو أي مجموعة لا تريد أو لا تستطيع لسبب أو لآخر التوصل إلى نمط الحياة هذا، تجد نفسها مهمشة من خلال لعبة المؤسسات»، فيصير من المهم بالتالي تحديث «العلاقات القائمة بين طريقة عمل الضمان الاجتماعي وأنماط العيش» والكشف عنها وتوضيحها.

وهكذا فإنّ الدراسات التي تجرى حول الحوكمة ستكون نقطة الانطلاق بالنسبة إلى فوكو - وبعض أتباعه مثل فرانسوا إيوالد - لطرح إشكالية مركزية دولة الرعاية في «أشكال السلطة الحديثة». غير أنّ من المثير للإشارة إلى أنّه في كتاب إيوالد الرئيسي، وهو ليس مهدي إلى فوكو وحسب إنما صيغ، إلى حدّ كبير تحت إشرافه، لا يتردّد المؤلف في القول إنّ «دولة الرعاية تحقق حلم «السلطة الحيوية». فدولة الرعاية دولة لم تعد تهدف إلى حماية حريات كل فرد من الاعتداءات التي قد يتعرض لها من الآخرين بقدر ما تهدف إلى التحكم بالطريقة التي يدير بها الفرد حياته». ويضيف أنّه «إن كان فوكو، على غرار الدولة الليبرالية، قد وضع الاقتصاد في محور اهتماماته، فلم يعد الاقتصاد عنده

من إعادة توزيع الثروات إلى إعادة توزيع السلطة سيّناح فوكو جزئياً هذا التطور في أعماله الأخيرة مطلع ثمانينيات القرن الماضي، مع تخليه التدريجي عن وجهة النظر المرتبطة بالثورة وحتى عن التحليل الطبقي، فتجده يوجّه أبحاثه نحو «الحوكمة» والثورات التي تواجهها. فلم يعد عامل هذه الثورات يستند بداهة إلى أي مرجع اقتصادي بل إنه يستند إلى العلاقة بين أشكال السلطة المختلفة. وهكذا، فإذا كان فوكو قد انفصل إلى حد بعيد عن الأفكار الراديكالية التي تبناها في «سنواته الماوية»، يبقى أنّ العوامل التي ظلت تأسر اهتمامه تتمثّل في الأشخاص الأقلّوين المنفصلين عن علاقات الاستغلال.

دولة الرعاية لم تعد تهدف إلى حماية حريات كل فرد من الاعتداءات التي قد يتعرض لها من الآخرين - بقدر ما تهدف إلى التحكم بالطريقة التي يدير بها الفرد حياته.

فهو يرى، في نهاية الأمر، أن البؤس ومظاهر اللامساواة الاقتصادية هما بشكل أساسي من مشكلات القرن التاسع عشر. وإذ يقرّ طوعاً أنّ هذه المسألة لم تحلّ كلياً، إلا أنها لم تعد مطروحة «بالإلحاح نفسه». فإذا كان «القرن التاسع عشر قد غُني بشكل خاص بالعلاقات بين الهياكل الاقتصادية الكبرى وجهاز الدولة»، فإن «مشاكل السلطات الصغرى وأنظمة الهيمنة المنتشرة» هي التي تحوّلت «إلى مشاكل أساسية». وهكذا، فقد حلّت مشكلة «فائض القوة» مشكلة التحكم بالسلوك وأشكال السلطة الرعوية الحديثة، محلّ مشكلة الاستغلال ومشكلة الثروات. وقد عمد فوكو إلى تسمية «هذا الإطار المحدد لمقاومة أشكال السلطة» بـ «الثورات السلوكية». في هذا السياق، لم يعد فوكو يشير إلى اللومينبرولييتاريا (البروليتاريا الرثة)، أو حتى إلى طبقة معيّنة وحسب، بل بات يشير بداهة إلى المنبوذين، والصراعات المرتبطة بالتححرّ الجنسي، وإلى تأثيرات المعرفة في مجالات واسعة جداً كالطب أو الضمان الاجتماعي أو الجريمة.

تهدف هذه الصراعات المحددة التي يصفها فوكو في محاضراته عام ١٩٧٧ بـ «كوليج دو فرانس» بشكل أساسي إلى مواجهة أشكال الحوكمة التي تنمو في مجتمعاتنا. ويشكل هذا الموضوع الامتداد الطبيعي للاهتمام الذي طالما علّقه على المؤسسات الاجتماعية الأساسية التي



هو اقتصاد ثروات مادية، بل إقتصاد حياة». والواقع أنَّ إيوالد، مثله مثل فوكو تماماً، لا يرى في ذلك مجرد امتداد لسلطة تأديبية ماضية، بل على العكس يرى إليه شكلاً جديداً من التنظيم، فيشير إلى «أن وجه الرعاية الشامل الوجود، هو الوجه الذي تُقدّم به الدولة نفسها. هذا هو نمط السلطة الذي يتطوّر». وبالتالي فإنّ القلق المرتبط بالشك، وبانعدام الأمن هو الأساس الذي يستند إليه اندماج الناس في الدولة ومراتبها المختلفة، والذي بموجبه «يقبلون كل شيء: الضرائب، والتراتب الهرمي، والإذعان، لأن الدولة هي الضامنة وهي الحماية ضد انعدام الأمن». والحقيقة أنه خلف هذه الحماية الموهبة، تهدف هذه المؤسسات بوضوح إلى تأمين استمرارية السلطة، وإلى «مراقبتنا يوماً بيوم»، وتطبيع السلوكيات والهويات التي تنتجها. وبالتالي فإنّ هذه الهويات التي فبركتها الدولة الحديثة والتي «استوعبت السلطة الرعوية المسيحية كأداة لتوجيه الحياة» هي التي أصبحت بنظره رهانه الأساسي. وكما يكتب، «منذ ستينيات القرن الماضي، تشكّل الذاتية، والهوية، والفردية مشكلة سياسية كبرى» وينبغي علينا بالتالي أن نعطي الأولوية لتغيير «ذاتيتنا، وعلاقتنا بذواتنا».

إننا بحاجة إلى اقتصاد لا يكون قائماً على الإنتاج وتوزيع الثروات بل إلى اقتصاد قائم على العلاقات السلطوية.

مطلع ثمانينيات القرن الماضي، بدا واضحاً لفوكو أنَّ الأمور لم تعد تتعلق إلى حد كبير بإعادة توزيع الثروات، فلم يتردد في الكتابة «يمكننا القول إننا بحاجة إلى اقتصاد لا يكون قائماً على الإنتاج وتوزيع الثروات، بل إلى اقتصاد قائم على العلاقات السلطوية». يتعلق الأمر بالصراعات ضد السلطة «بما هي تستغل الناس اقتصادياً»، أقل منه بالصراعات ضد السلطة في الحياة اليومية المتجسدة في الحركة النسوية، وتحركات الطلاب، والمعتقلين، و«البدون» إلخ. في هذا «النضال ضد السلطة» في الحياة اليومية يتعلق الأمر بالأحرى بـ«رفض» السلطة. لهذا النقل في التركيز عواقب على مستوى الأهداف السياسية التي يدافع عنها فوكو وعلى مستوى رفضه المتنامي للاستراتيجيات الاشتراكية والشيوعية القديمة، بالنسبة إليه، «ليس هدف هذه الحركات جميعها هو نفسه هدف الحركات السياسية

❖

في العام ١٩٦٥، شارك فوكو في برنامج تلفزيوني بعنوان «تعليم الفلسفة» لطلاب الصف الثانوي الثالث بإدارة الفيلسوفة دينا درايفس التي كانت حينها مفتشة أكاديمية. الموضوع كان «الفلسفة والحقيقة».

التاريخ هذا الوضع الذي لم يعد يتعلق باستغلال البعض من قبل البعض الآخر، إنما يجمع أشد الفئات حرماناً من قبل المجتمع المحيط بها ككل؟».

وتجدر الإشارة إلى التقارب الكبير مع المسائل التي يطرحها فوكو نفسه في دفاعه عن الفكرة القائلة بضرورة «تقديم نقد للنظام يفسر الآلية التي يعمد المجتمع الحالي من خلالها إلى تهميش شريحة من المجتمع» بالنسبة إلى حركة ATD، كما بالنسبة إلى فوكو «الحقبة الأخيرة من حياته»، «فإن تحويل نظام الإنتاج أو نظام الاستحواذ على وسائل الإنتاج لن يحمل حريات وفرصاً أكثر مساواة للجميع. ولن يغير الظروف التي تعيش فيها الشريحة الأكثر فقراً من السكان، ما لم يتوفر، في الوقت عينه، حد أدنى من حقوق الإنسان تسمح لهذه الشريحة بالخروج من حالة الإقصاء». في الحصييلة، ليست تهدف سياسات التضامن الكلاسيكية إلا إلى «إعادة توزيع الأوراق على المشاركين في اللعبة»، كما أنها ليست تقارب معالجة أوضاع المنبوذين. تكمن المشكلة بشكل خاص في أن هذه المجموعة الاجتماعية «المكبلة بقيود الإقصاء»، هذا «الشعب التجاهل، الساعي دوماً إلى التجمع والمشتت باستمرار»، لا يحظى بأي تمثيل خاص به، ولا بأي هوية. وهذا «الشعب المنبوذ» من «التضامن العمالي» ومن «الضمان الاجتماعي» هو إذاً في «وضع جمعي مميز» يتطلب بالتأكيد أدوات هي ذاتها مميزة تتجاوز مسألة إعادة التوزيع الاجتماعي.

ليس هذا موضع بحث سياسي فحسب إنما هو موضع بحث رمزي في الوقت عينه، إذ إنه يهدف إلى فرض الاعتراف، من خلال مجموعة مفاهيم محدّدة جداً، بوجود مجموعة اجتماعية جديدة لم تعد تتجسّد فيها الشبكة التقليدية للصراع الطبقي. ومن خلال وجوده السياسي والرمزي بذاته، يقلب هذا العامل الجديد المفترض الإشكاليات السياسية التقليدية ليسار رأساً على عقب. وهو لن يحوّل وصفات مكافحة مظاهر اللامساواة وحسب، إنما سوف يحوّل أيضاً مفهوم اللامساواة العدالة الاجتماعية ذاته. إن هذا التركيز على هذه الشرائح من الأجراء والأهمية التي يتخذها في المناقشات العامة، سوف يمنح «النقد الاجتماعي» تأثيرات سياسية دائمة. الواقع أنه لن تعود اللامساواة بشكل عام هي المشكلة، إنما الشكل الذي تتخذه تلك اللامساواة بالنسبة إلى بعض الفئات الاجتماعية. وهكذا، مع أننا نستطيع التفكير منطقياً بأن أيّاً من هؤلاء الكتاب لم يتوقع ذلك، إلا أنه لن يعود في وسعنا التغاضي عن تأثيرات مقاربتهم، وتحليلاتهم، وهم قد وضعوا في صلب تفكيرهم

أو الثورية التقليدية: لا يتعلق الأمر بتأثيراً باستهداف السلطة السياسية أو النظام الاقتصادي». لقد ولّى زمن «المعارك السلطوية والمؤسسية الكبرى»، ينبغي من الآن فصاعداً

إن تحويل نظام الإنتاج لن يحمل حريات وفرصاً أكثر مساواة للجميع. ولن يغير الظروف التي تعيش فيها الشريحة الأكثر فقراً من السكان. ما لم يتوفر في الوقت عينه حد أدنى من حقوق الإنسان.

النضال من أجل «زعزعة استقرار آليات السلطة» ورفض الصيغ كافة التي تهدف إلى تنميط تصرفات الأفراد وهوياتهم. وكما يكتب، «هدف هذا النوع من المقاومة والنضال موجه بالأساس إلى وقائع السلطة بحد ذاتها، أكثر بكثير منه إلى أي شيء كالاستغلال الاقتصادي، وأكثر بكثير منه أي شيء كاللامساواة. وترتبط هذه الصراعات بواقع أن ثمة سلطة قيد الممارسة، وبأن مجرد كونها قيد الممارسة أمر لا يطاق بذاته». ومع أن فوكو لا ينظر نظرة معيارية بشكل أساسي إلى هذه التطورات التي يراقبها، فهو يبدو مقتنعاً بأن هذه الحركات تحل في الواقع محل نضال ضد الاستغلال فات أوانه.

محاربة النبذ لا اللامساواة

إن فكرة «النهاية» للنضال ضد الاستغلال ومظاهر اللامساواة لصالح تركيز أكبر على إعادة توزيع السلطة قد لقيت صدى مذهباً لدى جمعيّات عديدة تناضل من أجل «المنبوذين» ولكسب الاعتراف بـ «خصوصية» و «مشاركة» هذا الفاعل السياسي الجديد قيد التحول. وتتمحور هذه العناصر الفاعلة والحركات السياسية أكثر فأكثر حول فكرة أنه سينشأ، على هوامش الأجراء، مجموعة متزايدة من المنبوذين من أنظمة العمل السائدة ومن دولة الرعاية الاجتماعية. ومن بين هذه المجموعات، يمكننا أن نشير إلى الأهمية المركزية لحركة «ATD» (إغاثة لكل استغاثة - العالم الرابع)، التي تنشر منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، على نطاق واسع، فكرة بروليتاريا دنيا ملقاة إلى هوامش كل أنظمة الأجر السائدة. وتحدث الجمعية عن «شعب من دون هوية ولا حياة عامة» ينبغي منحه الحق في الوجود السياسي. هذه المسألة الجديدة تنقل الخطوط النظرية التقليدية من خلال التساؤل «كيف حصل أن يستمر عبر

الآليات التي تعيد توزيع آثار اللامساواة عوضاً عن تلك الآليات التي تنتج اللامساواة بحد ذاتها.

وهكذا سنتشهد سبعينيات القرن الماضي انتشار الكتب والمقالات التي تتبنى هذا النوع من التعارض والتي تعيد تشكيل مجموع الفرضيات الاجتماعية التي يستند إليها عمل السياسات الاجتماعية. يُذكر في هذا السياق كتاب رينيه لونوار بعنوان «المنبوذون: واحد من كل عشر فرنسيين». تفسح هذه الدراسة حيزاً واسعاً لمن يعانون صعوبة في التكيف اجتماعياً، وللمعوقين جسدياً وعقلياً، وللأشخاص الذين يعانون أمراضاً نفسية - جسدية، ولمدمني المخدرات، والمصابين بالعصاب، والمجرمين، فتلفت إلى أن «شريحة المهتمشين تتسع». بالمقابل كان صدى هذه المقالات والكتب المتعددة سيئاً نوعاً ما في الحلقة السياسية اليسارية وخير شاهد على ذلك شخصيات على غرار جان ميشال بيلورجي، وهو نائب اشتراكي سابق غالباً ما يوتى على ذكره بصفته أحد آباء «الدخل الأدنى للإدماج» RMI، الذي ما كان يتردد في الإشارة عام ١٩٨٨ إلى أن «مفاهيم الفقر، والنبذ، والتهميش الاجتماعي ما كانت يوماً تلقى القبول في صفوف اليسار». ويوضح أن مفكري اليسار «لم يكفوا يوماً، على مرّ السنين، عن أن يروا في تلك المفاهيم أسلحة إيديولوجية لليمين لحجب ظاهرة استغلال العمال، ومسؤولية النظام الاقتصادي الرأسمالي عن ذلك». وهكذا، مع أن بيلورجي يدافع أيضاً عن وجود سياسة محدّدة وقيام نظام مواز للضمان الاجتماعي من أجل «الفقراء» و«المنبوذين» الآخرين، إلا أنه لم يكن يتردد في الاعتراف بأنّ مقارنة مماثلة «لا تخلو من السلبيات، حيث إنّها بطبيعتها تضمن نبذ أشكال عادية من التضامن بين شريحة كبيرة من الطبقات الاجتماعية المهمشة».

وهذا الخوف الذي يتحدث عنه بيلورجي جيداً، بعيداً عن أن يتعرّض للإغفال، يبدو أنّه تجسّد وقد أحل - «سياسات مكافحة النبذ» أو «مكافحة الفقر» محل سياسات النضال ضد اللامساواة، وتوسّع الضمان الاجتماعي والحفاظ على الحق بالعمل. وكما لاحظت كوليت بيك جيداً، هذا البناء السياسي البطيء لـ «شعب» منبوذ وللسياسات التي سوف يكون هو موضوعها قد «أسهم في إرساء أساس نظري وإطلاق المسألة الاجتماعية في ما يتعلق بعمليات الإنتاج والفقر في عالم العمل ذاته». كانت نهاية النضال ضد مظاهر اللامساواة من خلال الضمان الاجتماعي والدعوة إلى نظام جديد تُهيئان لبداية الهجمات النيوليبرالية ضد الدولة الاجتماعية وأنظمة الضمان الاجتماعي المطبقة.

الاضمحلال النيوليبرالي للدولة

في ما يخص هذه المسألة، لا ينحصر تحليل فوكو بمشكلة إقصاء المهتمشين عن تقديرات الضمان الاجتماعي وبأشكال الهيمنة التي ينتجها هذا الأخير، إذ يبدو أيضاً أنّه يتبنى الملاحظات الليبرالية جداً عن الضمان الاجتماعي، الناشئة للتوّ في فرنسا. بيد أنّ هذا التطور سيجد حلغاء له في ما سوف يسمى «اليسار الثاني» الفرنسي، وهو تيار أقلوي لكنه نافذ جداً في الإشتراكية الفرنسية يجمع بشكل خاص الحزب الإشتراكي الموحد، بقيادة ميشيل روكار، والاتحاد الديمقراطي الفرنسي للعمل، وهو اتحاد نقابي بارز. ونجد أيضاً شخصية مثال بيار روزانفالون الذي يقدر فوكو أعماله، المنجذب إلى مناهضة الدولة والرغبة في «تقليص أو إلغاء دور الدولة في المجتمع الفرنسي».

وهكذا يكرر بإخلاص نسبي الاعتقاد الشائع راجعاً في أن يرى في الضمان الاجتماعي نظاماً ذا «صلابة متزايدة» قد تكون له تأثيرات سلبية على ديناميكية الاقتصاد، وتأسيس الشركات، ويذكر بشكل خاص، بدون أن يأخذ مسافة منه حقيقة، تقريراً يعود إلى عام ١٩٧٦ نُشر في «المجلة الفرنسية للقضايا الاجتماعية»، يرى بأنّ الضمان الاجتماعي «سوف يرفع كلفة العمل ارتفاعاً كبيراً» وسيكون مسؤولاً جزئياً عن البطالة. وفي ما يتعلق بالإنفاق على الصحة، يعتبر رأي فوكو أوضح وأقرب إلى رأي الليبراليين الجدد، بعيداً عن تأييد غير مشروط للنظام، تجده ينتقد بشدّة كلفته. فيقول، إن كانت الحاجات في المجال الصحي لم تعد قابلة لقياس الكمية أو الحصرية، «فليس من الممكن تعيين موضوعي لقاعدة نظرية وتطبيقية، صالحة للجميع، يمكننا القول انطلاقاً منها إنه قد تمت تلبية الحاجات المرتبطة بالصحة بشكل كامل ونهائي». تقوده هذه الملاحظة، التي تعيد إنتاج الحجج التقليدية لمعارضتي أنظمة العناية الصحية العمومية، إلى الاستخلاص أنّه من «الواضح أنّ التحدث عن «الحق في الصحة» لا معنى له أبداً». من هنا يذهب فوكو بطبيعة الحال إلى طرح تساؤل لمعرفة ما إذا كان «المجتمع ينبغي أن يسعى، من خلال وسائل جماعية، إلى تلبية الحاجات الصحية للأفراد؟ وهل يستطيع هؤلاء المطالبة قانونياً بتلبية هذه الحاجات؟». ومع أنه يحرص على الاستدراك مباشرة «غنّي عن القول أنني لا أدعو إلى أي لون من الليبرالية المتوحشة، تفضي إلى تغطية صحية فردية لمن يملكون الوسائل لذلك وإلى انعدام التغطية الصحية



❖

ميشال فوكو مع
جان - بول سارتر
وأندريه غلوكسمان
خلال تظاهرة في
باريس في السابع
والعشرين من
تشرين الثاني /
نوفمبر ١٩٧١
احتجاجاً على
الجريمة العنصرية
بحق الشباب
جلال بن علي



«مشاركة» أكبر للمستفيدين من الضمان الاجتماعي لكي يتحمل كل واحد منهم مسؤولية خياراته الخاصة مع أن الدقة تتطلب دائماً وبداية القيام بتحليل استرجاعي، إلا أن خطابه القليل التلاوين منحاز في أقل تقدير.

إن أفكار فوكو المتعلقة بالمساءلة، وانتقاد البيروقراطية، وبالفاعلية، وإدارة الأكلاف، مع الغموض الذي يلفها، سرف تقود بعض الكتاب إلى أن يروا فيه نوعاً من بشير بـ«الطريق الثالث» الذي دعا إليه [رئيس وزراء بريطانيا الأسبق] أنطوني بلير. وكما أشار خوسيه لويس مورينو بيسستانيا، «يبقى لدى فوكو في النهاية جزء كبير من النقد الثقافي الليبرالية وبرنامج أقرب إلى ديمقراطية اشتراكية ليبرالية جداً - تتقبل الرأسمالية باعتبارها واقعاً لا مفر منه، وترى أن الدولة لا يمكنها أن تنتج إلا المزيد من البيروقراطية وأن دولة الرعاية، بعيداً عن أن تكون شرطاً للمواطنة الحقيقية، تغرق الفرد في علاقات تبعية». ولم يتردد كولن غوردن، أحد أبرز مترجمي أعمال فوكو والمعلقين عليها على العالم الأنكلوسكسوني، في التصريح بأن «بعض صياغات بيل كلينتون ويطوني بلير عن «الطريق الثالث» فضلاً عن «الديمقراطيين الجدد» تجسد جزءاً من العملية التي يبدو أن فوكو كان يتحدى الاشتراكيين للانكباب عليها: الدمج الاختياري لعناصر من خطاب النيوليبرالية واستراتيجيتها في ديمقراطية اشتراكية خضعت للمراجعة والإصلاح».

ومع أن فوكو لا يتحدث أبداً بشكل واضح عما يُفترض أن يكون هذا الشكل من الحوكمة الاشتراكية الحقيقية، لا بدّ من الإشارة إلى أنه بدا منجذباً بشدة إلى بديل دولة الرفاه الذي اقترحه ميلتون فريدمان عام ١٩٦٢ عن «الضريبة السلبية» في كتابه الشهير «الرأسمالية والحرية» ثم بشكل موسّع أكثر في كتابه «حرية الاختيار» العام ١٩٨٠. علماً أنه سوف يصار إلى تبني هذه الصيغة على نطاق واسع، وبأشكال مختلفة منذ ثمانينيات القرن الماضي، من قبل هذا «اليسار الجديد» الليبرالي جداً من خلال المطالبة بالدخل الشامل.

الضريبة السلبية وسيلة للتحرر
ازاء العيوب الكثيرة جداً التي يتضمنها النظام الكلاسيكي للضمان الاجتماعي، بدا فوكو مهتماً بمشروع استبدال هذا الأخير بنظام ضريبة سلبية. الفكرة بسيطة نسبياً، وتقضي بأن تقدّم الدولة مخصصات لكل شخص دون سقف اجتماعي معين، لم يعد الأمر يتعلق

بالنسبة إلى الآخرين». ومع ذلك فالواضح بالنسبة إليه هو أنه «من المستحيل في أي حال من الأحوال، السماح بتزايد النفقات في هذا البند بالوتيرة التي كان يتزايد فيها خلال السنوات الأخيرة». وفي مقال نُشر عام ١٩٧٦، يتبنّى الحجة النيوليبرالية الكلاسيكية التي تفيد بأن الرعاية الاجتماعية (وبشكل خاص في الحقل الصحي) تعني عملياً إعانة الفقراء للأغنياء باعتبار أن الأغنياء هم أكثر المستفيدين من مختلف الخدمات المقدمة. ويوضح قائلاً، «إنّ التحولات الاجتماعية التي كنا نأمل أن تحققها أنظمة الضمان الاجتماعي لا تنجز الوظيفة المتوقعة منها [...] فالأكثر ثراءً ما زالوا يلجأون بمعدل أكبر بكثير من الأكثر فقراً إلى الخدمات الطبية. وهذه هي الحال في يومنا هذا في فرنسا. وفي المحصلة، يدفع المستهلكون الصغار الذين هم في الوقت عينه الأكثر فقراً، من خلال اشتراكاتهم، ثمن الاستهلاك المفرط للأكثر ثراءً».

وهذه الحجة التي عمّمها ميلتون فريدمان على نطاق واسع في مؤلفه الصغير بعنوان الحق في الاختيار، ولا بدّ أنه قد لفت نظر فوكو، تفيد عادة في الاعتراض على أي شكل من الخدمات الشاملة الممولة من قبل الجمهور باعتبار أن هذا النوع من الأنظمة يفضي دائماً، بحسب فريدمان، إلى انتقال من الأكثر فقراً نحو الأكثر ثراءً. وغني عن القول إن حجة فريدمان تهدف بشكل أساسي إلى الترويج للأنظمة الصحية الخاصة.

يتبنّى فوكو الحجة النيوليبرالية الكلاسيكية التي تفيد بأن الرعاية الاجتماعية تعني إعانة الفقراء للأغنياء لأنهم أكثر المستفيدين من مختلف الخدمات المقدمة.

أخيراً، يشير فوكو أيضاً إلى أنّ الضمان الاجتماعي «أيّاً كانت تأثيراته الإيجابية» - على الرغم من أنه لا يأتي على ذكرها أبداً - له أيضاً «تأثيرات سلبية» من بينها الإبقاء على «بعض آليات التبعية وحالاتها». عند الحد الفاصل بين نقد نيوليبرالي ونقد موروث عن أحداث أيار/مايو ١٩٦٨، يعطي فوكو الأولوية للتحرر والاستقلالية عوضاً عن المساعدة، ويجادل بأن «ما كان ينبغي أن نتوقعه من هذا الضمان الاجتماعي، هو أن يعطي لكل فرد استقلالته تجاه مخاطر ومواقف تقلل بحكم طبيعتها من مكانته أو أن تخضعه إخضاعاً». ويدافع بذلك عن

بالتفريق بين الأشخاص العاملين والعاطلين من العمل، والمستحقين وغير المستحقين، يتلقى الجميع، دون حد معين من الدخل، مبلغاً إضافياً من الحكومة. والهدف بالتالي هو التأكد، بمعزل عن أي مستلزمات إدارية، من ألا يعيش أي شخص دون حد أدنى من مستوى المعيشة. وبالمطبع، كان هذا الرأي يتمشى بالنسبة إلى ميلتون فريدمان، مع نهاية الخدمات العامة. فبالنسبة إلى أتباعه، يُفضل تقديم الدعم إلى الأفراد مباشرة عوضاً عن تقديم الخدمات الجماعية.

ازاء العيوب الكثيرة جدا التي يتضمنها النظام الكلاسيكي بدا فوك وهتما بمشروع استبدال هذا الأخير بنظام ضريبة سلبية

في فرنسا، ظهر هذا الجدل منذ العام ١٩٧٤ في كتاب ليونيل ستوليرو بعنوان الانتصار على الفقر في البلدان الغنية. وتجدر الإشارة إلى أن فوك نفسه صادم ستوليرو، مرات عدة، عندما كان المستشار التقني لمكافحة الفقر في مكتب [الرئيس الفرنسي] فاليري جيسكار ديستان. يدعو ستوليرو إلى إصلاح جذري للضمان الاجتماعي الذي يشبهه بمصفاة مثقوبة. ويذكر في كتابه حجتين لذلك. أولاً، سيسمح هذا النظام بالتصدي مباشرة لتأثيرات الفقر (من خلال دفع المخصصات) بدلاً من المناقشة غير الفعالة لأسباب الفقر (أي تعيين من هو الفقير المستحق ومن ليس كذلك). ثم يسير ستوليرو في الاتجاه ذاته لميلتون فريدمان، ليقدم حاجة فلسفية عميقة، تميز بين سياسة تسعى إلى تحقيق المساواة (الاشتراكية) وسياسة تسعى ببساطة إلى القضاء على الفقر من دون التطرق إلى الفروقات بين الطبقات (الليبرالية). فبالنسبة إليه، «يمكن للعقائد [...] أن تحت على التمسك بسياسة تهدف إلى القضاء على الفقر، أو على سياسة تسعى إلى سد الفجوة بين الأثرياء والفقراء». وهذا ما يسميه «الحد الفاصل بين الفقر المدقع والفقر النسبي». الحالة الأولى تقود ببساطة إلى مستوى معيشة يحدّد عشوائياً (وهنا تطبيق الضريبة السلبية)، وتقود الثانية إلى الفروقات العامة بين الأفراد (وهو ما يتصدى له الضمان الاجتماعي والدولة الاشتراكية). ويرى ستوليرو أن «اقتصاد السوق

قادر على استيعاب تدابير لمكافحة الفقر المدقع» لكنه «عاجز عن استيعاب علاجات قوية جداً لمكافحة الفقر النسبي». لذلك فهو يعتقد، كما يقول، «أن التمييز بين الفقر المدقع والفقر النسبي هو في نهاية المطاف تمييز بين الرأسمالية والاشتراكية». بالتالي فإن رهان الانتقال من أحدهما إلى الآخر رهان سياسي: القبول بالرأسمالية كشكل اقتصادي سائد أو عدم القبول بها.

ويبدو فوك منجذباً بشكل جلي إلى الحجج التي يقدمها عالم الاقتصاد هذا وهو يخصص مساحة كبيرة من محاضراته بعنوان «ولادة السياسة الحيوية» للضريبة المقترحة من قبل ستوليرو. ومع معظم المحاضرة التي يلقيها يتأرجح بدقة، كما يلاحظ بستانيا، «بين التحليلات والتقييمات الإيجابية»، يبدو المقطع الذي يتطرق فيه إلى الضريبة السلبية إيجابياً نسبياً. وهي تحديداً هذه اللاانتقائية في معايير التوزيع التي تروق بشكل خاص للفيلسوف. فيبدو هذا النظام بنظره رداً على الحوكمة وعلى أشكال تنميط السلوك التي تفرضها المؤسسات المركزية والدولتية القديمة. فيلاحظ «قليلاً ما يهم هذا التمييز الشهير الذي سعت الحوكمة الغربية لوقت طويل إلى إقامته بين الفقراء الصالحين والفقراء السيئين، من لا يعملون بمحض إرادتهم ومن هم من دون عمل لأسباب خارجة عن إرادتهم. في نهاية المطاف، نحن لا نأبه وينبغي ألا نأبه بمعرفة سبب وقوع أحد ما دون مستوى اللعبة الاجتماعية؛ سواء كان مدمناً على المخدرات، أو عاطلاً من العمل بمحض إرادته، نحن لا نأبه لذلك إطلاقاً. تكمن المشكلة الوحيدة في معرفة، أيّاً تكن الأسباب، ما إذا كان فوق الحد الأدنى أم لا». بالتالي سوف يسمح النظام الجديد بمساعدة مجموعة السكان «المتأرجحة» أو الفائضة عن سوق العمل «باتباع نمط ليبرالي جداً، وأقل بيروقراطية بكثير، وأقل انضباطية بكثير من نظام يتمحور حول العمالة الكاملة ويعتمد آليات كآليات الضمان الاجتماعي». وبفضل آلية ترفض أي تمييز بين «الفقراء»، «نترك أخيراً للناس إمكانية العمل، شاؤوا أو أبوا. ونمنح أنفسنا، بشكل خاص، إمكانية عدم جعلهم يعملون، إن لم يكن من مصلحتنا أن نجعلهم يعملون. نحن نضمن لهم ببساطة إمكانية معيشة الحد الأدنى عند عتبة معينة وبهذه الطريقة يمكن أن تشتغل السياسة النيوليبرالية». وهكذا نتجنب كل ما شجبه فوك في مؤلفاته على امتداد السنوات من حيث كافة أشكال السيطرة على الأجساد، وعلى السلوك، والسيطرة على الحياة الجنسية الموجودة

إلى أخرى هو بالضرورة نتيجة تطبيق الفكرة التي تفيد بأنه «إذا لمسنا «الأعلى»، فإننا نلامس صميم الديناميكية الاقتصادية للسوق، أي قدرته على الاستثمار، وعلى الابتكار، وعلى اختيار الاستثمارات»، والقيام بذلك يعني «حرمان الاقتصاد التنافسي من البوصلة التي توجهه والناضض الذي يمنحه طاقة الدفع، وتسليم الدولة مصير الاقتصاد، في أن معاً. وتسليم الدولة مصير الاقتصاد هو ما أسميه الاشتراكية». إن مأل النقاش الذي زجّ فوكو نفسه فيه هو بالتأكيد الخيار بين القبول بالرأسمالية أو القبول بالاشتراكية والحد من مظاهر اللامساواة. في تعريفه الحقبة التاريخية التي يعيشها باعتبارها «حقبة ما بعد ثورية الأساس»، بحسب شهادة إيوالد، يبدو أن فوكو في الحقبة الأخيرة من حياته قد حسم خياره.

خلاصة

تعتبر المسيرة الفكرية لميشال فوكو استثنائية من نواح عدّة. ليس لغناها وحسب إنما أيضاً لتطوّرها المستمرّ ولقدرته على التفكير في مشكلات عصره، بل استباقها. فيبدو بذلك أنّه يجسّد دائماً روح حقبة، مع بقائه على مسافة منها. سواء خلال انتسابه إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، أو خلال الفترة التي كان فيها ديغولياً، أو خلال تقربه من الماويين، ظل فوكو محاوراً قريباً وبعيداً في آن واحد. على غرار «رفيق الدرب»، لا لحزب وإنما للحقبة زعزعها فكرياً، ظل فوكو متقدماً دائماً على أبناء جيله. غير أنّ فوكو «الأخير» يفاجئنا من خلال تعاطفه شبه المبطن وغير النقدي مع النيوليبرالية الناشئة. ثم إنه في الوقت الذي يرهّص بـ «تحوّل كبير» إيديولوجي وسياسي في آن معاً، بعيداً عن استباق العواقب المقبلة، عمد إلى تشجيعها نوعاً ما باسم استقلالية أكبر وباسم ثورة الفرد ضد البنى المؤسسية و«السرديات الكبرى».

من هذا المنطلق، لم يكن فوكو غريباً، خلال الثلاثين سنة الأخيرة، عن رفض أي نقاش عن مظاهر عدم المساواة، أو عن بدائل الرأسمالية أو عن الأدوات السياسية والمؤسسية التي قد نحتاج إليها للضئال ضد الرأسمالية. كذلك، إنّ التكريس الفكري للنيوليبرالية، جهة اليسار كما جهة اليمين، و«الانقلاب الرمزي» الذي انتهى إلى استبدال مبدأ الرؤية والتقسيم للعالم (هو مبدأ وتقسيم قائمان على مفهومي الطبقات الاجتماعية والاستغلال) بمبدأ آخر (مبدأ التنبذ والفقر) هو جزء لا يتجزأ من التطور الفكري لفوكو (وأخرين غيره). وهكذا يبدو

بقوة والمحجوبة غالباً في سياسات اشتراكية عديدة باسم الحد من مظاهر اللامساواة، فنشعر بالتالي بأنّ فوكو يتعاطف نوعاً ما مع «فضائل النزعة الاقتصادية الأنثروبولوجية للنيوليبرالية». وكما يشير بستانيا في ملاحظته، يرى فوكو أنّ «النيوليبرالية لا تُسقط نماذجها على الفرد: ليس لهذه النماذج أي أثر أدائي كما أنها لا تُسقط أي شكل من أشكال الحياة الطبيعية؛ إن هي إلا إطار من التعقّل لفهم سلوك الفرد».

أن الإستراتيجية التي اختارها اليسار في سبعينيات القرن الماضي قد ولدت هزيمة مزدوجة: فقد فاز اليمين على المستويين الاقتصادي والايديولوجي في أن معاً.

«الكائن الاقتصادي» هو كائن لا تهمة إلا الحسابات المنطقية، فلا يجوز بالتالي الحكم على خياراته من منطلق أخلاقي، إنما ينبغي فهمها ببساطة من خلال مصلحته، ففي نهاية المطاف، ليس للدولة أن تقرر ما على الكائن أن يفعله بأمواله (الصحة، والتعليم، والاستهلاك)، هو وحده من يقرر ذلك خارج أي حكم معياري. وهكذا تجعل النيوليبرالية في النهاية «الأفراد مسؤولين عن حياتهم من دون أن يُفرض عليهم أي نموذج أنثروبولوجي محدد. [...] على الأفراد ألا يخضعوا لأي قاعدة في ما يتعلق بطريقة العيش أو الحب أو التسلية، عليهم ببساطة أن يضمنوا الوسائل الذاتية والموضوعية التي تحوّلهم تحقيق ذلك»، إن استطعنا أن نفهم الحماسة التي شعر بها فوكو حيال فكرة إقامة نظام ذي رسالة عالمية، لكن ثبت أن التاريخ قد عاكس كتاباته. إنّ واجب العمل لم يتعزز وحسب مع ظهور الرفاه الاجتماعي، لكن التسويد المذهل للسلوكيات وأنماط العيش الذي ولدته العقلانية النيوليبرالية لم يحرر بالفعل الأفراد من أي معيارية. في النهاية، يبقى فوكو غامضاً في ما يتعلق بكيفية الانتقال من سياسة تهدف إلى الحد من مظاهر اللامساواة نحو نضال بسيط ضد الفقر، مع أن الواضح عنده أنّ «هذه الضريبة السلبية هي، كما ترون، طريقة تتجنّب كل ما له علاقة بالسياسة الاجتماعية، وبمفاعيل إعادة التوزيع العامة للمداخيل» وهي نتيجة لذلك «التقيض تماماً للسياسة الاشتراكية»، ليبقى من الصعب نسبياً معرفة حكمه في هذه المسألة. لكنه لم يتمكّن من إغفال المهمة التي صاغها ليونيل ستولبرو أياً صياغة في كتابه. فالانتقال من سياسة

أخلاقية بكثير، من أجل إعادة توزيع الثروات. «يُقاس انتصار الليبرالية أيضاً بالنظر إلى العمق الاستثنائي الذي مكنها من التسلل إلى الرؤى المتعارضة للعالم وإعادة تشكيلها بشكل سافر، غالباً دون أن ننتبه لذلك»، على ما ذهب ستيفانو إزارا. وهكذا، بعيداً عن الانتصار على خصمها في مباراة حتى الموت، غالباً ما كسبت النيوليبرالية خصمها لتبني أفكارها الخاصة وعلى حسابه. وهكذا يتبين أن قصة ما سمّاه فرانسوا كوسيه «الكابوس الكبير لثمانينيات القرن الماضي» أكثر تعقيداً مما بدا أنها قد تسرّبت كما يبدو في الزوايا الأقل توقّعاً على الإطلاق. بات من الضروري من الآن وصاعداً إعادة بناء فكرية وسياسية لمشروع مساواتي من دون توفير انتقاد لكل هذه «الزوايا» التي تخلى عنها اليسار إلى العقيدة المهيمنة.

أنّ الإستراتيجية التي اختارها هذا اليسار في سبعينيات القرن الماضي، محولاً خطابه نحو «ذرات» من الأجراء وضد «الدولة» و«المفهوم المركزي للتحوّل الاجتماعي»، قد ولدت هزيمة مزدوجة: فقد فاز اليمين على المستويين الاقتصادي والأيديولوجي في آن معاً. الهزيمة على المستوى الاقتصادي، لأنّ تراجع أشكال التدخل «الاشتراكية» وتنظيم الدولة لم يفض إلى استقلالية أكبر وحرية أكبر للفرد. والهزيمة على المستوى الأيديولوجي لأنّ الفكرة القائلة بوجود النضال ضد آثار اللامساواة (النبد، والفقر، والتهميش المدني الخ.) قد تجسّبت إلى حد كبير مناقشة اللامساواة ذاتها مع الاكتفاء بالنضال من أجل المساواة في الفرص. في المحصلة، عززت سياسة الهوية و«الثورات السلوكية» من نضال إنساني مغال من أجل «الاحترام»، و«الاندماج»، و«العيش الكريم»، على حساب نضالٍ أقل

المراجع:

Stephano C. Azzara, *L'humanité commune*, Delga, Paris, 2011.

Colette Bec, *La sécurité sociale. Une institution de la démocratie*, Callimard, Nrf, Paris, 2014.

Michael C. Behrent, «Accidents Happen: François Ewald, the «Antirevolutionary» Foucault, and the Intellectual Politics of the French Welfare State», *The Journal of Modern History*, 82, September 2010.

Michael C. Behrent, *Penser le xxe siècle avec Michel Foucault, Colloque Foucault et les Historiens*, École des hautes études en sciences sociales, le 14 juin 2013. Texte non publié.

Jean-Michel Belorgey, *La gauche et les pauvres*, Syros Alternatives, Paris, 1988.

François Ewald, *L'Etat providence*, Grasset, Paris, 1986.

François Ewald, «Foucault et l'actualité», *Au risque de Foucault*, éd. Dominique Franche et al., Paris, 1997.

Michel Foucault, «La philosophie analytique de la politique», juin 1978, *Dits et écrits*, vol. II., 1976-1988, n°232, Callimard, Paris, 2001.

Michel Foucault, «Méthodologie pour la connaissance du monde: comment se débarrasser du marxisme», 25 avril 1978, *Dits et écrits*, vol. II., 1976-1988, n°235, Callimard, Paris, 2001.

Michel Foucault, «Le grand enfermement», mars 1972, *Dits et écrits*, vol. I., 1954-1975, n°105, Callimard, Paris, 2001.

Michel Foucault, «Sur la justice populaire. Débat avec les maos», juin 1972, *Dits et écrits*, vol. I., 1954-1975, n°108, Callimard, Paris, 2001.

Michel Foucault, «Méthodologie pour la connaissance du monde: comment se débarrasser du marxisme», op. cit. p. 616.

Foucault, «Les réponses du philosophe», novembre 1975, *Dits et écrits*, vol. I., 1954-1975, n°163, Callimard, Paris, 2001.

Michel Foucault, *Sécurité, Territoire, Population, Hautes Etudes*, Callimard, Paris, 2004.

Michel Foucault, «Un système fini face à une demande infinie», 1983, *Dits et écrits*, vol. II., 1976-1988, n°325, Callimard, Paris, 2001.

Michel Foucault, «Foucault étudie la raison d'Etat», 1980, *Dits et écrits*, vol. II., 1976-1988, n°280, Callimard, Paris, 2001, p. 856.

Michel Foucault, «Sexualité et politique, mai 1978», *Dits et écrits*, vol. II., 1976-1988, n°230, Callimard, Paris, 2001.

Michel Foucault, *Michel Foucault: La sécurité et l'Etat*, Novembre 1977, dans *Dits et écrits*, vol. II., 1976-1988, n°213, Paris, 2001, p. 385.

Michel Foucault, *Naissance de la biopolitique*, Hautes études, Callimard, Paris, 2004.

Michel Foucault, *Crise de la médecine ou crise de l'antimédecine?*, dans *Dits et écrits*, II., 1976-1988.

Michel Foucault, *A propos de la gouvernementalité (Les leçons 78/79)*. Une discussion avec Colin Gordon, traducteur, rédacteur et commentateur des écrits de Foucault, co-auteur de *The Foucault effect* (1991) avec Graham Burchell.

Milton Friedman, Rose Friedman, *Free to Choose. A Personal Statement*; John Gerassi, *Entretiens avec Sartre*, Grasset, Paris, 2011.

André Corz, *Adieu au prolétariat*, Calilée, 1980.

René Lenoir, *Les exclus. Un Français sur dix*, Seuil, Paris, 1974.

Herbert Marcuse, *Vers la libération*, Minuit, Paris, 1969.

Mouvement ATD quart monde, *Livre blanc: le sous-prolétariat en Belgique*, Bruxelles, juin 1977.

Frédéric Panier, *Pour une historicisation de l'exclusion: Les raisons sociales du succès d'un quasi-concept*, Louvain, 2004. Texte non publié.

François Perroux, Herbert Marcuse, *François Perroux interroge Herbert Marcuse...qui répond*, Aubier, Paris, 1969.

José Louis Moreno Pestaña, *Foucault, la gauche et la politique*, Textuel, Paris, 2011.

Pierre Rosanvallon, «L'Etat en état d'urgence», *Le Nouvel Observateur*, 670, Septembre 1977.

Lionel Stoléru, *Vaincre la pauvreté dans les pays riches*, Flammarion, 1974.

Slavoj Žižek, *Après la tragédie, la Farce*, Flammarion, 2009.

ريجيس دبريه في الدين والحدود والأخوة

مارتان لو غرو

صحافي فرنسي،
المقابلة نشرت في مجلة
Philosophie Magazine
العدد ٨١، تموز / آب ٢٠١٤.

♦ العام ١٩٦٠، كان رفاقك في «كلية التربية العليا» ينظرون للثورة. أنت ذهبت إلى أميركا اللاتينية. كيف حصل ذلك؟

■ لا يستطيع أحد أن يقفز فوق زمانه والجو الذي عاش فيه: حرب فيتنام، رواية «عصر الأنوار» لآليخو كاربنتييه، حرب إسبانيا [الأهلية] من خلال فيلم روسيف «الموت في مدريد»، التعب من إعادة التحديق في السيرة لدى الإنجليز الفرنسية، إلخ. وثمة الحافز الماركسي الذي يقول «لم يعد يكفي تفسير العالم، يجب تغييره». كانت هذه كلها حوافز للانتقال من مراقب إلى مشارك. ♦ كيف تم ذلك عملياً؟

■ تم بواسطة جملة من النوادر. عشية الإنزال المعادي لكاسترو في «خليج الخنازير» العام ١٩٦١، قصدت سفارة كوبا برفقة برنار كوشنير وفي نيتنا التطوع في الفيلق الاممية. فوجئ السفير بعض الشيء وهو عازف بيانو. «عوداً غداً»، قال، «سوف نرى ما الذي نستطيع فعله». في اليوم التالي، اختفى الغزو: دحره الكوبيون. قرر كوشنير البقاء في فرنسا. أما أنا فقررت المغادرة. بعد شهرين، حللت في الولايات المتحدة مفلساً، ذات رابع من يوليو/تموز، يوم العيد الوطني الأميركي. ومنها غادرت إلى ميامي عن طريق «أوتو ستوب» حيث استقلت آخر طائرة إلى هافانا، يوم ١٤ يوليو ١٩٦١. سوف أكتشف «عالمًا» قائماً بذاته: غواتيمالين، فنزويلين، أرجنتينيين، كهلم معارضون لاجئون من البر الجنوبي الأميركي. في نهاية ستة أشهر قررت العودة إلى فرنسا، وإلى مقاعد الدراسة في دار المعلمين العليا. ولما كنت قد غادرت دون استئذان، تلقيت لوماً دون أن أطرد، لأنني كنت الأول في امتحان الدخول ولأنني حظيت بدعم من جان هيبوليت، مدير الدار حينها. بقيت في باريس إلى العام ١٩٦٣،

ثم غادرت لعام ونصف العام، بهويتين: واحدة بصفتي مندوباً من مجلة «الأزمة الحديثة» التي يرأس تحريرها جان بول سارتر - وكانت هذه «تغطيتي» - وثانية بصفتي مندوباً أيضاً لمجلة «ريشوليسيون»، التي يرأس تحريرها جان فرجيس. اكتشفت أن الماوية لا معنى لها في أميركا اللاتينية، وأن وحدها حرب الغوار التي يقودها كاسترو لها مستقبل - وهي التي كانت تسمى «الفوكية»، أي نزعة توليد بؤر ثورية متعددة. أمضيت ١٨ شهراً بين فنزويلا والبرازيل بعد وقفة قصيرة في السجن في البيرو. لحسن الحظ أن مدير وكالة الأنباء الفرنسية، وهو صديق لوالدي، نجح في إطلاق سراحني. تلت ذلك مصادفات ولقاءات سمح بها المعتقد الثوري، وهو نوع من الأخوة مبنية على الثقة.

♦ خلال ذلك، نجحت في امتحان التأهيل aggregation؟
■ بل كنت بين الأوائل. لم أصرف وقتاً طويلاً في التحضير للامتحان، وقد أراحني ذلك لأنه أبان لي أن الفلسفة ليست أمراً بالغ الحد، وأنه يمكن النجاح فيها إذا زلّقت في حديثك مفهوماً من هنا ومفهوماً من هناك. بعد ذلك، سجلت ملخصاً عن تجربتي الأميركية اللاتينية في نص نشره سارتر ولازيمان في «الأزمة الحديثة»، وعنوانه «الكاستروية: المسيرة الطويلة لأميركا اللاتينية» وهو موثق ومسنود بطريقة جيدة.

وقع النص بين يدي غيفارا خلال إحدى زيارته للجزائر، فحمله إلى كاسترو الذي تساءل: «من هو هذا الفرنسي الذي يعرف أشياء كثيرة عنا؟». دعاني إلى «مؤتمر تضامن القارات الثلاث» (التريكوتنينتال) بصفتي خبيراً في الثورات، ولم أكن كذلك. هنا وجدني مرتبطاً بالمشاريع التأميرية لتلك الحقبة. اقتفيت أثر تشي في بوليفيا العام ١٩٦٧ حيث اعتقلتني القوات

والتوراة. في السجن اكتشفت أنني فرنسي. وأن الثورة ليست هي وطني في نهاية المطاف. وأنه لا يمكن تجاوز الخصوصيات، وأعتقد أن من لا يغادر وطنه لا يستطيع أن يكون وطنياً. في كل الأحوال، كل «محرري» أميركا اللاتينية، أمثال بوليفار وسان مارتان وميراندا وآخرين، اكتشفوا هويتهم «اللاتينية» في باريس، أي عندما كانوا منفيين، بالمعنى الجذري للكلمة، عندما خرجوا من بيئاتهم. ينطبق عليهم قول جميل جداً لفكتور سيغالين «الداخل ينتظر في الخارج»، من لا يعرف الخارج لن يتعرف إلى الداخل. أدركت أنه في النضالات الوطنية المسماة تحررية، يشكل الأجانب أجساماً غريبة في نهاية المطاف. من هنا إدانتي الغريزية للتدخلات النيوكولونبالية أو المحافظة الجديدة من العراق إلى ليبيا. سوف نهزم دوماً [نحن الغربيين] بما نحن غزاة ومحتلون. باختصار، جعل مني السجن سياسياً ديغولياً يسارياً متطرفاً. وأنا أهوى مثل هذه المعادلات المتضاربة.

◆ ولكنك أيضاً مفكر في انغلاق المجتمعات على نفسها وفي الحدود... لكي تفهم ما الذي يوحد مجتمعاً معيناً، لجأت إلى مفهوم مستمد من الرياضيات، «اللا اكتمال» لكورت غوديل (١٩٠٦-١٩٧٨)، ما القصة؟

■ لم يلهمني غوديل البتة. ساعدني فقط على صوغ أفكار على نحو أفضل. حككت رأسي طوال سنوات وأنا أطلع إلى الحواجز، وأقرأ عن الأساطير التأسيسية للمدن، وأدخن السجائر في «الساحة الحمراء» سابقاً - حيث التدخين ممنوع - أو أتلو في الزنزانة، كل ذلك من أجل أن أكتنه لماذا عندما يكون ثمة انفتاح نحو الأعلى يكون ثمة انغلاق في الأسفل، والعكس بالعكس. الصوفي ينزل. وعندما ترسم حدوداً أو تبتني حِمى أو سوراً، يكون لك «هيكل» templum (من الإغريقية temno، أي «قطع»)، أو تكون لك مساحة يحرم دخولها وإلا يكن عقابه الموت، أي تكن لك روما. لدي مئات الأمثلة المحددة أستشهد لك بها حيث يتم فصل رسم الحدود مع التسامي، وتعيين الانتماء مع تحديد بؤرة مركزية. بعدها عرفت نظريات غوديل، وهي بالغة التعقيد، كما يعرف الجميع، وسوف أمتنع عن تلخيصها، ولكنها تقول هذا تقريباً «لا يمكن بناء أطروحة (ط) تعلن تماسك نظام معين (ن) إذا كانت (ط) تنتمي هي ذاتها إلى (ن)». ليس المجتمع بالنظام المنطقي، بالتأكيد، وإنما بدا لي أن الصياغة من شأنها التمثيل على العلاقة الملتبسة بين الحدود والمقدس، إن شئنا الاختصار.

النظامية للحكومة البوليفية، وحوكمت وصدر بحقي حكم بالسجن لثلاثين سنة، ثم أطلق سراحى بعد أربع سنوات تقريباً بفضل تغيير في نظام الحكم في بوليفيا وحملة تضامن دولية. تسألني عن دوافعي؟ التمرد على البرجوازية التي وُلدت في كنفها؛ فضول تجاه العالم؛ اليقين بأن أوروبا في مآزق وأنه إذا كان من إمكانية لبناء اشتراكية مجدية، فسوف تولد خارج النموذجين الصيني والسوفييتي.

◆ أي نوع من النشاط مارسته في أميركا اللاتينية؟
■ سوف أمتنع عن أن أهذر بالنوادير في مجلة فلسفية راقية ومجدية. من يهتم للأمر يمكنه قراءة كتابي «تبارك سادتنا» والجزء الثاني من «الوقت المطلوب لتعلم الحياة» في منشورات غاليمار. باختصار، كانت الفكرة الأساس هي أن الفعل هو الذي يخلق الظروف الموضوعية لنجاحه، وأنه من المهم أن يتعلم المرء استخدام المتفجرات والرماية على «البازوكا» [المضاد للدروع]. تلقيت تدريباً عسكرياً على تقنيات النضال السري، لكنني لم أضطر إلى استخدام المتفجرات. كل ما قمت به هو استطلاعات على الأرض للعثور على أماكن يمكن للحرب الغوارية أن تتمركز فيها في القارة الأميركية الجنوبية.

◆ ماذا كان رأيك بكاسترو وبالنظام الكوبي؟
■ لم يكن النظام الكوبي يثير اهتمامي. لن تلقى في كتاباتي خلال تلك الفترة تقييمات للنظام الداخلي لكوبا، وبالتأكيد لن تلقى مديحا له. كان النظام الكوبي بالنسبة إليّ قاعدة خلفية، لا نموذجاً، كانت الحصن الذي منه نقاتل النظام الإمبريالي الأميركي الشمالي الذي يدعم كل الدكتاتوريات العسكرية. كان كاسترو رجلاً جذاباً، مثقفاً، يحسن الاستماع. اختلفنا لكنه كان مؤمناً بما يفعل. قامت صداقتنا على الرغبة في إطلاق الثورات في أميركا اللاتينية، نقطة على السطر.

◆ وتشى غيفارا؟
■ هو نقيض كاسترو. لم يكن ذا مزاج استوائي على الإطلاق. كان منكفئاً على نفسه، متخندقاً، منعزلاً، يضع مسافات بينه وبين الآخرين.

◆ هل كان السجن اختباراً للحقيقة؟
■ لنقل كان لحظة حاسمة من لحظات التأمل. كانت المحكمة مهزلة. في الزنزانة، ينتهي اللعب ويتسع الوقت للتعلم في الأشياء. شُح لي بالمطالعة. إلا الكتب السياسية. هذه كانت ممنوعة. فقرأت دون كيوخوت



النهائية مسطحة. إننا محدودون في المكان والزمان. ليكن. في حين أن اللا اكتمال نافر. إنه يتفرّع من الخارج إلى الداخل. وهذا هو ما يلحم خطأ عموديا بخط أفقي، والهناك بالهنا، والغد، أو الماضي، باليوم الحاضر. إن نظاماً مستقرّاً لا يمكن أن ينبني على ذاته. لا تنبني الأخلاق على معطيات الأخلاق؛ يجب أن يتوافر دوماً خط عمودي، عامل جامع، أو يجب أن يتوافر معطى خارجي ليتكوّن خط أصيل/حلولي. إن هذا النقصان الوجودي بمثابة الإعاقة لكنها إعاقة منتجة. إنها مصدر قوة ذلك الكائن الآكل للنباتات واللحوم معاً، منتصب القامة، وهي - الإعاقة - ما قد أعدّ له لأن يسير مرفوع الرأس. ما يقع تحت مدارك الإحساس يحيل إلى غيب يمنحه معناه الحقيقي أكان إلهاً، أم بطلاً مؤسساً، أم فكرة قائدة، أم المجتمع اللاطبقي، أم الإمام الثاني عشر، إلخ. لا يمكن الحديث هنا عن نظرية، الأجدر أن نتحدث عن بداهة أو عن مبدأ/قاعدة. ولا يمكن البيان عن ذلك منطقياً، ولكنك إذا عاينت الوقائع التاريخية، فسوف تلقاه بديهياً. إذا أزلت المرجع المعصوم، يتفجّر البيان من أساسه. لم يقو الاتحاد السوفياتي على البقاء على قيد الحياة بعد نزع صفة القداسة عن لينين. ولن يكتب للولايات المتحدة حياة طويلة إذا ما سقطت تمثال لنكولن عن منصته، جراء حملة تنقيحية تاريخية ما، أو إذا اختفت عبارة «بالله نؤمن» من على الدولارات الأميركية. الديانة الإنجيلية الوطنية، والإله الكونفدرالي، كلاهما عنصر لحم، والقوى النازعة نحو المركز تحول دون اندلاع حروب الأعراق والطبقات، وتسمح بتكوّن فيسفساء. إذا خطر ببال فرنسا أن تسمح للمقدّس الجمهوري تبعها بأن يذوي، سوف تتناسل إلى جماعات تتمي كل منها قداساتها المخصصة، وتدعمها بقوانين استرجاعية. إننا نتعرّف إلى المقدّس عند ما توجد تحريمات وقوانين مانعة، وهذا ما ليس يتطلب قيمة بسيطة.

♦ ألا تخشى في أيامنا هذه انكفاء الأمم على ذواتها؟ في خطابها بمناسبة الأول من أيار/مايو، استشهدت مارين لُ بين بك عن الحدود «الحدود ضرورية للبلد قدر ما البشرية ضرورية لكل إنسان» - وهي بصدد إدانة الخطر الذي يسببه التخلي عن الحدود والهجرة على فرنسا. ما الذي يوحي لك هذا النمط من الاستيعاب؟

■ كان عليها أن تقرأ كتابي «لحظة الأخوة»، ذلك أن الأخوة هي النقيض من وطن الإخاء. الأخوة هي أن تكون عائلة ممن ليسوا بأقارب. إنها تعني استبدال رابطة

•

ريجيس دبريه
خلال توقيفه في
كاميري في بوليفيا
في نيسان/إبريل
من العام ١٩٦٧
(أرشيف - أ ف ب)



من الأخبار صبح مساء. هل تستغربون أن يكونوا متأخرين بشوط أو شوطين عن مسيرة الأشياء. لم يفهموا بعد أن الخريطة الثقافية للكرة الأرضية لم تعد تنطبق مع الخريطة السياسية.

♦ في الخمسينيات، أسست مدرسة فكرية جديدة هي علم الإعلام (الميدولوجيا) التي تهتم بأنظمة الاتصال وأشكال التنظيم الجمعية والمعتقدات.

■ الميدولوجي يهتم بالمسلسلات التي تسمح بصعود فكرة مجردة إلى موقع القوة. لم يهتم ماركس بمعرفة كيف يمكن لفكرة أن تتحول إلى قوة مادية. [عنده] الحقيقي يفرض نفسه لأنه حقيقي. «الدفاثر الماركسية اللينينية» في «دار المعلمين العليا» كانت تحوي على غلافها هذا الاستشهاد «الماركسية جئارة لأنها صحيحة» والتوقيع: لينين. كان ذلك مربعاً لكنه ذو دلالة. بالنسبة إلى هذه الصيغة من المادية التاريخية، البناء التحتي موجود في أسفل، في الإنتاج الاقتصادي، وليس في أعلى حيث المجال الرمزي. تباشر الميدولوجيا عملها يأتي انطلاقاً من التمرد لأنها تجهد لتحطيم الجدار الذي شيدته الإنسانية الكلاسيكية والتراتب الأكاديمي بين الذات والموضوع، الروحي والمادي، النبيل والشرير. في حين أن الغرض هو تزويج الإنسان للآلة، وفرض الثقافة على الثقافة والثقافة على الثقافة. وقد بدأنا ندرك مع الثورة الرقمية أن المدى الإعلامي هو نظام نقل ونظام قيم في الآن ذاته. وعندما تنتقل من مجال الكتابة إلى مجال الفيديو، ومنه إلى المجال الرقمي، لن نلقى بين أيدينا الأجهزة ذاتها، ولا الذهنية ذاتها، ولا العقلية ذاتها ولا القيم ذاتها. ولم يكن للكائن العالم أن يبقى على قيد الحياة لولا هذه الأدوات، وبدون الثقافة لن يعود معنى لفكرة التقدم. بعد المنشار الكهربائي لا يعود الخطاب إلى الفأس، ولن نعود أنا وأنتم إلى التلفزيون الأسود بعد التلفزيون الملون. ولكن بعد ماركس ولينين يمكنكم العودة إلى سيريل وميثود القديسين اللذين نشرا المسيحية بين الشعوب السلافية. شكراً للمهندسين. ولتحي البوليتكنيك ومدرسة الجسور والخنادق. المشكلة أنه يجب إنتاج الجديد وإعادة إنتاج القديم في آن معاً إذا أردنا أن نستمر على المدى الطويل. علينا أن نجيد الابتكار وأن نعرف كيف نرث في آن معاً. «النظام والتقدم» هو الشعار المرفوع على العلم البرازيلي. وفي ظني أن هذا البلد سوف يحقق الكثير، لأنه يتذكر أوغست كونت أفضل منا ويا للأسف.

الدم بروابط المعنى. هي أن تقول لا للحتمية البيولوجية. والأخوة فكرة مسيحية أصلاً، وليس كمثلها فكرة جمهورية، بل اشتراكية. «العائلة المقدسة» عائلة هي معاد تركيبتها: الابن متبني والأب مجرد مانح اسم، والأم رحم مُعارة إلى «الروح القدس». وبهذا المعنى كانت الأخوة فكرة ثورية، تقطع مع إملءات الأنساب والجينات. وفي كل حال، هي ثورة ١٨٤٨ التي وضعت نفسها تحت رعاية «المسيح البروليتاري».

أثرت موضوع الحدود من أجل تظمين الغرب في إطار من احترام كرامته وتفرد، وتذكير الغرب الإمبراطوري بأن ليس له الحق في أن يحسب نفسه في بيته أينما كان في هذا العالم. ويمكن استخدام الفكرة أيضاً لمنح الغرب بشرة.

كل الأفكار الأساسية قابلة للانقلاب. الحدود، على عكس الجدران، لا تميز إلا من أجل أن تلي بطريقة أفضل. أن لا تميز، يعني أن تستيع أو أن تسحق.

♦ تقول «الدين هو لاوعي السياسة». إننا نميل إلى نسيان ذلك. من هنا عمجزنا عن فهم الشرق الأوسط وأوكرانيا.

■ الديني عامل ناظم وهو أكثر زخماً لئرى إليه على أنه عتيق. ما إن يتفكك نظام سيطرة حتى تستيقظ البنى التحتية الدينية والثقافية. هذا تقريبا ما يجري في أوكرانيا اليوم، وما يجري أيضاً في مئة مكان آخر. لن نفهم شيئاً عن أوروبا إن مَحونا خط ريفا - سبليت الذي يفصل العالمين اللاتيني والأرثوذكسي. وقد ارتسمت حدود الانشطار منذ المجابهة بين الكاروليجيين والبيزنطيين. إننا نتجاهل بيزنطة، فنعجز عن فهم موسكو، روما الثالثة. وليس في «المعهد الوطني للإدارة» يمكننا تحصيل مفاتيح الإدراك هذه. الانقسام بين الشيعة والسنة، وهو بخطورة الانقسام بين الكاثوليكين والبروتستانت في القرن السادس عشر، اقتضى الأمر دزينة من السنوات لأن تتنازل وزارة الخارجية وتهتم به، فيما العقيدة الإعلامية السائدة لا تزال قائمة على ثنائية الدكتاتوريات/حقوق الإنسان. كيف يمكن التعامل مع الصين اليوم بمقاييس المحاسب، متغاضين عن التاو وعن كونفوشيوس؟ وكيف التعامل مع الهند وماليزيا وبورما دون معرفة البوذية والهندوسية؟ دعوت أخيراً إلى تعليم الحالة الدينية في المدرسة العلمانية، وكانت النتيجة الفشل النهائي غير المدوي. ... من يستمون أصحاب القرار في بلادنا يقرأون الصحف ويسكرون

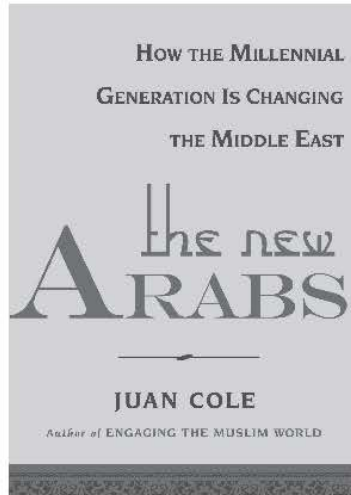
«الإنسان العربي الجديد» ألا لا يجهلن أحدٌ عليه!

صباحي حديدي

كاتب سوري
يقيم في باريس.

ذات يوم غير بعيد، أصيب مارتين إنديك (الذي شغل مناصب عديدة هامة بينها مستشار الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي الأميركي، والسفير في إسرائيل مرتين)، بدهشة بالغة إزاء استطلاعات الرأي العام العربي: عجب هذا البون الشاسع بين الرأي العام العربي وسياسات الحكومات العربية، تساءل إنديك. وكأنه لا يعرف ماذا، ومن، ترعى واشنطن في كراسي حكم العرب! أغلب الظن أنه تجاهل، أيضاً، تلك التوصيات الثلاث التي انتهى إليها دافيد بولوك، في دراسة رائدة بعنوان «الشارع العربي: الرأي العام في العالم العربي»، صدرت سنة ١٩٩٢ عن «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط»:

١. الشارع العربي ليس خرافة قومية أو ثورية أو رومانتكية، بل هو موجود وحي وقابل للقياس، فلا تتجاهلوه، ولا تقللوا من قيمته قياساً على «عطالة» ظاهرية.
٢. الرأي العام العربي أبعد ما يكون عن التجانس والوحدة والثبات، حتى في مسائل متفجرة مثل الإسلام والديمقراطية، فلا تضعوا كل الرأي العام العربي في سلة واحدة.
٣. النخب العربية جريحة بهذا

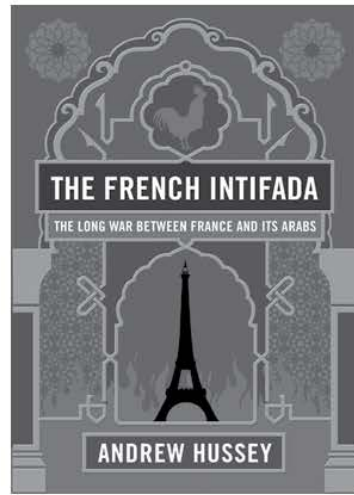


Juan Cole

The New Arabs: How the Millennial Generation is Changing the Middle East.

٣٤٨ صفحة

٢٠١٤ – Simon and Schuster, New York



Andrew Hussey

The French Intifada: The Long War Between France and Its Arabs.

٤٦٤ صفحة

٢٠١٤ – Faber & Faber, London

القدر أو ذاك، في هذه الإشكالية الإيديولوجية أو تلك، هنا أو هناك، ولكن حذار! النخبة شيء (هاّم للغاية، بطبيعة الحال) والشارع شيء آخر. لا تدعوا كوايبس الأحلام المنكسرة عند المثقف تحجب هدير الشارع في ساعات الصباح الأولى أو نهايات يوم عمل شاق بحثاً عن اللقمة، وافتحوا كلّ العيون على المساجد والأزقة والمقاهي وملاعب كرة القدم!

دروس «هذا العالم العربي الجديد»، وفق التعبير الذي صار المرء يقع عليه هنا وهناك في أعقاب ما سُمّي «الربيع العربي»، هزّت أركان المعارف السوسيو-سياسية الغربية، الراسخة رسوخ الجبال في كثير من العقول والضمائر، قبل استقرارها مثل جلاميد صخور جائمة في باطن الأدبيات والدراسات والكلشيهات والتنميطات، حول «العقل العربي» و«السيكولوجية العربية» و«الشارع العربي» و«النظام العربي»، وكل ما يقترن بهذه من صفات الركود والجمود واللاتاريخ والسرمدية ومقاومة التغيير ورفض الديمقراطية، فضلاً عن الكابوس الأكبر المسلم به قطعاً: أنّ الإسلام السياسي هو البديل، الأوحّد الوحيد!

هذه الحال أفسحت المجال - عريضاً، في الواقع، وإلى حدّ الإسهاال - أمام مؤلفات شتى تسعى إلى دراسة الشارع العربي، وإلى تلمّس خصائصه، سواء ضمن معطيات الانتفاضات الشعبية التي بدأت من تونس وامتدت إلى مصر وليبيا واليمن وسورية والبحرين، أو تلك «الشوارع» الأخرى خارج العالم العربي وفي المهاجر المختلفة. القليل منها، مع ذلك، نجح في تخطي حواجز

التنميط المعتادة، الاستشراقية غالباً، في استخلاص سمات سياسية وسوسيولوجية وثقافية وديمقراطية تشكلت في الواقع الفعلي، وبفعل وقائعه، ويمكن، استطراداً، الاتكاء على بعضها، وربما معظمها في حالات محددة، في ترسيم صورة الحاضر، وشيء من آفاق المستقبل. وهذه السطور تتوقف عند نموذجين من طراز تلك المؤلفات القليلة.

هوان كول والعرب الجدد

هوان كول، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط وجنوب آسيا في جامعة ميتشيجان الأميركية، وهو أحد «خبراء» الغرب القلائل الذين يناقشون قضايا العالم العربي انطلاقاً من دراية بالأرض والبشر، ومعرفة ميدانية، واشتغال شاقّ على البحث والمرجع الوثيقة، وهو صاحب مدونة شهيرة بعنوان «التعليق العلمي»، The Informed Comment الذي لعبت موادّه دوراً حاسماً في فضح مشروع غزو العراق سنة ٢٠٠٣، يوماً بيوم تقريباً، كما أنه يواصل، منذ ثلاثة عقود، بذل جهد رصين في وضع علاقة الغرب مع العالم المسلم ضمن سياقات تاريخية ملموسة، عبر كتابين لامين: الانخراط مع «العالم المسلم» ٢٠٠٩، ومصر نابليون: غزو الشرق الأوسط، في العام ٢٠٠٧.

كتابه الثالث، موضوع هذه المراجعة، صدر أواخر ٢٠١٤، بعنوان العرب الجدد: كيف يقوم الجيل الألفي بتغيير الشرق الأوسط، ولعله العمل الأكثر تشديداً على الحركات الاجتماعية بين عشرات المؤلفات التي تناولت الانتفاضات الشعبية العربية، وذلك رغم أنّ فصول الكتاب تتناول تونس وليبيا ومصر،

وتغفل اليمن وسورية (الأسباب بحثية واختصاصية صرفة، وليس البتة للتقليل من قيمة المتغيرات الكبرى في هذين البلدين). كيف نهض الشباب («الألفيون» كما يسميهم كول، نسبة إلى الألفية الجديدة) في البلدان الثلاثة، وما هي التكتيكات المحددة التي اعتمدها لتحقيق أهدافهم؟ وما النتائج التي أسفرت عنها حراكاتهم، منذ النصف الأول للعام ٢٠١١ وحتى شتاء ٢٠١٤؟ وكيف يمكن لهؤلاء، الذين خرجوا إلى الشوارع واعتصموا في الساحات العامة وتظاهروا وأداروا الحملات على مواقع التواصل الاجتماعي وتحالفوا مع فئات طبقية وعمرية مختلفة، أن يبنوا مؤسسات أكثر تماسكاً وديمقراطية والتزاماً بالقوانين؟ وهل، بعدما ألقوا بمجمعاتهم في أتون تغييرات كبرى عاصفة، سوف يخلقون فرصاً أفضل للنجاح وامتلاك المستقبل؟

هذه بعض أسئلة الفصول الثمانية، فضلاً عن المقدمة والخاتمة، في دراسة مفصّلة وعالية التوثيق (أكثر من ٤٠ صفحة تشغلها الهوامش والمراجع)، تبدأ من تشخيص شريحة اجتماعية شبابية، تتألف من مواليد الفترة بين أواخر ١٩٧٠ ومطلع ٢٠٠٠، ومن هنا الإشارة إلى الألفية، أفرادها ثلث ٤٠٠ مليون، عدد سكان العالم العربي، أو أكثر قليلاً، مدينيون، غالباً، ومتعلمون (وبالتالي ليسوا، بالضرورة، من فئة المثقفين)، متمرسون في تكنولوجيا الميديا ووسائط التواصل الاجتماعي (ويضرب كول مثال حركة التضامن، عبر الإنترنت، مع إضرابات المحلة الكبرى في مصر، ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧)، والعديد منهم عملوا خارج بلدانهم الأصلية، في

أوروبا وأميركا تحديداً، كما أنهم، وهذا تفصيل هام في الواقع، أقل تديناً من آبائهم، وأكثر انفتاحاً على العالم. أما الأنظمة التي حكمتهم، وثاروا عليها في نهاية المطاف، فإنها مزارع نهب واستبداد وسلطة وراثية، يتزعمها «ملوك جمهوريون» حسب التعبير الساخر الذي يقترحه كول، ويتناوله بالتفصيل في تحليل طبائع أنظمة زين العابدين بن علي وحسني مبارك ومعمر القذافي.

ولادة يسار جديد

وفي فصل بعنوان «اليسار الجديد»، يناقش كول سمات يسار عربي انبثق في المشهد كقوة هائلة خلال السنوات التي أفضت إلى ٢٠١١، وتميّز عن أحزاب «يسار قديم» شهدته عقود الستينيات، ليس على مستوى المثل والأفكار فقط، بل كذلك على صعيد التنظيم. وإذا كان القديم قد عانى من سلسلة أمراض، أبرزها المزج الفاسد بين الأفكار الاشتراكية والقومية لدى الناصرية وحزب البعث، وما اقترن بها من مظاهر عبادة الفرد (حافظ الأسد وصادق حسين مثلاً)، فإن اليسار الجديد لم يعول كثيراً على مفهوم «القائد الخالد»، واستبعد المعمار التنظيمي الهرمي الذي يقيم تناظراً بين جمهور القاعدة وكوادر القمة، ومال في المقابل إلى شبكات التواصل الاجتماعي كوحدات تنظيمية. اليسار القديم الماركسي، في أحزابه الشيوعية التقليدية أو الأخرى غير الشيوعية، اعتمد اللينينية في التنظيم، وأما اليسار الجديد فإنه لم يتخل عن بعض مبادئ لينين، وإن كان قد سعى إلى ضئع عناصر أكثر ديمقراطية في بناء التحالفات مع الفئات العمالية

والفلاحية، وفي الإلحاح على الانتخابات الحرة، وحقوق الإنسان والحريات العامة.

وفي الفصل الختامي يتوقف كول عند السجال حول ما إذا كانت وقائع تونس ومصر وليبيا تندرج تحت تعريف الثورة، فيتوافق مع القائلين بأنها كذلك، من منطلق أن الثورة في الحد الأدنى هي حالة تغيير سياسي سريع ومنظم، تجلبه حركة اجتماعية. وإذا جاز أن المفهوم يُقاس عادة على الثورتين الأميركية والفرنسية في القرن الثامن عشر، بالنظر إلى المضامين التقدمية والليبرالية التي ميزتهما عن الانقلاب، فإن ثورات الزمن الحديث كانت متنوعة ومتعددة الصفات، في التشكل كما في الغايات. وفي خلاصاته، أيضاً، يشدد كول على ثلاثة إنجازات حققها جيل «العربي الجديد»، خلال ٤٢ شهراً أعقبت انتفاضة ميدان التحرير في القاهرة:

١. رفض انبثاق «كارتل» حاكم يقوم على أساس العائلة أو السلالة، ويحكم باسمها، ومن أجل مصالحها، في العالم العربي.

٢. طي صفحة الرئيس الحاكم مدى الحياة، والمنزّه عن المحاسبة، وبالتالي نسف مبدأ «الملككية»، أي تلك الجمهورية الوراثة التي لا تختلف عن المملكة.

٣. وضع رؤية جديدة، متعددة الثقافات، على الأجندة العربية الراهنة، مفادها البحث عن أفضل سبل لتفعيل المجتمع.

ويحذر كول قارئه الغربي، عموماً، والعاملين في شؤون وشجون الشرق الأوسط، وبينهم صنّاع القرار خصوصاً، من أن معظم «الآمال البراقة» في

الحريات الشخصية وإنهاء حال الركود السياسي والاقتصادي، قد تكون تلاشت، في هذه المرحلة. ولكن: «ضعوا في أذهانكم أن حركات التمرد خلال السنوات الثلاث الماضية قادها أبناء الألفية الجديدة، ممن في مطالع عشرينيات الأعمار، وأمامهم عقود من العيش في المستقبل. فلا تسقطوهم من حسابكم، بعد، لقد بدأوا، للتوّ فقط، شغل تحويل المنطقة». وبعد مقارنة مع «ربيع براغ»، حول مآلات الانتفاضة الشعبية، لا يتردد كول في عقد مقارنة أخرى، مع الثورة الفرنسية هذه المرة: أليس صحيحاً، يتساءل، أن فرنسا، بعد ثلاث سنوات ونصف السنة على ثورتها، باتت على مبعدة أشهر قليلة من اندلاع تمرد فلاح كاثوليكي مؤيد للنظام الملكي، في جنوب منطقة اللوار؟ ألم تترك الحرب الأهلية مع الجمهوريين مئات الآلاف من القتلى؟

وفي كل حال، تقول الأسطر الختامية، «لن تكون هناك ملكيات جمهورية بعد الآن. جيل العرب الجدد هذا قد هرّ وضعاً قائماً، قنوعاً وراكداً وفاسداً، وغيّر العالم إلى الأبد».

فهل تغيّر العالم ذاته، في بلد مثل فرنسا يشهد «انتفاضة» أقرب إلى حرب مفتوحة بين السلطات الفرنسية وأبناء المستعمرات السابقة، عبر أجيال ثلاثة من المهاجرين، طوعاً أو كرهاً، خاصة في صفوف المغاربة، من تونس والجزائر والمغرب؟ وهل ينطوي شعار الثورة الفرنسية، أنوم الجمهورية في نهاية المطاف، على الحرية والعدالة والأخوة حقاً، أم يخفي تاريخاً مريباً من الإخضاع، والقمع، والوحشية؟



عشر، وإلى شغف فرنسا بكل ما هو «شرقي»، وكيف آل الأمر إلى احتلال تونس والجزائر والمغرب.

أسباب هذه «الانتفاضة» المفتوحة كثيرة، ومتعددة بالطبع، سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ونفسية، لا ينفصل أي منها عن التاريخ الاستعماري، وعن ميراث ذلك التاريخ كما تلقفه الإسلام السياسي المعاصر، ثم الحركات الجهادية المتشددة ليس في المساجد وحدها، أو في المدارس «العلمانية»، بل أساساً في السجون حيث غالبية مرتكبي الجنايات من المسلمين، والمغاربة تحديداً. وأدّ يعترف هسي بأن كتابة أي تاريخ لفرنسا لا بد أن يدخل في ساحة صراع ومواجهة، لأنّ للفرنسيين فكرتهم الثابتة حول تدوين التاريخ، ونفورهم من المقاربات الأنغلو - سكسونية ثابت وقديم، فإنه، من جانب آخر يقرّ بأن انحلال إمبراطوريات أوروبا القرن التاسع عشر، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كانت له آثاره المباشرة على القرن الحادي والعشرين، وليس العشرين فقط.

ولهذا فإنّ أحد أغراض كتاب هسي هو القيام بجولة حول بعض أهم وأخطر خطوط الجبهات في ما يرى الكثير من المؤرخين أنه «حرب عالمية رابعة»، تبدأ من ضواحي فرنسا، لتقطع تونس والجزائر والمغرب، ثم ترتدّ عائدة إلى الضواحي والسجون الفرنسية. وهذه ليست نزاعاً بين الإسلام والغرب، أو بين الشمال الثري و«الجنوب المعولم» فقط، بل هي، أيضاً، «نزاع بين تجرّبتين للعالم مختلفتين تماماً: المستعمرون والمستعمرون. وهي بالضرورة

الحرب الرابعة في فرنسا

أندرو هسي، عميد «معهد لندن» في باريس، والمعلق في منابر بريطانية عريقة مثل الـ«غارديان» و«نيوستيتسمان»، وصاحب برامج وثائقية عديدة حول فرنسا، ومؤلف كتابين متميزين عن البلد - «لعبة الحرب: حياة ومماة غي دوبور»، و«باريس: التاريخ السري» - يسعى إلى الإجابة عن الأسئلة السابقة، في كتاب ثالث بعنوان «الانتفاضة الفرنسية: الحرب الطويلة بين فرنسا وعربها».

ولكن، على نقیض قول الذي يغلب التحليل والمعطيات، تستهوي هسي الحكايات والحوادث على نحو تراكمي وسردي، يذكر بأساليب صحف التابلويد، دون كبير اكتراث بتمحيص الواقعة في جوانبها الجدلية المتقاطعة، والتي قد تسمح بأكثر من تفسير واحد، متضارب أو متناقض، غير ذاك الذي يخدم موضوعه الكتاب المركزية، أي صراع فرنسا مع أبناء مستعمراتها السابقة، على سبيل المثال، مستهل الكتاب يروي واقعة الشغب الذي شهدته محطة الشمال، في قلب العاصمة الفرنسية، ربيع ٢٠٠٧، نتيجة تعامل الشرطة بخشونة مفرطة مع فتي كونغولي حاول عبور سياج التذاكر، فيبدأ الوصف من مشاهدات هسي نفسه، الذي صادف وجوده في المحطة خلال ذروة اندلاع الشغب، ثم يمرّ بالتهويل الذي طبع التغطيات الصحافية في اليوم التالي، لكي ينتهي إلى خلاصة تتحدث عن وجود خمسة ملايين مسلم في فرنسا، الجالية الأكبر على صعيد أوروبا، ویردّ جذور ما شهدته المحطة إلى نابليون وغزو مصر مطلع القرن التاسع



تظاهرة الاحتفال
باستقلال لبنان،
٢٢ نوفمبر، ١٩٤٣

حرب ذات حدود متبدلة، وأعداء ملتبسين، وتكتيكات دائمة التغير. النظر، تحديدًا، إلى التواطؤ الغامض الذي حدّد هذه العلاقة تحت النظام الاستعماري. في صياغة أخرى، يبدو الهدف الأبرز لكتاب هسي هو تفحص الدور العام الذي لعبته الحروب الاستعمارية الفرنسية، على امتداد شمال أفريقيا، في الحُصّ على التحرر من الاستعمار من جانب أول، وانعكاس ممارسات الماضي البغيضة (من التعذيب والقمع والعقاب الجماعي، إلى المذابح والاستيطان والتطهير العرقي) على الحاضر، وعلى المستقبل استطرادًا، من جانب ثانٍ، خصوصًا في أوساط الشباب، وأجليل الثالث تحديدًا. وأما مفردة «الانتفاضة»، فإنّ هسي لا يتردد في تفسيرها، عرضاً في الواقع، ضمن جملة عابرة، لكنها واضحة وحاسمة: «العواطف ذاتها جياشة اليوم في رام الله وغزة، وأحاسيس الانحباس في سجن وحجر ومعسكر اعتقال، هي التي تتأجج في الضواحي الفرنسية». وفي مقابل تركيز كول على المعطيات الصلبة، من أرقام وإحصائيات واستبيانات، والسعي إلى استقراء ما تضيفه إلى فرضيات الكتاب حول سمات «العربي الجديد» الشاب، فإنّ هسي يستنطق الحوادث، ويقرأ الكثير من الصحف، ويحاور الساسة والمساجين والجهاديين والفنانين، ويتجول في شوارع الشغب مثل المساجد، ويدخل السجون ذات الحراسة المشددة مثل «الأحياء الساخنة» في الضواحي، معتقداً أنه، بذلك، يرسم صورة واضحة، وبالتالي أمينة، لـ«الكارثة» التي تنطوي عليها

علاقة فرنسا بتاريخها الاستعماري عموماً، وبالشطرنج العربي، المسلم والمغاربي، من ذلك التاريخ خصوصاً. هذه واحدة من المزالق التي تُضعف خلاصات الكتاب، وتنتهي به إلى سلسلة تنميطات متعجلة جاهزة، أو هي مستمدة من كليشيهات مسبقة الصنع وإلى تعميمات لا تتكئ على استطلاعات رأي علمية، وأحكام مطلقة يستحيل التحقق من صدقيتها (كالجزم حول مواقف الغالبية الساحقة من الفرنسيين تجاه مشكلات الهجرة). هذا فضلاً عن ارتكاب أخطاء في بعض التواريخ، وفي تفسير بعض الحوادث، خصوصاً تلك التي تتصل بما يُسمى «التزوع الغريزي في العداء للسامية» لدى الشبان المغاربة. هنالك، إلى هذا، طراز من المبالغة في رصد تأثيرات الفنون على واقع التمرد في الضواحي الفرنسية، كما حين يجزم هسي بأن «الخبز الحافي»، عمل محمد شكري الأشهر، كان له تأثير هائل في إذكاء حسّ الاحتجاج لدى الشبان المغاربة في المهجر الفرنسي، أو حين يستخلص أن نشر شكري (الصريح والمباشر وغير المألوف في الأدب العربي، حسب رأيه) فضح العنصرية الفرنسية تجاه العرب، أو حين يفسّر شخصية الممثل الفرنسي جان غابان، زعيم العصاة في شريط «بيبي لو موكو»، الذي يلتجئ إلى مدينة الجزائر ويتخفى في شوارع القصبة، بأنه تجسيد لشخصية المستعمر في مرتع ذكرياته، أو حين يقارن بين عمليّ أوجين دولاكروا، «الحرية تقود الشعوب» و«نساء الجزائر»، وكيف أنّ الأولى ثورية وملتزمة وإنسانية، والثانية حسية

وإيرونيكية واستشراقية، الأمر الذي يبعث في الناظر المغاربي أحاسيس الغضب والدونية في أن معاً، وحين يتجه هسي إلى وصف واقعة عنف فرنسية بحق المغاربة، فإنه يوجز ويقتصد ويلخص، وأما إذا كانت الواقعة معكوسة، أي عنف المغاربي ضدّ الفرنسي (خصوصاً إذا كان الأخير يهودياً!) فإنّ صاحبنا يستفيض ويستزيد ويغرق في تفاصيل جانبية، وخلفيات، ونظائر. وفي العودة إلى آراء كول، ثمة ذلك اليقين الراسخ لدى الرجل، حول حاجة ثورات الشباب العربية إلى عقدين من الزمن كي توتي ثمارها، لاسيما أنّ مقولة «الشباب» سوف تضم، على الدوام، شرائح متباينة من السكان، دون أن تتوقف عن إفراز نشاط جدد، مقابل أولئك الذين تغيبهم السلطات في سياق الحراك الشعبي. ومن الضروري استذكار ديناميات تطوير الشعارات الشبابية، حين تبدأ من «الشعب يريد إسقاط النظام» و«خبز، عيش، حرية» في مصر، ولا تنتهي عند شعارات الانتفاضة السورية التي شدّت منذ البدء على الوحدة الوطنية، أي في الاتجاه النقيض لما كان النظام يسير إليه: تفريق الشعب، وفق خطوط دينية ومناطقية وإثنية وطائفية. أمّا هسي فإنّ فضيلته الكبرى أنه يذكّرنا بحكمة التنوّع في حراك الشارع، الشبابي بصفة خاصة، وكيف أنّ أشباح الماضي تجوس عوالم الحاضر. وفي كلّ حال، هذا «عربي جديد»، حقاً، لكنه وليد إرث الاستبداد والاستعمار، تغيب الحرية أو فقدان المساواة، جرح الكرامة أو شرخ الهوية. فلا يجهلن أحد على جديده، أسوة بقديمه!

ذاكرة الحرب العظمى المجاعة أم جبل المشنقة؟

يوسف حميد معوض

حام لدى المحكمة،
ومؤرخ، ومحاضر في
الجامعة اللبنانية
الأميركية وجامعة
سيده اللوزية.

يسيطر على اهتمامه عندما نشرَ في اسطنبول في نهاية عام ١٩١٦ «الحقيقة حول المسألة السورية» باللغات الفرنسية والعربية والتركية^٤.

بين «الأربعين» و«المئتي ألف»

كما ذكرنا آنفاً، ليس جمال باشا الوحيد الذي غفلَ عن ذكر ضحايا المجاعة. ويبدو أن لبنان هذا حذوه مع نهاية العشرينيات. ولعل ما يثير الدهشة أكثر أن البطريرك الماروني إلياس الحويك لجأ بشكل كبير في المذكرة التي رفعها إلى مؤتمر السلام في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩١٩، إلى حجة المجاعة المدمرة في دفاعه عن جبل لبنان موسّع؛ إذ إنَّ ضم أراضي البقاع الخصبة من شأنه تأمين الحاجات الغذائية للبلاد وحمايتها من البؤس. كذلك، شدد البطريرك على أنَّ جبل لبنان فقدَ خلال سنِّي الحرب «أكثر من ثلث سكَّانه» إثر مجاعة «نظمها العدو»^٥. على هذا الصعيد، يمكننا أن نتساءل عن العدد التقريبي، إن لم يكن المحدد، للضحايا، وإلى أي حدَّ كان جمال باشا مسؤولاً عن ذلك.

نادراً ما لقيت نسبة الثلث التي قدَّمها البطريرك الحويك معارضة صادرة عن قناعة قوية، وقد تأرجحت الأرقام بحسب المؤلفين ما بين مئة ألف ومئة وثمانين ألف قتيل^٦. كانت هذه الأرقام تؤخذ على سبيل المبالغة إلى أن ظهرت دراسة حديثة لليندا شاتكوفسكي شيلشر. ففي إطار بحثها الذي توسَّع ليشمل مصادر ألمانية ونمساوية، توصلت إلى خلاصة مفادها أنه من أصل خمسمئة ألف شخص قُضوا بسبب الجوع وسوء التغذية في سورية الطبيعية، نُعد مئتي ألف ضحية في المناطق الشمالية من جبل لبنان^٧. إنَّه عددٌ ضخم بالنسبة إلى مساحة جغرافية صغيرة جداً، يُقارَن بـ «مجاعة البطاطس»

من يتذكَّر حادثة المجاعة الكبرى؟ هل من لبناني يستطيع أن يحدِّد لنا بدقَّة عدد ضحايا المجاعة بين عامي ١٩١٥ و١٩١٨؟ أكان ينبغي أن ننتظر ليندا شاتكوفسكي شيلشر لنذكر أنَّ هذه الكارثة حصدت مئتي ألف قتيل في جبل لبنان في عهد المتصرفية؟ غير أنه، عند النظر إلى الوراء، ندرك أنَّ ذكرى هذا الجوع المهلك حُجِّبت، رغم أنَّ جزءاً من الرأي العام ما زال يُحمِّل جمال باشا مسؤولية المصائب كلها.

لم هذا الصمت المتحيِّز حيال الناس الذين ماتوا جوعاً، فيما تحيي البلاد كل عام، في ٦ أيار/مايو، ذكرى الشهداء الذين انتهى بهم المطاف على جبل المشنقة؟ على أي أساس وإلّا يستند هذا التمييز بين «مئتي ألف» قتيل من جهة، و٤٠ شخصاً أعدِموا من جهة أخرى؟ يرى البعض أنَّ تحديد يوم وطني وتكريم ذكراهم أمرٌ جديرٌ بهم، إذ إنَّهم كانوا يمثلون النخبة الفكرية والسياسية في تلك الحقبة؛ بيد أنه بالنسبة إلى البعض الآخر، وعددهم أكبر بكثير، ما من لوحة تذكارية، أو ساحة تذكَّر بمعاناتهم ونهايتهم المأساوية، ولا أي احتفال!

ويظهر أيضاً هذا الاختلاف في التعامل في مذكرات جمال باشا الذي يحاول تبرئة نفسه من الاتهامات الموجهة ضده^٨. كذلك، يتجنَّب هذا المسؤول العثماني المسألة الرئيسية المتمثلة في المجاعة والحصار الغذائي الذي أدى إلى حدوثها بالقول إنَّ اتهامه بأنَّه «ترك عن عمد المسيحيين في سورية يموتون» هو محض خيال وإنَّ الحقيقة ستنجلي^٩ يوماً ما. لم يتلفَّظ بكلمة مجاعة ولا بكلمة حصار. والواقع أنَّ جلَّ ما يهم جمال في مذكراته، وما يكرِّس له صفحات كاملة، هو تبرير أحكام الإعدام التي يمكن أن يُلام عليها. وقد كان الهاجس نفسه



كل الصور والرسومات
المستخدمة في هذا الملف
من مجلة «Lebanus»
الطبعة السابعة - طبعة
خاصة بالتاريخ، كانون
الأول / ديسمبر ٢٠٠٤؛
تصوير إبراهيم كنعان،
بيروت، ١٩١٥ - ١٩١٨،
من مجموعة السيدة ليلى
كنعان عيسى الخوري

ليس تحديد المسؤوليات بقدر ما هو متابعة وتسجيل تداعيات هذه الكارثة البشرية وصداها على مستوى الخطابات والعقليات في فترة ما بعد الحرب.

السبب؟

في هذا الصدد، لا بدّ من التمييز بين رد الفعل الشعبي وردود فعل السلطات القائمة. غداة الحرب، لم تكن في أذهان الطبقة الشعبية سوى أمنية واحدة: نسيان هذه الفترة المقيتة. وكان من شأن استعادة الازدهار والأمن أن تحجب شيئاً فشيئاً ما لا يمكن الاعتراف به؛ إذ إنّهُ إلى جانب بعض الأعمال المتفانية، كان التضامن مفقوداً في معظم الأحيان، وثمة ذكريات سيئة في الذاكرة البشرية لا بدّ من القضاء عليها. فالقصص القديمة للقرية اللبنانية تتنافس في ترداد كيف أنّ الجار استفاد من ضيق حال جاره ليشتري منه قطعة أرض بأبخس الأسعار^{١٤}. كذلك تهاشم الناس شائعات عن رفض البعض إعطاء لقمة الخبز الأخيرة إلى الصديق الذي يموت من الجوع، من أجل الاحتفاظ بها لأفراد أسرته. بالتالي كان لزاماً، في المناطق الريفية والقبلية، بحسب قانون الصمت طمس وقائع معيّنة؛ ما كنا سنهزأ بالفتيات اللواتي اضطررن إلى ترك منازلهنّ بحثاً عن عمل خارج النطاق العائلي، أو النساء اللواتي قدّمن ربما خدمات جنسية مقابل بقائهنّ على قيد الحياة^{١٥}. بدافع من الحب الخالص، كنا سنتجنّب الحديث عن يخصّوننا، أو من يسكنون في حيّنا، أو في قريتنا، أو من قضوا معدمين، مستنزفين إلى أقصى حد، أو مجبرين على التسوّل للحصول على ما يقيهم على قيد الحياة. كان من الأفضل نسيان ذلك كله. فبأي حال، ما كنا سنشكّل مجموعة ضغط لمطالبة الحكومة بإحياء هذه الذكرى، لأنّ البؤس ليس أبداً عملاً بطولياً، فضلاً عن أنّ بعض المحتكرين القدامى قد كفّوا عن سلوكهم السيئ، وبأي حال من الأحوال، لم يشعر أي انتهازي بالقلق أو يحاكم عندما استتب السلام مجدداً^{١٦}.

لكنّ ذلك لا يبرّئ الدولة اللبنانية الضامنة والمؤتمنة، ولو جزئياً، على الذاكرة الوطنية. ربما هناك سبب آخر قد يفسّر صمت السلطات: إنّ الضحايا «المتني ألف»، الذين قضوا بشكل أساسي في المناطق الشمالية من جبل لبنان بحسب شاتكوفسكي شيلشر^{١٧}، كانوا بواقع الحال بأكثرهم الساحقة من المسيحيين. وكان الاستنتاج جلياً: هذه الكارثة لم تلحق الأذى بالنسبة

التي اجتاحت أيرلندا في القرن التاسع عشر. وفي ما يتعلق بمسألة معرفة ما إذا كانت هذه المجاعة مدبّرة من قبل العثمانيين كما اعتقد البعض أو ادعى، تردّد هذه الكتابة بالنفي. وتعتبر ليندا شاتكوفسكي شيلشر أنّ ثمة عوامل عدّة أدّت إلى هذا الوضع المأساوي، من بينها الحصار البحري الذي فرضته أساطيل الحلفاء على البحر الأبيض المتوسط والحصار الغذائي في جبل لبنان الذي فرضه جمال باشا^{١٨}.

غالب عن بالنّا في نهاية المطاف أن فرض حصار غذائي على منطقة معينة كان حكماً بالموت البطيء على شعب كنا نتحمّل مسؤوليته.

لكن هل كان للعوامل المذكورة جميعها التأثير المدمر نفسه؟ إنّ إقامة مراكز عسكرية على حدود جبل لبنان لمنع وصول المواد الغذائية ومصادرة السلع المخصصة لهذه المنطقة^{١٩}، كان تدبيراً اتخذته جمال باشا ولم تتضح أسبابه تماماً بعد^{٢٠}. وبحسب دراسة حديثة ومسهبّة عن العلاقات العربية التركية، وما إذا كانت سورية قد عانت أكثر بكثير من مناطق الإمبراطورية الأخرى من سوء التغذية، فذلك نتيجة الحصار البحري الذي فرضه الحلفاء^{٢١}؛ والمستغرب أنّه ما من ذكر أبداً للحصار الذي فرضه جمال^{٢٢}. بالتالي يبقى الجدال مفتوحاً. ولسوء الحظ، طرح السؤال بشكل أنّه، منذ البداية، تبلور من خلال العبارات التالية: من المسؤول عن المجاعة: الحلفاء الذين، من خلال حصارهم البحري، منعوا وصول سفننا أغذية تم استئجارها في الأميركيتين، أو جمال باشا الذي فرض «عزلة» على جبل لبنان؟ وكأنّ تحديد المسؤولية الجزئية لأحد الأطراف من شأنه عدم التخفيف من مسؤولية الطرف الآخر وحسب، إنّما والأكثر من ذلك، عدم تحميله أي مسؤولية. في إطار هذا الجدال، غاب عن بالنّا في نهاية المطاف أنّ فرض حصار غذائي على منطقة معيّنة، لا تؤمّن لها تضاريسها الجبلية في الأحوال العادية سوى مؤنة بضعة أشهر في السنة، كان حكماً بالموت البطيء على شعب كنا نتحمّل مسؤوليته؛ وكان ذلك أيضاً دليلاً على لامبالاة وإهمال جنائيين، في حين أنّ عوامل أخرى قد استجدّت من أجل تردي وضع كان يتفاقم يوماً بعد يوم^{٢٣}. بيد أنّ هدفنا في هذه الحال

المجاعة^{٢٣}. ومن خلال الرجوع إلى هذا النوع الأدبي المتمثل في تواريخ (مفرد تاريخ) التجمعات^{٢٤}، أو القرى أو البلدات ضمن المناطق المسيحية في جبل لبنان، أو الإحصاء السكاني لمنطقة البترون عام ١٩٢١، نكون فكرة عن هول هذه الكارثة^{٢٥}. فضلاً عن ذلك، قد تشكل التقارير التي نُشرت في نشرات البعثات الكاثوليكية مصدر معلومات بهذا الصدد، إذا أخذنا المبالغة في الحسبان^{٢٦}. ويخبرنا شاهد عيان كيف اجتاحت المساكن من قرى الجبل مدينته طرابلس، والمقصود بذلك ضمناً المسيحيون، الذين كانوا يموتون جوعاً فيُنقلون جثثاً هامة من على حافة الطرقات^{٢٧}.

مرة أخرى، عانت المناطق كلها من المجاعة ضمن حدود جبل لبنان، كما في المناطق الخارجة عن نطاقه أو المجاورة له^{٢٨}. لكن ثمة فرقاً بين عدم الأكل حتى الشبع كل يوم والمعاناة من سوء التغذية، وبين الموت جوعاً بالعثرات^{٢٩} وتكبّد خسارة مئتي ألف شخص في جبل لبنان الذي كان عدد سكانه يراوح في تلك الحقبة بين ٤١٤ ألفاً و٤٩٦ ألف نسمة^{٣٠}.

التصورات والخطاب

كما هي الحال دائماً لكل طائفة روايتها الخاصة للحدث نفسه، فلكل مجموعة وجهة نظرها الخاصة وخطابها الذي ينبغي أن تحافظ عليه. ألا تصبح بالتالي كل واحدة غير مبالية بخطاب الأخرى وتصمّ أذانها عنه؟ يتميز الخطاب المسيحي، في العشرينيات، عن خطاب الطوائف الأخرى بإصراره على التطرق إلى مسألة المجاعة؛ وبذلك أصبحت موضوعاً متكرراً لا يمكن تخطيه. وبما لا شك فيه أنّ الأطراف كلها توافق على القول إنّ جبل لبنان عانى أشدّ معاناة من المجاعة بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، على الرغم من أنّ بعض الأصوات ارتفعت وما زالت ترتفع لتبرئة الأتراك من تهمة ارتكاب جريمة متعمّدة بحق المسيحيين في لبنان أو للتشكيك في حجم الكارثة^{٣١}. غير أنّ التصورات الجماعية اعتبرت هذه المجاعة المدمّرة مسألة مسيحية بحتة؛ فقد شكّلت موضوعاً رئيسياً في الخطاب الماروني بشكل خاص في أعقاب الحرب العظمى، قبل أن تغرق في غياهب النسيان، في حين لم تتمتع الطوائف الأخرى هذه المسألة «الأولوية» نفسها كالتأثّر المسيحية الشريكة.

وفي خضمّ هذا النزاع العالمي، تتّملّ السؤال المطروح في معرفة ما إذا كان القرار بفرض حصارٍ غذائي

نفسها بمكوّنات المجتمع كافة في البلاد. لكن كيف يمكن للمجاعة في بلد يعتمد بشكل أساسي على الزراعة أن تكون انتقائية إلى هذا الحدّ وتصيب المسيحيين وتعفي عن الدروز الذين يشكّلون المكوّن السكاني الأساسي الآخر في جبل لبنان؟ قد تفسّر لنا مقالة لسمير صيقلّي تستند إلى مقارنة بين جماعتين متجاورتين، عرب فلسطين ويهودها بين عامي ١٩١٤ - ١٩١٨، هذه المشكلة باستعمال مصطلح «الحظوظ غير المتكافئة» لوصف المصير المختلف لكل من هاتين الجماعتين المتجاورتين^{٣٢}. فبالنسبة إلى الكاتب المذكور، لا شك في أنّ الجميع قد عانى من تداعيات الحرب في الأراضي المقدّسة، إلا أنّ وضع العرب كان مؤسفاً ومحزناً أكثر بكثير من وضع اليهود. في مساحة جغرافية محدّدة وضيّقة حتى، قد تعاني مجموعات دينية وإثنية بشكل مختلف، وبدرجات متفاوتة، تأثيرات الظاهرة نفسها. كذلك، قد يُفسّر المصير المختلف للدروز والمسيحيين في جبل لبنان بفعل أنّ الدروز الذين كانوا يفتقرون إلى سبل العيش، لجأوا إلى إخوانهم ممن يعتنقون الديانة نفسها في منطقة حوران الخصبة، وهو سبيل للخلاص ما كان المسيحيون^{٣٣} يستطيعون الاستفادة منه. كذلك، تساهم مقارنة أخرى أجريت بين وضع جبل لبنان ووضع جبل عامل، ذي الأكرية الشيعية والذي لا تشمله منطقة الحصار الغذائي الذي فرضه جمال باشا، في توضيح الصورة إلى حدّ كبير: يرثي كاتبٌ شيعي، الشيخ علي الزين، بعض الأشخاص الذين ماتوا نتيجة سوء التغذية في قريته جبشيت^{٣٤}، في حين يتحدث سمعان خازن عن مقبرة جماعية في زغرتا، قرية مارونية، حيث دُفّن ثلاثة آلاف وثمانمئة شخص من ماتوا جوعاً^{٣٥}.

وخلال الفترة نفسها، قيل إنّ التجمّع المسيحي في

كان تحديد المسؤولية الجزئية لأحد الأطراف من شأنه عدم التخفيف من مسؤولي الطرف الآخر وحسب. إنما والأكثر من ذلك، عدم تحميله أي مسؤولية.

البترون قد تراجع من خمسة آلاف شخص إلى ألفي شخص^{٣٦}، في حين أنّ عدد سكان حصاريل، وهي قرية مارونية، لم يكن يتجاوز في نهاية الحرب الستين شخصاً، إذ إنّها خسرت مئة وعشرين شخصاً نتيجة

عن توريط جمال باشا ذي النوايا الخبيثة بالقول: «هنا يكمن دافع متعمد ألا وهو الثأر...»^{٣٩}. ولا بد من الإشارة إلى أنّ الكتاب المسيحيين وحدهم، حتى وإن لم يكونوا دائماً في الخندق السياسي نفسه، هم الذين اتهموا العثمانيين بالتخطيط لهذه المجاعة، في حين أنّه، بشكل عام، الكتاب من الطوائف الأخرى هم الذين سعوا منذ البداية إلى تبرئة الأتراك أو التخفيف من مسؤوليتهم. في مذكراته، يخبرنا سليم علي سلام، وهو وجيه سني من بيروت، عن جو الرعب الذي كان سائداً في عهد جمال باشا^{٤٠}، إلا أنّه يتكتم بشكل مدهش عن ذكر ضحايا المجاعة في حين أنّ مئات المعدمين الذين يتضورون جوعاً اجتاحتها شوارع هذه المدينة وهم يصرخون «جوعان»^{٤١}. كذلك، لم تتوقف شخصية بيروتية أخرى، وهي شاهد عيان على الأحداث، في مشاركتها المتأخرة عند معاناة الجائعين، وإن كانت تعتقد أنّ هذه المجاعة مدبرة، كما أنّها تنقل إلينا الذكريات المثيرة للشفقة عن مرورها في الجبل اللبناني^{٤٢}. بالمقابل، أسهبت في حديث مطول^{٤٣} عن عمليات الإعدام التي حصلت علانية.

كذلك من المثير للاهتمام التوقف عند تاريخ جبل عامل، فهي منطقة شيعية متاخمة لجبل لبنان كما ذكر آنفاً. فمعظم الكتاب في هذه المنطقة الذين تطرقوا إلى الويلات التي سببتها المجاعة العامة، عالّجوا هذه المشكلة باعتبارها من مخلفات المجاعة أو ضرراً جانبياً ناجماً عنها^{٤٤}. ويُعتبر كلام الشيخ علي الزين مميزاً: فهو يسهب في الحديث عن جو التآمر، والوشاية، والرعب في عهد جمال، ولا يأتي أبداً على ذكر المجاعة في كتابه البارز عن هذه الحقبة^{٤٥}، ولم يعترف إلا في حديث لاحق بأنّ بعض الأشخاص في قريته جشيت ماتوا جوعاً^{٤٦}. لكن رواية الشيخ سليمان ضاهر للأحداث هي الأقرب نوعاً ما إلى الخطاب المسيحي؛ فالكاتب يعطي الأحداث حجمها، ويأسف على ضحايا المجاعة، ويحمل السلطات التركية مسؤولية هذا البؤس لأنها منعت التداول الحر للمواد الغذائية^{٤٧}.

في المقابل يشهد نتائج أدبي ضخمة على الأهمية التي علقها الكتاب المسيحيون، غداة الحرب وفي مرحلة لاحقة، على المسألة الرئيسية المتمثلة في المجاعة. وخير شاهد على ذلك المقالات الصحافية^{٤٨}، والدراسات المنفردة^{٤٩}، والروايات^{٥٠}، وحكايات من السيرة الذاتية^{٥١}، والمراثي^{٥٢}، والعروض المسرحية^{٥٣}، وما إلى هناك. لم يلقَ

يهدف إلى تصفية المسيحيين بدون الاضطرار إلى تحمل المسؤولية عن المجازر وسفك الدماء. ومنذ عام ١٩١٦، اتُهمت السلطات التركية بتجويع اللبنانيين من أجل إخضاعهم. كذلك، لم تتوانَ صحف الحلفاء، لاسيما الفرنسية^{٣٢} منها، عن التشديد على مسؤولية جمال عن ذلك، مما دفع هذا الأخير إلى مطالبة السلطات الدينية المارونية برسائل إنكار رسمية^{٣٣}. وقد استدعى جمال أحد الأساقفة وسأله إن كان يُعتبر مسؤولاً عن غزوات الجراد عام ١٩١٥، أو عن الجفاف عام ١٩١٦ لتتجه الصحافة الفرنسية بتجويع المسيحيين^{٣٤}. وبذلك تبلور السؤال في مرحلة مبكرة جداً كالتالي: هل ينبع الحصار من رغبة جمال باشا المتعمدة في تجويع المسيحيين؟

يخبرنا سليم علي سلام عن جو الرعب الذي كان سائداً في عهد جمال باشا إلا أنّه يتكتم بشكل مدهش عن ذكر ضحايا المجاعة في حين أنّ مئات المعدمين اجتاحتها الشوارع وهم يصرخون «جوعان».

لم يستطع المستشارون وصحافة الحلفاء إلا استغلال كلام غير موثوق تُسبب إلى أنور باشا أثناء مروره بسورية في شباط/فبراير عام ١٩١٦، ومفاده: «ينبغي تنظيف الإمبراطورية من الأرمن واللبنانيين. قضينا على الأرمن بحد السيف، وسندمر اللبنانيين من خلال المجاعة»^{٣٥}، وقد ردّد جبران خليل جبران، الذي يقيم في الولايات المتحدة، صدى هذه الإشاعة إذ إنّّه كتب إلى ماري هاسكل (انظر ص. ١٧٤): «أبناء شعبي، أبناء جبل لبنان، يموتون من خلال مجاعة دبرتها الحكومة التركية. قضى ٨٠ ألف شخص حتى الآن. وموت الآلاف كل يوم. الأشياء نفسها التي حدثت في أرمينيا تحدث في سورية. وبما أنّ جبل لبنان منطقة مسيحية، فهي تعاني أشد معاناة»^{٣٦}. فضلاً عن ذلك، يؤكد كلام البطريك الحويّك في مؤتمر السلام في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩١٩ أنّ المجاعة كانت «مدبرة من قبل العدو»^{٣٧}، وهذا ما سيثبتّه إدمون ربّاط بقوله: «إنّ مجاعة منشودة، منقّدة بشكل منهجي، عزلت بيروت ولبنان، المنطقتين اللتين تحوم الشبهات حولهما أكثر من غيرهما، عن باقي سورية، فأهلك ثلث السكان وهجرت قرى بأكملها»^{٣٨}. ولا يتوانى جورج أنطونيوس

بالغضب والاستياء بسبب رفوف العصافير السوداء هذه التي تنعق فوق رأسه، فانتقد بشدة الخدمات البلدية، وصدرت توصية بأن تُحْفَر في المقابر المجاورة مقابر جماعية ضخمة وبأن يدفن فيها الموتى الجدد في كَوْم.

كانت المقبرة المارونية القديمة في حي مدور صغيرة جداً ومكتظة ولا تكفي لاحتواء القرويين جميعهم الذين يقضون بسبب الجوع في المدينة.

بالتالي، للتخلص من هذه الجثث، وقع الاختيار على المقبرة الجديدة في رأس النبع التي كانت لا تزال شبه فارغة إذ إنها قُدِّمَتْ للتو إلى المجتمع من قبل المطران شبلي، رئيس أساقفة بيروت، الذي توفي في المنفى في أضنة.

«أنا جائع!... أنا جائع!... أنا جائع!...» توسّل هؤلاء المحكوم عليهم بالموت وهم يكادون أن يلفظوا النفس الأخير، ولا يستطيعون حتى أن يتحركوا من وسط النفايات حيث انهاروا، ليطلبوا صدقة. باتوا أشبه بهيكل عظمي، يكاد أن يغمر عليهم من الرائحة الكريهة للحشرات الطفيلية التي تغطي أجسادهم، وشكواهم الهلوسية، والذهيانية، غير المعدودة والمتواصلة بلا كلل أو ملل، ترتفع بشكل رهيب طوال النهار والليل، من مختلف زوايا المدينة اللامبالية. حتى إنّ البعض، إثر تمعّج شديد غريب رماً، محاولاً النجاة من كارثة عضوية، كان قبل أن يلفظ النفس الأخير قد تنحّم أمعاءه التي بقيت مخلفة وراءه في الغبار والنفايات.

بطون منتفخة بسبب الغازات الكريهة الرائحة، وجلد مقشّر، وقرب مثقوبة، وجروح متقيحة، وقشرة جلد دامية، شبح من الجحيم معذب من خلال المجاعة، وأرواح مصابة، وجثث متنقلة، يأس بالإجماع: هذا ما آلت إليه حال الأشخاص الأفضل، والأسلم، والأنقى، والأقوى، والأنبل، والأشجع من هذا الشعب الطيب في الجبل المقتول.

ألم نر، غالباً جداً، في تلك الأوقات، وكأنّ هذا الأمر طبيعي جداً في العالم، أولاداً صغاراً فقراء، جعلت منهم المجاعة أجنة بشعين، يمسّون ثدي جثة والدتهم الذي تأكلها الديدان، إلى أن تأتي عربة البلدية وتأخذهم معاً، لترميهم عشوائياً في مقبرة جماعية؟

جرى تناقل الأخبار من خلال الرجوع، من بين مستندات أخرى، إلى الأبحاث التي أجرتها مجلة *La Revue Phénicienne*، غداة الهدنة، وبخاصة إلى الدراسة التي تحمل عنوان «*Rendons le sol au Paysans*»، للكاتب شارل قرم، والتي صدرت في عدد عيد الميلاد من عام ١٩٢٠، من المجلة نفسها.

للعودة إلى «الشبه»، اضطر سكان هذه القرية الصغيرة، أسوة بسكان قرى البترون ككل وجبيل، بسبب المجاعة إلى بيع ممتلكاتهم كلها: المنقولة وغير المنقولة، إلى أصحاب المتاجر الصغيرة في طرابلس وبيروت، الذين ترقّوا إلى مصاف رجال الأعمال الكبار. ومقابل قطعة خبز متعفنة، كان الفلاح يُسَلَب أعلى ما يملك. وقد اشترى بعض أصحاب المطاعم في أسواق طرابلس، الذين ما كانوا يملكون في بداية الحرب سوى مطعم صغير متواضع يقدّم إلى الحمالين الحمص المهرّوس الرديء والفلول مع الحامض، قرى بكاملها في الجبال، ومعظم الكروم والبساتين: حتى أنهم اشترّوا في قرى معينة أراضي المقابر. وكان القرويون، الذين استنزفت مواردهم كلها، وهم بين الحياة والموت، يتوافدون إلى بيروت، المدينة الكبرى، أملين أن يقتاتوا أقله من بقايا النفايات فيها. كانت الأرصفة، وأعتاب الأبواب، وساحات الكنائس وصولاً إلى أصغر زاوية متاحة أمام العامة، حرفياً مكسوة بأشخاص على فراش الموت قضوا أحياناً شهرين وحتى أكثر في معاناة من جوع لا يوصف، ليلفظوا أنفسهم الأخير.

بدأت البلدية التي كان يراقبها عن كثب الوالي التركي وأكثر من جلاد في جيش الاحتلال، بتكديس الضحايا على عربات ورميهم في البحر. وقد لفظت الأمواج الكثير من الجثث على الشاطئ، وصولاً إلى المرفأ، ولم يعد الضحايا يجلسون إلا نحو رمال جنوب المدينة. بيد أنّ بيروت التي لطالما تمتعت بهذه الخاصية الغربية، أي جعل سمائها الزرقاء ملأى باليمام الأبيض، الذي كان يربيه تقليدياً أشخاص مهوسون بعض الشيء، شهدت فجأة تحوّل أفقها إلى اللون القاتم بسبب عدد لا يُعدّ ولا يُحصى من الغربان المحلقة التي تهرع لتناول فريستها. وذات صباح، شعر جمال باشا، الذي كان يأتي في بعض الأحيان إلى عالم العاصمة الكبير، لقضاء سهرات جميلة في اللهو والمجون،

موضوع المجاعة صدى، أو بالأحرى لم يتطوّر في المجتمع المسلم في فترة ما بعد الحرب. باختصار، لا تحظى المجاعة خارج نطاق جبل لبنان بهذا الطابع المركزي الذي نجده في العقليّات، وفي كتابات المسيحيين.

استعمال الأدوات بحسب الاختيار

أصاب هذه الكارثة البشرية غالباً، إن لم يكن حصراً، مسيحيي جبل لبنان، بالتالي ما كانت لتثير بالدرجة نفسها اهتمام أو قلق الطوائف الأخرى في البلاد ضمن حدودها الجديدة المعلنة عام ١٩٢٠. لم تشكّل هذه المجاعة «المستهدفة»، التي قضت في الواقع وبشكل خاص على المسيحيين، موضوعاً موحداً بين الطوائف جميعها، أسوة بالإعدامات العلنية التي حصدت شهداء في صفوف المسيحيين كما في صفوف المسلمين. وهكذا انحصر الحداد على «المتني ألف»، في أحسن الأحوال، على الصعيد الشخصي.

إلضفاء طابع الشرعية على دولة لبنان الكبير الجديدة وتوطيد العلاقات مع الشركاء الجدد أي المسلمين. كان على المسيحيين أن يعلنوا الحداد على ضحاياهم شبه الحصريين.

يتجسّد من خلال الاحتفال بذكرى الشهداء. وبالمناسبة نفسها، من خلال تقديم بعض التنازلات والتضحيات، تمكّن الرأي العام المسيحي من تجنّب الانشقاقات وبعض الانزلاقات الممكنة: وبالفعل كانت هناك خشية من أن ترتفع الاتهامات بقوة ضد الإسلام أو المسلمين، مع تحميلهم مسؤولية المجاعة^{٤٥}. ذلك أنّه يمكن الدمج بسرعة بين الإسلام والأترك، ومن خلال انزلاقات متتالية، تحميل المسلمين مسؤولية هذه الكارثة.

وهذا ما تطرّق إليه بشكل سريع الأب أنطون يمين في أعماله الأدبية، من خلال تسمية المحتكرين، والانتهازيين، والمتعاونين وبعضهم ينتمي إلى العائلات السنيّة المرموقة في بيروت؛ ولم يتردد هذا الكاتب نفسه، مدفوعاً برغبة مفهومة في الانتقام، في توجيه سهامه إلى مسيحيي العاصمة كما مسيحيي الجبل، الذين باتوا الآن من أصحاب الجاه والسمعة الحسنة والذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الراقية في عهد الانتداب^{٤٦}. أما كان من الأجدى تجنّب الشقاق المدني المتمثل في فتح جراح الماضي من خلال إهانة البعض للبعض الآخر، ومحاكماته علنيّة وإدانته أمام الصحافة؟ خطاب المجاعة خطابٌ تقسيمي في حين كنا نبحث عن موضوع توحيدى. وسواء كانت صندوق باندورا أو قبيلة موقوتة، كان لا بدّ من رمي مسألة المجاعة في غياهب النسيان ولن يُسمح لأي شخص يريد افتعال الأحداث بلعب هذه الورقة «التي تسبّب الانشقاق».

وهؤلاء «المتني ألف» الذين تمت التضحية بهم للمرة الأولى من خلال لعبة الحصار وإطلاق العنان للعناصر، سيُضحى بهم مرة ثانية على مذبح الوفاق الوطني والقاسم المشترك الأدنى الذي تنطوي عليه. باختصار، لإضفاء طابع الشرعية على دولة لبنان الكبير الجديدة وتوطيد العلاقات مع الشركاء الجدد أي المسلمين، كان على المسيحيين، مرّة أخرى، أن يعلنوا الحداد على ضحاياهم شبه الحصريين. كذلك، وحده حبل المشنقة كان قادراً على تعزيز الوحدة الوطنية، أما المجاعة فينبغي إخراجها من الذاكرة الوطنية. وبذلك لن تحصل على يوم لإحياء هذه الذكرى. بالمقابل، استقطب عيد الشهداء، عيد الوطنيين المسلمين والمسيحيين، الذين أعدمهم العدو العثماني، كل الاهتمام وشكّل عماد البناء اللبناني الجديد. وهكذا رجحت كفة روح الجماعة التي توحد الشعب حول «الأربعين» شهيدا على الخطاب التقسيمي لـ«متني ألف» شهيد.

ولو أنّ جبل لبنان كرّس استقلاله الذاتي ضمن الحدود المرسومة له في عهد المتصرفيّة، لربما احتلت المجاعة وضحاياها مكاناً آخر في الذاكرة والإيديولوجيا الرسميتين. وما كان الشهداء ليحفظوا ربما بكل هذا الاهتمام، ولتمت معالجة قضية المجاعة بشكل مختلف في جبل لبنان كما كان قبل عام ١٩١٤، بلداً يضم غالبية عظمى من المسيحيين. لكنّ دولة لبنان الكبير التي أعلنت عام ١٩٢٠ كانت أوسع جغرافياً، وتشمل مناطق حيث يحظى المسلمون، الذين ليس لديهم تصوّر مائل للأحداث نفسها، بتمثيل كبير. وهكذا ستخرج كارثة المجاعة من الذاكرة الجماعية لتبقى مسألة شخصيّة؛ كذلك ستظل الذكريات الشخصيّة مكتوبة للأسباب المذكورة سابقاً. ضمن الحدود الجديدة لبلد موسّع وفي مواجهة هذا الوضع الجديد، كان على المسيحيين التعتيم على ذكرى «المتني ألف»، لكي يحيا إلى جانب شركائهم الجدد المسلمين ذكرى النضال المشترك الذي

التاريخ، هل سنستدعي يوماً ما هو مكبوت في الذاكرة؟ على الأرجح كلا، لأن كل ذاكرة وطنية هي، في جوهرها، «كثيرة النسيان» و«انتقائية». وهل هناك حقاً «ذاكرة عادلة»؟^{٥٦} يمكننا ربما «أن نشعر بالارتباك بفعل المشهد المقلق المنعكس من خلال الكثير من الذكريات هنا، والكثير من النسيان في الوقت عينه، هذا بدون ذكر تأثير احتفالات إحياء الذكرى، وسوء استخدام الذاكرة»^{٥٧} وفقدان الذاكرة المفرط.

وهكذا لم تستفد الإيديولوجيا اللبنانية من المتني ألف قتيل الذين دفعت ثمنهم غالباً، وكان بإمكانها أن تستغل ذلك لسحق جمال، حتى وإن كانت سياسة هذا الأخير وإدارته لا تتحملان المسؤولية الحصرية عن هذه الكارثة البشرية. إنما كلا، فضّلت هذه الإيديولوجيا استخدام الوطنيين المعمدين أداة، وذلك عن إدراك تام، بأنهم مثّلوا وسمثلوا أيضاً وحدة اللبنانيين، وهي وحدة زائفة ووهمية إن أنعمنا النظر فيها. لكن أمام محكمة

أود أن أتقدّم بالشكر إلى زميلتي ديان أرملة ربيز وإلى صديقي جوزيف مدور عن المساعدة التي تقدّما بها على مستوى الأبحاث. وأتوجّه بالشكر أيضاً إلى بيار مراد الذي راجع النص والذي من المرحب دائماً باقتراحاته.

فضلاً عن ذلك، تمت مصادرة كل المواد الغذائية التي يمكن صنع الخبز منها من قبل عملاء تركيا، الذين أصبحوا بين ليلة وضحاها، منفذي أحكامها. وحدها أقلية ضئيلة من محبي تركيا كانت مصونة، ومدلّلة، وممّونة، وكانت هي بالتواطؤ مع الطغاة، التي أرست السوق السوداء وسمنت من رفات شهدائها. وبحسب إحصاءات التماسوين والألمان، مات ٣٠٠ ألف لبناني تقريباً من الجوع منذ عام ١٩١٥ حتى عام ١٩١٨، ما قدّر بثلث عدد السكان تقريباً. ما من دولة في العالم قد دفعت ثمناً دموياً ومخزياً إلى هذا الحد عن الحرب.

كانت فرنسا مشغولة جداً بالقتال الذي يدور على أراضيها، وبعيدة كل البعد عن تقديم مساعدة فعّالة إلى أصدقائها في لبنان، الذين كانوا عالقين بين الحدود السورية حيث يبطش الأتراك وساحل البحر الأبيض المتوسط المغلق على أي تبادل. وسفن الخلفاء الحربية التي كانت تجوب المياه قبالة سواحلنا كانت تكثفي بأداء دور المراقب، بشكلٍ سري نسبياً، وتمنع في الوقت عينه إنزال أي قواتٍ أو إمدادات غذائية. وقد استغل العثمانيون ذلك لنفي المطارنة والوجهاء، وشنق الوطنيين البارزين على دفعات، وإبادة الباقين من خلال مجاعة منظمة بشكلٍ منهجي.

الهوامش:

هناك أيضاً نسخة عن هذا النص باللغة العربية وباللغة التركية؛ Cf. Eliezer Tauber, «La Vérité sur la Question Syrienne: A Reconsideration», *Journal of Turkish Studies*, 15, (1991), pp.315-344.

١ Linda Schatkowski Schilcher, *The famine of 1915-1918 in Greater Syria*, in *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective, Essays in honor of Albert Hourani*, John Spagnolo (ed), Ithaca Press, Reading, 1992, p.229.

٥ Élias Hoyek (Patriarche), «Les revendications du Liban, Mémoire de la délégation libanaise à la conférence de la Paix», Paris, 25 octobre 1919, reproduit in *La Revue Phénicienne*, Noël 1919, pp. 238-240.

٢ Djemal Pasha, *Memoires of a Turkish Statesman (1913-1919)*, London, 1922, pp.197-237.

٣ المرجع نفسه، ص. ٢٠٤.

٦ توجد أمثلة عن التقديرات المتعلقة بعدد الضحايا على سبيل الذكر لا الحصر في: سلمى صايغ، التسمات، بيروت، عام ١٩٢٣، الصفحتان ٥٠، ١١٦؛ Henry Bordeaux, *Yarnilé sous les Cèdres*, Paris, 1923, p.292 ; Georges Antonios,

٤ Commandement de la IV^{ème} Armée, *La Vérité sur La Question Syrienne*, Imprimerie Tanine, Stamboul, 1916

La Châtelaine du Liban, 1^{ère} édition en 1924, Éditions Athena, Paris, 1952, pp. 88 – 89.

١٧ ليندا شاتكوفسكي شيلشر، مرجع سبق ذكره، ص. ٢٢٩.

١٨ Samir M. Seikali, «Unequal Fortunes: The Arabs of Palestine and the Jews during World War I», *Studia Arabica and Islamica, Festschrift for Ihsan Abbas*, AUB, Beyrouth, 1981, pp. 399-406.

Philip Hitti, *Lebanon in History*, op.cit., p.484

١٩ لا بد من التذكير بأنّ حتى ينتمي إلى منطقة درزية - مسيحية، وبأنّه عاد إلى لبنان من الولايات المتحدة عند نهاية الحرب العالمية، وكان شاهداً على ما حدث. وقد أثبتت دراسة شخصية قام بها كاتب هذا المقال في الشوف أنّ عائلات درزية عدّة كانت قد ذهبت إلى حوران عادت إلى لبنان عند نهاية الحرب، في حين أنّ عائلات أخرى بقيت هناك بشكل نهائي.
Cf. à cet égard Élisabeth Thompson, *op.cit.*, p. 33.

٢٠ من ذكريات الشيخ علي الزين، من دفتر الذكريات الجنوبية، المجلس الثقافي الجنوبي، دار الكتاب اللبناني، عام ١٩٨١، ص. ٢٢.

٢١ سمعان خازن، تاريخ إهدن القديم والحديث، المجلد الأول، تاريخ إهدن المدني، جوتييه، عام ١٩٣٨، ص. ٢٦٤.

٢٢ فيليب حتي، مرجع سبق ذكره، ص. ٤٨٦.

٢٣ يوسف خطار الحلوة، من نافذتي، دار الفارابي، بيروت، عام ١٩٧٨، ص. ١.

٢٤ للاطلاع على معلومات إضافية، راجع سمعان خازن، مرجع سبق ذكره، الصفحات ٢٦٠-٦؛ الخوري يوسف أبي صعب، تاريخ الكفور: كسروان وأسرهما، جوتييه، عام ١٩٨٥، الصفحات ١٠٣-٥؛ صقر يوسف صقر، تاريخ بيحه وأسرهما في لبنان وبلدان الاغتراب، بيروت، عام ١٩٨٦، الصفحات ٣٤٦-٣٥٤؛ الأب شربل أبي خليل، تاريخ الكحالة، بيروت، عام ١٩٩٧، ص. ٦٥؛ نبيل حنا يوسف، محوم، دراسة تاريخية ديموغرافية دينية، تحوم، عام ٢٠٠٠، ص. ٣٩؛ أنطوان باسيل، البترون، نوادر الأحداث والأحداث، المجلد الثاني، عام ٢٠٠١، الصفحات ٦٧-٧٢؛ جوزيف نعيم شليط، ذاكرة كفرعبيدا (١٥١٩-٢٠٠١)، النسخة الأولى، من دون ناشر، عام ٢٠٠٢، الصفحات ٣٠-٣١.

٢٥ أرشيف مدرسة مار يوحنا مارون - كفرجي (أبرشية البترون)، ملف رقم ٩٣، ذكر في كتاب جان بّجول، الديموغرافيا في منطقة البترون من المتصرفية إلى لبنان الكبير، (١٨٦٧-١٩٦٥)، وذكر في دولة لبنان الكبير (١٩٢٠-١٩٩٦)، منشورات الجمعية اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، رقم ٤٤، بيروت، عام ١٩٩٩، ص. ٢٠٨.

٢٦ *Les Martyrs en Arménie et en Syrie*, Œuvre des Écoles d'Orient, n.330, Octobre 1916, pp. 90-91; *Les Libanais meurent de faim*, Œuvre des Écoles d'Orient, n.332, mai-juin 1917, pp.192-3; Informations diverses, *Syrie*, Les Missions catholiques, n.2564, 26 juillet 1918, p.353; P. François Lahoud, *La famine au Liban*, Les Missions catholiques, n.2589, 17 janvier 1919, pp. 25-26; Th. Malouf, *Les souffrances du Liban pendant la guerre*, Les Missions catholiques, n.2637, 19 décembre 1919, pp. 603-4.

٢٧ محمد نور الدين عارف ميقاتي، طرابلس في النصف الأول من القرن العشرين ميلادي، دار الانشاء للطباعة والنشر، طرابلس، من دون تاريخ، ص. ١٥٢.

٢٨ يوسف شديد، بين السياسة والدبلوماسية، ذكريات ومذكرات، دار النهار، بيروت، عام ٢٠٠١، الصفحات ٢٨-٣٠.

٢٩ راجع شاتكوفسكي شيلشر، مرجع سبق ذكره، الصفحتان ٢٢٩-٢٣٠، الملاحظات ٣، ٤، ٥، و٦.

The Arab Awakening, London, 1946, p.241; D'après les sources des pères Jésuites, «sur quelque 400.000 habitants de Beyrouth et du Mont-Liban, la Croix-Rouge recense 190.000 morts; des villages entiers ont disparu», Association Amicale des Anciens Élèves, *Livre d'Or du Cinquantenaire*, Université Saint-Joseph, Beyrouth, 1949, p. 31; William Nimeh, *History of the Lebanon illustrated*, Mexico, 1954, p. 287; Philip Hitti, op.cit., p. 217; لحد خاطر، عهد المتصرفية في لبنان، منشورات الجمعية اللبنانية، بيروت، عام 1967، p. 200; Nicolas de Bustros, *Je me souviens*, Librairie Antoine, Beyrouth, 1983, p. 19; Pierre Fournié & Jean-Louis Riccioli, *La France et le Proche-Orient (1916-1946)*, Casterman, 1996, p. 97.

٧ ليندا شاتكوفسكي شيلشر، مرجع سبق ذكره، ص. ٢٢٩.

٨ المرجع نفسه، ص. ٢٣٤.

٩ Nicholas Z. Ajay, Jr., *Political intrigue and suppression in Lebanon during World War 1*, IJMES, 5, 1974, pp. 376-7; يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، بيروت، عام ١٩٩١، ص. ٢٤٩.

١٠ تحاول شاتكوفسكي شيلشر (مرجع سبق ذكره، ص. ٢٣٦) شرح الأسباب التي دفعت جمال باشا إلى فرض الحصار الغذائي وتسعى من خلال ذلك إلى تبرئته من الاتهام بأنه أراد عن عمد تجويع جبل لبنان.
Reproduction de la Bibliothèque orientale Charles CORM, «Le Martyre de Oum Farid et la Madonne aux Sept-Douleurs», Extrait de *Les Miracles de la Madonne aux Sept-Douleurs*, Éditions de la Revue Phénicienne, Beyrouth (1948-1949).

١١ Hasan Kayyali, *Arabs and Young Turks*, University of California Press, 1997, p.199.

١٢ المرجع نفسه؛ تكتمت دراسة أقدم عهداً عن ذكر الحصار الغذائي:
Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism*, Caravan Books, New York, 3^{ème} édition, 1973, p. 111.

١٣ إنّ قيام جمال باشا بإصدار أمر بتوزيع مواد غذائية في مراحل معينة للتعبير عن رضاه أو التباهي بكرمه (وجهتُ إليه برفقات شكر، وخطابات وقصائد مديح)، لا يمكن أبداً أن يخفف من مسؤوليته، فلو لم يتخذ القرار بفرض الحصار، لعانى جبل لبنان بالتأكيد من المجاعة شأنه شأن المحافظات السورية الأخرى، وربما حتى بوطانة أشد، لكنّ سكانه ما كانوا ليقضوا أبداً بهذا الشكل، فللتمكن من البقاء في منطقة تحت الحصار، لا بد من الاعتماد على التهريب، أو ترك المرء لأرضه كما فعل الكثير من دروز الشوف عبر الهجرة كعائلات كاملة عند إخوانهم ممن يعتنقون الديانة نفسها في حوران. وما أنّ المسيحيين ليست لديهم أي قاعدة خلفية يتراجعون إليها غادروا منازلهم بشكل فردي أو ضمن مجموعات صغيرة ليزداد عدد المعدمين في المدن الساحلية أو الداخلية، وبطريقة أو بأخرى لو استمرت الحرب لفترة أطول، لأفضى قرار فرض الحصار في النهاية إلى إفراغ جبل لبنان من سكانه.

١٤ Jacques Tabet, «Lettre Ouverte au Général Gouraud», *La Revue Phénicienne*, Noël 1919, p. 219; Jean Donon, «La Rescison des Ventes de Guerre au Liban», *L'Asie Française*, Janvier 1922, pp. 16-21
في منطقة مجاورة لجبل لبنان في تلك الحقبة، تُروى قصة آغا قاياض بستان زيتون كامل مقابل ليمونة للتمكن من البقاء على قيد الحياة.
Cf. Michael Gilsenan, *Lords of the Lebanese Marches: Violence and Narrative in an Arab Society*, Berkeley, University of California Press, 1966, pp. 113-156.

١٥ إسكندر رياضي، نسوان من لبنان، دار الثقافة، عام ١٩٦١، ص. ٧٧-٨٠؛ إسكندر رياضي، الأيام اللبنانية، بيروت، من دون تاريخ، ص. ٥١؛ Éveline Bustros, «Sous la Baguette du Coudrier», *Romans et Écrits Divers*, Beyrouth, 1988, p. 193; Philip Hitti, op. cit., p. 484; Cf Elizabeth Thompson, *Colonial citizens*, Columbia University Press, 2000, p. 27.

١٦ أنطون بّين، لبنان في الحرب، المجلد الثاني، مصر، عام ١٩٢٠، الصفحات ٢٥-٤٣؛ H. Lammens, *La Syrie, précis historique*, Tome II, Beyrouth, 1921, p. 252 Pierre Benoît,

٣٠ Cf. Tableau Statistique, 1913, in Albert Naccache, «Notre Avenir Économique», *La Revue Phénicienne*, juillet 1919, p. 8. Cf. également Tableau Statistique, 1912-1913, in Paul Noujaim, «La Question du Liban, Étude Politique, Économique et Statistique», *La Revue Phénicienne*, août 1919, p. 71.

٣١ راجع ذكريات الأمير شكيب أرسلان، نجيب البعيني (الناشر)، بيروت، عام ٢٠٠١، الصفحات ٤٣، ٤٩، ٥٩، ٨١، و ٢٤٩-٢٥٠، ومواضع مختلفة. يجمع العمل المذكور من بين أشياء أخرى مقالات نشرها شكيب أرسلان في مجلة المنار (القاهرة) عام ١٩٢٢ كما في مجلة الأمة العربية عام ١٩٣١-٢؛ راجع أيضاً المقدمة التي كتبها الأمير شكيب أرسلان لكتاب إدمون رباط، التطور السياسي لسوريا أثناء الانتداب *L'évolution politique de la Syrie sous mandat*، باريس، عام ١٩٢٨، الصفحات ١٢-١٤؛ ونجوى بارودي، هل قصد الأتراك تجرير اللبانيين؟، الزميل، الجامعة العربية في بيروت، الرقم ٢٢، أيلول/سبتمبر عام ١٩٩٣، الصفحات ٢٨-٣٠.

٣٢ للحصول على لائحة بهذه الصحف، انظر إبراهيم حرفوش، دلائل العناية الصمدانية، جونيه، عام ١٩٣٤، ص. ٥٥٥.

٣٣ المرجع نفسه، الصفحات ٥٥٣-٥٥٩.

٣٤ عبدالله خوري (المطران)، صفحة تاريخية من أيام الحرب، البشير، أول آذار/مارس ١٩٢٢، الصفحتان ١-٢.

٣٥ De France à Aristide Briand, Le Caire, 19 mai 1916, A.M.A.E., *Guerre 1914-1918*, Turquie, Tome 872, ff. 216-216v, cité in Arthur Beyerlián, *Les Grandes Puissances, l'Empire Ottoman et les Arméniens dans les Archives Françaises, 1914-1918*, Publications de la Sorbonne, Paris, 1989, p. 205.

٣٦ رسالة إلى ماري هاسكل، ٢٦ أيار/مايو ١٩١٦، في غازي فؤاد براكس، جبران خليل جبران، بيروت، ١٩٧٣، ص. ٢٢٠.

٣٧ إلياس الحويك، مرجع سبق ذكره، ص. ٢٤٠.

٣٨ إدمون رباط، مرجع سبق ذكره، الصفحتان ٣٨ و ٢٦٣.

٣٩ جورج أنطونيوس، مرجع سبق ذكره، ص. ٢٤٢.

٤٠ مذكرات سليم علي سلام (١٨٦٩-١٩٣٨)، حسان حلاق (الناشر)، بيروت، عام ١٩٨٢، الصفحات ٢٠٣-٢٢٧.

٤١ H. Lammens, op.cit., p. 220; *Mufakkarat Hind*, Harisa, 1924, p. 139; Halide ٤١ Edib, *Memoirs of Halide Edib*, New York, The Century Co, 1926, p. 451, cité in Thompson, op.cit., p. 20;

جرجس الخوري المقدسي، أعظم حرب في التاريخ، بيروت، النسخة الثانية، عام ١٩٢٧، الصفحات ٦٨-٧٠؛ كان الكاتب المعني أستاذاً في الجامعة الأميركية في بيروت؛ إبراهيم بك الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، المجلد الثالث، بيروت، عام ١٩٣٠، الصفحات ٥٤-٧٤؛ يوسف الحكيم، مرجع سبق ذكره، ص. ٢٥١.

٤٢ محمد جمال بيه، العهد المخضرم في سوريا ولبنان، ١٩١٨-١٩٢٣، بيروت، عام ١٩٦٨، الصفحتان ١٨٦-٧.

٤٣ المرجع نفسه، الصفحات ١٨٨-١٩٤.

٤٤ المؤتمر التكريمي للذكرى الثلاثين لرحيله، المهاجر العالمي الشيخ حبيب آل إبراهيم، المستشارية الثقافية للجمهورية اللبنانية في لبنان، عام ١٩٦٦، الصفحتان ٤٢، ٤٤؛ محمد جابر الصفا، تاريخ جبل عامل، بيروت، عام ١٩٨١، ص. ٢٠٢؛ الإمام السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، بيروت، عام ١٩٨٤، المجلد العاشر، ص. ٣٦٧؛ حسن الأمين، حل وترحال، بيروت، عام ١٩٩٩، ص. ١٣.

٤٥ الشيخ علي الزين، من أوراقي، بيروت، من دون تاريخ، الصفحات ٧-٦١.

٤٦ من ذكريات الشيخ علي الزين، مرجع سبق ذكره، ص. ٢٧.

٤٧ الشيخ سليمان زاهر، جبل عامل في الحرب الكونية، بيروت، عام ١٩٨٦، الصفحات ٤٣-٤٧.

٤٨ لذكر مثال واحد عن مجلة ناطقة باللغة الفرنسية، تطرق ما لا يقل عن ثمان مقالات في مجلة *La Revue Phénicienne* عام ١٩١٩ إلى مسألة المجاعة وعواقبها الكارثية.

٤٩ أنطون بّين، لبنان في الحرب، المجلد الأول، بيروت، عام ١٩١٩؛ أنطون بّين، لبنان في الحرب، المجلد الثاني، مصر، عام ١٩٢٠، مرجع سبق ذكره؛ لطف الله نصر البكاسيني، نبذة من وقائع الحرب الكونية، بيروت، ١٩٢٢؛ أنطون بّين، *Quatre ans de misère*، القاهرة، عام ١٩٢٢؛ جرجس الخوري المقدسي، أعظم حرب في التاريخ، مرجع سبق ذكره، الصفحات ٥٧-٥٨، ٦٣-٧٠؛ راجع الصورة التوضيحية في *Blanche Lohéac-Ammoun. Histoire du Liban*, Beyrouth، ١٩٤٨، الصفحات ١٧٤-١٧٥؛ ميخائيل إسحق التجار، حديث تاريخي عن الكورة ويشمزين، مطبعة الأديب، طرابلس، عام ١٩٥٢، ص. ٢٥؛ إبراهيم نعم كنعان، لبنان في الحرب الكبرى (١٩١٤-١٩١٨)، بيروت، عام ١٩٧٤، الصفحات ١٦٣-١٦٩، انظر الصور التوضيحية؛ إبراهيم كنعان، هلاك لبنان (١٩٠٨-١٩٨٠)، من دون ناشر، عام ١٩٨٠، الصفحات ١٤٥-١٥٠، انظر الصور التوضيحية؛ يوسف حداد (الخوري)، اللبانية، رسالة في نكبات الحرب إلى المهاجرين، دار عصام حداد، جبيل، النسخة الثانية، من دون تاريخ.

٥٠ توفيق يوسف عوّاد، الرغيف، بيروت، عام ١٩٣٩؛

Charles Corn, «Conte de Pâques», in *Les Miracles de la Madonne aux sept-Douleurs*, Éditions de la Revue Phénicienne, Beyrouth, 1949, pp. 1-62.

هذه القصة موجّهة إلى الأسماء جميعاً اللواتي يعانون بسبب جوع أطفالهن؛ الصور التوضيحية التي تمثل أشخاصاً يتضورون جوعاً، نسخت «من دفتر رسومات مستوحاة من الواقع المعيش وقد أعدها المؤلف في شوارع بيروت خلال مجاعة ١٩١٥-١٩١٨»؛ إفلين بسترس، مرجع سبق ذكره، الصفحات ١٩٢-١٩٤، ١٩٧-١٩٩. راجع أيضاً روايات لكتاب فرنسيين يرددون صدى ويلات المجاعة في جبل لبنان: هنري بورديو، مرجع سبق ذكره، الصفحة ٢٩٢؛ Pierre Benoît, Op. Cit، ٨٨-٨٩-٩١.

٥١ ب. خويري، الرحلة السورية في الحرب العمومية في ١٩١٦، المطبعة البوسفيّة، مصر، عام ١٩٢١؛ بشارة البواري، مذكرات بشارة جرجس البواري عن أربع سنين الحرب من سنة ١٩١٤-١٩١٨، طبعة الهدى، نيويورك، عام ١٩٢٦؛ راجع Toufic Touma, *Évasions*, FMA, Beyrouth، ٢٠٠٠؛ أنيس فريحة، قبل أن أنسى، مطبعة جروس، طرابلس، من دون تاريخ، الصفحات ٤٩-٥٩؛ أنظر أيضاً مذكرات الخوري إسطفان البشعلاني، في عصام كمال خليفة، شخصيات بارزة في تاريخ لبنان المعاصر، بيروت، عام ١٩٩٧، الصفحات ١٠٨-١١٠.

٥٢ راجع «الجوع والمجاعة» في جريدة لسان الحال، ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨، الصفحة ١؛ داوود موسى، «إتسامة النصر»، جريدة لسان الحال، ٢ شباط/فبراير ١٩٢١، الصفحة ١؛ سلمى صايغ، مرجع سبق ذكره، الصفحات ٥٠، ٥٥، ٥٨، ١١٦؛ نجيب مراد، ديار بكري، سنين الغلاء، طرابلس، من دون تاريخ، في عشرينيات القرن الماضي رما، قصيدة باللغة العامية؛ ميخائيل نعيمة، قصيدة «أخي»، في مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١، دار صادر ودار بيروت، بيروت، عام ١٩٦٤، الصفحتان ٢٧-٢٨؛ صقر يوسف، مرجع سبق ذكره، الصفحات ٣٥٠-٣٥٤؛ جبران خليل جبران، «مات أهلي» في العواصف، دار الجميل، بيروت، عام ١٩٩٧، الصفحات ١٨٩-١٩٦.

٥٣ يوسف بطرس سعد، نجم المجوس، مرجع سبق ذكره.

٥٤ Elizabeth Thompson, op.cit., p. 27, 30.

٥٥ أنطون بّين، مرجع سبق ذكره، المجلد الثاني، عام ١٩٢٠، الصفحات ٢٥-٤٣.

٥٦ Paul Ricoeur, *La Mémoire, l'Histoire, l'Oubli*, Paris, 2000, p.1.

٥٧ المرجع نفسه.

شهادة الأب يمين «تجارة الأرواح أرباحها أرواح»

الأب أنطون يمين

مؤلف كتاب

«لبنان بعد الحرب

١٩١٤-١٩١٩»

بيروت، المطبعة

الادبية، ١٩١٩.

صدرت أوامر الحكومة بتأليف شركة (بيروتية - لبنانية) عهد إليها جلب الحبوب بأسعار متهاودة إلى ذوي الفاقة من أهل بيروت ولبنان، وجعل مستودع تلك الشركة في قرية حدث بيروت من أعمال لبنان. فتراكضت الأقوام إلى ذاك المستودع من بيروت ومن سائر أنحاء الجبل. وكان جميعهم وقد خلت منازلهم من ذرة من الحبوب يقتتلون في سبيل الحصول على الكمية القليلة من الحنطة أو من الشعير أو من الذرة.

وكان يجب على من يبغى الحصول على شيء من الحبوب أن يكون مصحوباً بمصادقة من شيخ صلح قريته أو من أحد مختاريها. وتوفيراً لراحة الأهلين الذين كانت شدة المتاعب أثقلت كواهلهم اعتمد شيوخ القرى ومختاروها على طريقة هي في معتقدتهم ملائمة للصالح العام، وهي أنهم اختاروا مندوباً أو أكثر كلف نيابة عن الأهالي باستجلاب الحبوب إليهم من مستودع الحدث. وكثيراً ما كان يصادف أولئك المندوبون أنواع العذاب في سبيل الوصول إلى بغيتهم.

ومن حرم منهم من معرفة أحد المقربين إلى مديري الشركة، كانت تضطره الظروف إلى قضاء أيام بلياليها في أرض الحدث تحت وابل الأمطار وعرضةً لسموم الرياح. وقيل لنا إنه كان من المستحيل مواجهة مدير تلك الشركة الجالس على عرش المجد سيان عند جلالته قضى الناس حاجاتهم أم لا.

مراكز الإعاشة

ثم ما طال الأمر حتى قرّرت الحكومة تسهياً للمندوبين أن تجعل مستودعاً خاصاً لتلك الحبوب في كل مركز من مراكز قائم مقاميات الجبل. فكلّفوا بتوزيع الحبوب أناساً فطروا ويا للأسف على

وما دخل علينا شهر شباط من تلك السنة حتى أخذنا نشعر بشدة الوطأة وثقلها. وبعد أن كنا نعلل النفس بقرب انتهاء تلك الحرب الطاحنة دبّ اليأس في كل القلوب وبتنا نتوقع هجوم البلايا بأنواعها على جبلنا التاعس.

غلاء ومصادرة الحبوب

ابتدأت أسعار الحنطة بالارتفاع، وكانت قبل ذلك قد تصاعدت أثمان باقي الحبوب (العدس والحمص والفاصوليا والشعير والذرة) وكل حاجيات المعيشة (الكاز والأرز والسكر، إلخ)، ولزيادة شقاء هذا الجبل كان شتاء تلك السنة قاسياً وكانت أمطاره غزيرة وثلوجه متوالية، الأمر الذي أقام أمام اللبناني السدود والحواز البرية فتصعبت من جرّاء ذلك طرق المواصلات بيننا وبين الولايات المجاورة لنا. وكانت دول الحلفاء قد أوصدت بوجهنا أبواب البحار فابتدا الضيق والفقر والحرمان تخيم على ربوعنا المسكينة.

أما أرباب الحكومة البيروتية الذين كانوا يدأبون طبقاً لرغائب جمال [باشا] بإيجاد الطرق المضرة بصوالح الجبل، فإنهم أخذوا الحيلة لمنع الغلال من دخول لبنان. وإذا تسنى لأحدنا جلب شيء من الحبوب بنوع من الأنواع كانت المفرزة العسكرية المشتتة في سائر جهات لبنان تضع يدها عليه مدّعية أنها بشديد الحاجة إلى الحبوب لأجل إطعام الجيش الذي يحارب دفاعاً عن الوطن والدولة. واحسرتاه! كيف يعيش جبل صخري سدّت في وجهه كل أبواب الارتزاق؟ الدولة التي تحكمه أقفلت أمامه أبواب البر والدول التي تحاربها أوصدت أبواب البحر. لا ملجأ له ولا معين. علا صراخنا وعويلنا حتى طبّق الفضاء ولجأنا إلى بعض الرؤساء فتدخلوا في الأمر. وبعد اللتي

عنهم شديد ويلات، فإن أكثر المنازل كانت قد فرغت من المؤونة فضلاً عن أن المخزون من الحبوب عند تجار هذا الصنف لم يكن بالشئ الذي يعتد به ولم يكن التجار قد احتاطوا لتلك المسألة التي حدثت مباغتة.

وفي الحادي عشر من آذار سنة ١٩١٥ أصدر جمال باشا أمراً مشدداً بوجوب إبعاد المؤن والأغلال والحاصلات والعربات والحيوانات وسائر مسببات النقل الموجودة في القرى الساحلية إلى الداخلية البعيدة، وأكد جمال باشا على مأموري الحكومة أن يلتزم الأمر بالعجلة الممكنة وأشار إليهم أن يحرقوا ما يتبقى من الحبوب في المخازن فيما لو تسنى للأعداء أن ينزلوا على الشواطئ لأجل احتلالها. فشمّل الخوف سائر القرى الساحلية فابتدأ سكانها بالهرب بمواشيهم وغلاليهم. وإننا نذكر أن عدداً كبيراً من اللبنانيين أرباب المواشي ذهبوا معظمها فهبطت إذ ذاك أسعار اللحوم إلى أبخس الأثمان.

وفي اليوم الثالث عشر من آذار، أصدر أوهاانس باشا أمراً مبنياً على أمر محمد رضا باشا قومندان بيروت ولبنان بفض مجلس إدارة الجبل وبوجوب انتخاب أعضاء جدد ينوبون عن الشعب ويخلصون الخدمة (على قول محمد رضا) للدولة التركية. فانفرط عقد ذلك المجلس وكان قد أصبح أكثر أعضائه في المنفى.

وفي تلك الآونة أخذت الحكومة العسكرية من مخازن التجار البيرونيين كل ما رآته لازماً لها من حديد وأخشاب وكلس إفرنجي وترابجية وإفرنجية وأقمشة متنوعة وأعطت لقاء ذلك أصحاب تلك البضائع وثائق بالثمن الذي رآته ملائماً لها، ودعوا ذلك السلب والنهب «التكاليف الحربية».

ملتزمو الخطب

ولما أوجدت الحكومة البائدة وثائق المحروقات أخذ بضعة أشخاص على عاتقهم مسألة تقديم الخطب اللازم لخدمة الدولة. وقد أطلق على هؤلاء الأشخاص لقب «ملتزمي الخطب».

وأعطى أولو السلطة أولئك الملتزمين أمراً خطياً يمكنهم من قطع كل ما يروونه موافقاً من الأشجار بدون معارض ولا منازع وبالأثمان البخسة التافهة. فاستلم الملتزمون ذلك الأمر الخطي وفرّق كل منهم عماله في الجهات المخصصة له من لبنان (كانت الحكومة خصصت لكل من الملتزمين ناحية أو أكثر من أقضية جبل لبنان لأجل قطع الأجرار وتقديم الخطب للسكة الحديدية).

الطمع واللصوصية. ولا تسلب عن كميات التراب التي كانت تضاف إلى تلك الحبوب الواردة علينا عن طريق أولئك الموزعين الأمناء. ألف راية بيضاء على أرباب مستودع الحدث! كانوا على الأقل يبيعوننا حبوبهم خالية من التراب!

وقد أفادنا الواقفون على حقيقة الأمر أن مأمور التوزيع في قضاء المتن (جورج مزهر من بصاليم) ابتطن من وراء وظيفته واستحلّ ازدراء مبلغ من المال لا تقل قيمته عن خمسة آلاف ليرة. هل بقي المبلغ بتمامه في جيبه أم أنه أعطى معلّمه (المير فايز شهاب قائم مقام المتن في ذاك العهد) قسماً منه؟

ولم تكن تلك الشركة لتسدّ عوز الشعب الجائع لا سيما وأن الحكومة لم تكن تسمح إلا بإخراج القليل من مقادير الحبوب من الولايات الداخلية، فضلاً عن أن بعض الأغنياء كانوا بكل دناءة يزاحمون الفقراء على كسرة من خبز تلك الحبوب.

كانت الخواطر في لبنان وبيروت تزداد اضطراباً من جراء ارتفاع الأسعار المتواصل في كل حاجيات المعيشة ولاسيما من جراء قلة ورود الحبوب من الداخلية.

وشعرت الحكومة البيروتية أن خواطر الشعب قد هاجت من جراء قلة الحبوب في المدينة، فارتأت أن تشغل الأفران على حساب البلدية وتوزّع الخبز على بيوت المعوزين، فعينت في كل من أحياء المدينة أشخاصاً يوزعون جريات العيش على الأهالي، فكان يصيب كل فرد منهم أوقية خبز في النهار. ولقد كان الشعب يرضى بطيب خاطر لو صار التوزيع منظماً. غير أن الموزعين الأنذال كانوا يأكلون نصف المخصص للشعب فضلاً عن أن البلدية كانت توزع الخبز يوماً وتقطعه يومين. وسنعود إلى الكلام عن الأفران والجريات في فصل آخر من فصول هذا التاريخ.

أوامر جمال باشا

وكانت الخواطر في لبنان وبيروت تزداد اضطراباً من جراء ارتفاع الأسعار المتواصل في كل حاجيات المعيشة ولاسيما من جراء قلة ورود الحبوب من الداخلية. ولم يكن من حيلة للأهالي في محاربة ذلك الغلاء وفي دفعه

وكانت الغاية من تلك التذاكر على ما قاله مجلسنا النيابي، أن يتمكن اللبناني الحامل تلك التذكرة من التجول في أراضي الولايات العثمانية بدون منازعة من قبل أولئك المفتشين الذين كانت الحكومة التركية قد وزعتهم في النواحي العديدة ليسوقوا إلى الخدمة العسكرية كل أبناء الولايات الذين كانوا يفرون من وجه شعب أخذ العسكر.

ولا يخفى أن الكثيرين من البيروتيين والدمشقيين والحلبيين وغيرهم من باقي السوريين تمكنوا من النجاة من الخدمة العسكرية بواسطة تلك التذاكر اللبنانية، فإنهم انتحلوا لهم الأسماء الجديدة ولجأوا إلى بعض الشيوخ والمختارين في لبنان واشتروا منهم تلك التذاكر لقاء مبالغ مالية متنوعة: منهم بكثير ومنهم بقليل حسبما كانوا يتفقون مع أولئك الشيوخ والمختارين.

وما قطعنا الأيام الأولى من شهر شباط سنة ١٩١٧ حتى هبطت عملة الورق التركي هبوطاً فاحشاً جداً وكانت نتيجة ذلك السقوط أن التجار في كل البلاد السورية رفعوا أثمان بضائعهم وحوائجهم إلى درجة فاحشة للغاية. وأعظم الضربات كانت ضربة غلاء الحنطة وباقي الحبوب التي انقطع عنا واردها أو كاد من جراء العسكرية التركية والعسكرية الألمانية-النمساوية التي كانت قد تفرقت في كل الجهات والنواحي. فبتنا ننتظر الموت يوماً تلو الآخر.

إلى من نرفع الشكوى؟ إلى ذاك القائد السفاح أم إلى ذاك الحاكم الظالم أم إلى ذاك الزعيم المنافق؟ كان كل منهم يجيب بخشونة وفظاظه:

«ليمت لبنان ولتمت بيروت في سبيل إحياء الجيش الذي يحارب، إن الجنود في حاجة إلى الحبوب أكثر من اللبنانيين والبيروتيين».

كانوا يقولون ذلك وأكداس الحبوب في مستودعات الجند نخرها السوس فأصبحت قشوراً لا فائدة منها للجنود أو لغيرهم.

الربا أو تجارة الأرواح

علا صراخنا وطبق عويلنا الفضا. لا جدوى لنا! بعنا كل مقتنياتنا وهدمنا بيوتنا وبعنا أخشابها وسقوفها وحجارتها، وتشتتنا في المدن وفي السهول وملأنا أرض البقاع وبعليك وصحراء الشام وجبال حوران وشط الفرات، فقتلنا الأوبئة وأفنانا الجوع وملأت جثثنا الطرقات والآجام والأودية والغابات، وأكلت لحماننا طيور

وتملصاً من الخدمة العسكرية لجأ إلى الملتزمين عدد عظيم من أبناء بيروت متعهدين لهم بتقديم الكميات الكبيرة من قناطر الخطب. ولقاء مقدار معين من الخطب كان الملتزمون يسلمون أولئك المتعهدين وثيقة إعفاء من الخدمة العسكرية. وهذه هي الوثائق التي سموها «وثائق المحروقات».

هبطت عملة الورق التركي هبوطاً فاحشاً جداً وكانت نتيجة ذلك السقوط أن التجار في كل البلاد السورية رفعوا أثمان بضائعهم وحوائجهم إلى درجة فاحشة للغاية.

ومن جراء صعوبة النقل كثيراً ما كان يتعذر على بعض المتعهدين القيام بما تعهدوا به من تقديم الخطب، فكانوا يضطرون ارتضاءً لخواطر أولئك الملتزمين أن يسيروا على الخطة التركية أي خطة الرشوة. وبهذه الوسيلة امتلأت من المال جيوب الكثيرين من الملتزمين الأماجد.

وليسمح لنا أولئك الملتزمون (ولنا بينهم أصدقاء) أن نشي الثناء العاطر على أريحية أحدهم جورج بك ثابت، فإنه بواسطة التزامه الخطب أنقذ من الخدمة العسكرية وبدون ما بدل مالي لا أقل من خمسين شاباً بيروتياً لجأوا إليه.

ولا يخفى على كل من تنزه عن الغايات أن جورج بك خسر من جيبه الخاص في مسألة الالتزام المشار إليه مبلغاً من المال يزيد على ٥ آلاف ليرة عثمانية.

وكانت نتيجة وثائق المحروقات أن لبنان تعرّى من أحراره ومن أشجاره بعد أن كان غاصا بالغابات التي كان الشعب يستخرج منها ما يحتاجه من الأخشاب الصلبة لصنع مراكبه الضخمة التي ألف منها في سالف الأيام أساطيل كبيرة كانت تحمل تجارة اللبنانيين إلى أطراف المعمورة.

تذاكر نفوس للبيع

وفي أول عهد الحرب كانت الحكومة اللبنانية قد أوجدت في الجبل أوراق تذاكر النفوس فأرسلتها إلى قائممقامي الأقضية، وهؤلاء وزّعوها على الأهالي بواسطة شيوخ الصلح والمختارين. وأوجبت الحكومة على الشيوخ والمختارين أن يعطوا كل نسمة لبنانية تذكرة - (الذكور والإناث من ابن يوم إلى ابن مئة سنة) - وعيّنوا ثمن التذكرة الواحدة ستة قروش تركية.

ويسوغه ضميرهم ويأمر به دينهم. ولسنا ندري كيف يكون مصير تلك الديون بعد نهاية الموراتوريوم وكيف تحكم الحكومة التي نلقت أنظارها إلى هذا الأمر الهام طالبين من عدالتها أن ترأف بحالة الضعيف الذي أراد الغني أن يبتلعه في عهد الحكومة البائدة الظالمة.

مشاهد الجوع

سرح يا أخي طرّف مقتلتك في رياض جبلك العزيز، في تلك السهول الفسيحة الأطراف الخصيبة الأكتاف وأبك ذاك الجبل الأشمّ موطن المردة ومرضى الأسود وبلاد الأنبياء ومهبط الشرائع والإديان.

أبك ما استطعت بكاء ما وجدت في العين دمعاً فقد زرئت الأرض بمن كانوا أعظم سكانها وفاءً وأكرمهم خلقاً. أبك وطناً تفشّت فيه المجاعة وعمّت الفاقة وسرت الأوبئة ومشى موكب الموت تتقدمه المخاوف والرهبات، فاشتدّ الضيق بالأهلين ونفدت أقواتهم وخلت منازلهم بعد أن سدّ الظلام طرق الفرج في وجوههم وغزا الجراد حقولهم ومروجهم فالتهم الأخضر واليابس.

من ذروة لبنان وقاع وديانته، من سهوله وحزونه، من مراتع الحضيرة ومسارحه البدوية من كل قرية من قرأه ومن كل بيت من بيوته ومن كل كوخ من أكواخه يسير موكب الموت يسوق أمامه بسياط الخوف والجوع والشقاء الألوف المؤلفة من أبنائه الناعسين.

انزل إلى المدينة تبصّر هناك شيوخ لبنان وأطفاله ورجاله ونساءه يسارعون من أعلى الجبال إلى الشوارع والأسواق جاثين يئنون من ألم البرد القارس والجوع المهلك. يقفون بين الأونة والأخرى وينظرون إلى الجهات الأربع وليس من يناولهم كسرة من الخبز ولا حفنة من الدقيق ولا فلذة من فضلات الطعام.

هناك في الأسواق عويل الصغار الجائعين، هناك في الأزقة أنين الشيوخ المدنفين، هناك على الطرقات دموع الأمهات يعلّن بها أطفالهن، هناك في الشوارع ومنعطفاتها الشبان منطرحون وهم غائبون عن الصواب لشدة جوعهم، هناك في أقينية الماء الشيوخ راقدون على الوحول وقد أغمضوا عيونهم وعلت صفرة الموت وجوههم.

هناك في الساحات الأولاد يبحثون في الزباله عليهم يعثرون على قشور الفاكهة وعلى العظام القذرة، هناك في أسواق الخضر النساء يلتقطن فضلات الأعشاب والأوراق الذابلة العفنة، هناك تحت منازل الأغنياء

السما والوحوش البرية، وبقيت عظامنا وجماجمنا منتشرة مطروحة هنا وهناك تذكراً مفجعاً لمن يدوس بعدنا أرض لبنان ويتأمل بشقائنا في إبان تلك الحرب الضروس.

هذه كانت حالة الشعب البائس من الجوع والتعاسة، بينما كان القسم الأكبر من أغنياء البلاد وزعمائه يتنعمون بكل الملاذ، يولمون الولائم الفاخرة ويحيون الليالي المطرية ويختلفون إلى المنتديات العمومية ونوادي اللعب حيث يقتلون أوقاتهم وينفقون أموالهم الطائلة غير مفكرين بإغاثة الملهوف ولا مبالين بدموع اليتيم وبكاء الأرملة وعويل العاجز والمقعّد.

وكان من عهد إليهم من الأتراك أمر الاهتمام بالرعية وبتخفيف الضائقة عن الشعب الضعيف المنهوك القوى يبحثون عن الطرائق المهلكة التي من شأنها الإسراع بإبادة الأهالي، فمتعوا بتاتاً جلب الحبوب من الداخلية وأقفلت مؤبداً الأفران التي تشتغل لإطعام الشعب.

من بقي منا في قيد الحياة وكان لم يزل له بيت أو أملاك لجأ في تلك الآونة الشديدة إلى تجارة الرباء. أو إذا شئت قل تجارة الأرواح. فأعطوا من شاءوا خمسين ليرة تركية من صنف الورق تساوي قيمتها على الكثير خمسين ريالاً مجيداً وأخذوا منه لقاء ذلك بيتاً وأملاكاً لا تقل قيمتها عن ألف ليرة ذهباً.

أبك ذاك الجبل الأشمّ — م موطن المردة ومرضى الأسود وبلاد الأنبياء ومهبط الشرائع والإديان.

وقد تنوّعت في تلك الأيام قروض أولئك المتمولين، فمنهم من اشترى جنينة طويلة عريضة بيضع أذرع من الشيت أو الحام أو الكتان، ومنهم من تملك بستاناً من الزيتون لا تقلّ مساحته عن فدّانين أو ثلاثة لقاء ذراع من الصوف أو الجوخ المخزون في محله التجاري، ومنهم من صارت له كروم العنب وأراضي التين الواسعة لقاء كم شمسية وكم منشفة وجه وكم فوطه سفرة. ومنهم من تملك المروج الغنّاء والسهول الخصيبة لقاء عشرين أو ثلاثين ورقة تركية.

هكذا أقرضنا المرابون أموالهم، واليوم بعد أن وضعت الحرب أوزارها يريدون أن يتقاضوا لبرتهم التركية التي كانت تساوي عشرين غرشاً تركياً ثلاثمائة وأربعمئة وخمسمائة غرش مصري. وهذا ما يجيزه لهم وجدانهم



الزفرات والأثأت، هناك أشباح المساكين تتكلم بلسان الحزن والتوجع. هناك تحت قصور الحكام الظالمين النابذين ظهرياً سنن العدل ونواميس الحق أصوات المظلومين تنادي وتستغيث.

هناك تحت دور المرايين والمحتركين من ضاقت خزانهم بالذهب والجواهر ومن آذخروا لنفوسهم ولذويهم الحبوب وكل لوازم الحياة، هناك العذاري النادبات والأرامل الثاكلات واليتامي المتضورون جوعاً والفقراء المستعطفون الملتمسون فتاتاً من الخبز متساقطاً عن مواثد أولئك الطئاعين المستكبلين.

هناك تحت دور هؤلاء القوم الذين باعوا ضمائرهم ففقدوا الشعور الرقيق وماتت فيهم العواطف الشريفة ونسوا معنى الأخاء والمحبة، هناك هناك المئات لا بل الألوف من الرازحين الواهنين الساقطين، هناك الأيادي الممدودة، هناك الأرواح المناجية، هناك الأعين الباكية، هناك الأصوات المنادية بأصوات الأنين والاستغاثة: «جوعان! عريان! بردان! ألا من يتصدق على هذا الشحاذ بكسرة من الخبز؟ ألا من يناوله قليلاً من فضلات طعام خدمه! ألا من يرحمه ويحسن إليه بعظم من العظام التي ترمى للكلاب والهررة! ألا من يستر جسمه بقطعة من القماش البالي؟ ألا من يتكرم بإدخاله إلى كوخ من أكواخ عبيده ويوقد له ناراً تدفئ برده؟». واحسرتاه ما أقل السامعين!

وأأسفاه انظر إلى أولئك المساكين! إنهم يتساقطون هنا وهناك كورق الخريف! واويلاه! تتلاشى أجسامهم عضواً عضواً فيموت جميعهم تباعاً عراً حفاةً يساعد البرد الجوع في اختطاف أرواحهم الطاهرة وتتراكم جثثهم في كل الأماكن والزوايا. وأأسفاه!

هكذا مات أهل لبنان وسراة القوم ورؤساؤه يتناولون المأكّل الشهية والمشارب الطيبة ويرقدون على الأسرة الناعمة، لم يكسوا عارياً ولم يطعموا جائعاً ولم يداووا مريضاً. هكذا مات شعب لبنان وأغنياؤه المفاخرون بزينة نسائهم ورياش منازلهم لم يجودوا حتى بفلس الأرملة في سبيل مساعدة أبناء وطنهم التاعسين.

هكذا مات قوم لبنان وبيع قسم كبير من بناته في سوق الإماء قلمصاً من الموت والزعماء والقواد يرتعون في أحسن الراحة وبحبوحة الهناء. فلم يمدّوا يد الرحمة لطرّد النعمة عن أولئك المساكين.

أما سمعوا بأذانهم العويل والأنين! أما بصروا بأعينهم الأيادي الممدودة! أما دروا أن قومهم أكلوا التراب! أغنياؤنا!



قولوا لنا: أ تغسلون أيديكم تبرؤاً من دماء تلك الضحايا التي لا تعدد لها!

المحتكرون بالأسماء

ومخصصات مستخدمي الحكومة الذين كانوا يقدمون كل يوم اسماً جديداً (لا وجود لصاحبه) يأخذون بموجبه وثيقة بكمية وافرة من الحبوب. ومبادلة الحبوب - على قلة كميتها - بالزيت والصابون والديس والأقمشة كل ذلك كان من أكبر مسببات الشقاء والموت جوعاً في لبنان إذ إنه لا يخفى أن الذين تولجوا مسألة تبديل الحبوب بالمواد المشار إليها وفي مقدمتهم الياس عبد جدهون صهر نجيب الأصفر - بأعوا ثلاثة أرباع الحبوب بأفحش الأثمان - ووضعوا تلك الأثمان في جيوبهم الواسعة - وصرفوا الربع الأخير في سبيل المبادلة بتلك المواد.

الأولى من شهر أيار. وفي تلك الأزمنة الهائلة ملأت جثث قتلى الجوع الشوارع والطرق واستأصل الله من كل القلوب شواعر الحنان والشفقة فلم يعد أحد يبالي بإطعام الجائع كسرة من الخبز بها يسد رمقه، ومن جرّاء ذلك الاحتكار، وذلك الغلاء رفعنا الشكوى إلى عزمي وكان أكبر اللصوص وزعيم المحتكرين، فأظهر أنه يبذل الجهد في سبيل فضّ ذلك المشكل الهام وأمر بامساك ستة من أولئك المحتكرين وأذاع في كل بيروت أنه عازم على نفيهم إلى أقصى الداخلية إن لم يبادروا إلى إسقاط أسعار الحبوب للحال والسرعة. وقد أعطاهم على ما نذكر مهلة ثمان وأربعين ساعة فقط.

ومضت تلك المهلة فأطلق سبيل أولئك المحتكرين ولم نعلم كيف ولماذا. وظلت أسعار حبوبهم غالية غلاءها الأول. أن الشعب وعلا صراخه من تلك الحالة، لكن الظلام لم يبالوا بذلك ولا همهم أنين الجياع وصراخ المساكين وعويل اليتامى.

وفي تلك الأزمنة الهائلة أمر عزمي بحفر الحفائر في رمل بيروت لدفن الموتى بالثبات والألوف. في تلك الأزمنة الهائلة أمر ذلك الدموي بجمع كل المتسولين في بيروت من صغار الأولاد فالتقطهم البوليس من على الطرقات والساحات وحشروهم بالثبات بين أوساخ الحيوانات في الخانات الكائنة على جانبي طريق الشام حذاء ساحة البرج، فمات أولئك المساكين جوعاً في خلال أسبوع واحد وكانوا نحو ألف ولد.

في تلك الأزمنة الهائلة اتصلت القساوة البربرية ببعض متولجي نقل الموتى إلى المقابر أن يدفنوا الأحياء جنب الأموات.

يا الله أين عدلك! هناك في بيروت في النقطة المعروفة بطلعة بسترس بالقرب من ساحة البرج وحذا طريق النهر، هناك في منعطف الطلعة على الزيتون بجنب ملك (نجيب التيان)، هناك نظرت رجلاً ضعيفاً ملقى في قناة الطريق وقد سمعته يئن من الجوع وكادت روحه أن تفارق الحياة.

هناك وقفت العجلة المعدّة لنقل جثث الأموات إلى مدفنها في الرمل. وبعد أن التفت السائق ومعاونه عدداً من جثث الأموات المطروحين هنا وهناك أمرهما البوليس بشحن ذاك الرجل وكان لم يزل حياً كما قلنا. فقال السائق للبوليس: يا أفندي إنه لم يمّت بعد.

«وما الفائدة من إبقائه هنا؟ إنه يزعج المارة بأنيته. الأوفق أن تأخذه الآن فأني أرى أنه سيموت قبل بلوغه

ففي تلك الأزمنة الهائلة ملأت جثث قتلى الجوع الشوارع والطرق واستأصل الله من كل القلوب شواعر الحنان والشفقة فلم يعد أحد يبالي بإطعام الجائع كسرة من الخبز.

والخلاصة أن أكبر المجرمين بحق جبل لبنان الذين سبّوا المجاعة في ربوعه وخنقوا أبناءه خنقاً وأكلوا الحبوب المخصصة لإعاشته هم: علي منيف بك متصرف الجبل في ذلك العهد، والمحتكرون وفي مقدمتهم ميشال إبراهيم سرسق (مات) والحاج رثيف المشنوق، والسادات محيي الدين وعبد الحميد الغندور وعبد الغني وعبد القادر الغندور، ومحمد حليم بك محاسبجي المتصرفية في ذاك الحين، وأحمد وفيق أميرالي الجند اللبناني يومذاك، وكمال اليافي (مات) ترجمان علي منيف، والطبيب نجيب الأصفر مدير شركة الحبوب اللبنانية، وإسكندر بك الخوري وزخور العازار من أعضاء المجلس الإداري اللبناني في ذلك العهد، والياس عيد جدهون، وأكثر مديري مستودعات شركة الإعاشة وملتزموا نقل الحبوب إلى القرى، وأمور القبان في مستودعات الإعاشة وفي مقدمتهم يوسف الدفاق من بيروت مأمور قبان مستودع بطرام.

والي بيروت زعيم المحتكرين ولما بلغ الغلاء هذه الدرجة الفاحشة، كنا نطوي الأيام

بتلك الحادثة كلما التقينا. والولد نصري ما برح حياً يروي تلك الحادثة وصحته جيّدة وهو يناهز الحادية عشرة من عمره.

شاهدنا وشاهد الكثيرون مراراً متعدّدة جماعة الفقراء أمام مطحنة الطويل ومطحنة البراج (في بيروت) ينقبون في براز الخيل والبغال والحمير لالتقاط بعض الحبوب التي كانوا يتناولونها حاسبين ذلك أفخر طعام لهم.

وكم من مرة التقينا ببعض يتزاحمون على قشور الفاكهة وحسك السمك! وفي أحد الأيام عثروا عن طريق الحدث علي جثة شاب لبناني مطروحة بالقرب من شجرة زيتون. أعلموا بذلك مدير الساحل فاستدعي هذا طبيباً فحص الجثة فقرر أن ذلك الشاب مات متأثراً من كثرة أكله قشور الليمون الحامض.

وفي سهول البقاع حيث تشتت من بقي حياً من اللبنانيين، عثروا على جثث عديدة من جثث الجمال التي قتلها الأمراض فاجتمع حولها الآدميون والكلاب يقتتلون في سبيل الحصول على بعض لحمانها وعظامها. وقد روى لنا أسعد يوسف درويش الحائك (كان يشتغل مع جماعة الألمان في رياق) أنّ الألمان رموا في رياق جثة حصان مائت بالمرض الذي يسميه العرب - بالجمرة الفارسية - قال لنا إنّ الذئب وبنات أوى أبت أن تاكل لحم تلك الجثة.

عرف بذلك إخواننا اللبنانيون الناعسون فتزاحموا هنالك وأكلوا تلك الجثة من الرأس إلى القدم. غير أنه لم يمض عليهم الليل القادم حتى ماتوا عن آخرهم وكان عددهم لا يقل عن الأربعين. فدفنهم الألمان في حفرة عميقة كانوا قد أعدوها لدفن جثث الخيل التي كانت تموت بذاك المرض حتى لا تسري العدوى إلى بقية الناس. وأخبرنا جمهور من أهالي معلّقة الدامور أن المدعو خطار شهدان السلفاني (كان قاطناً الدامور) من سلفايا مديرية الشحار قضاء الشوف أكل لشدة جوعه ثلاثاً من جثث الآدميين.

ولم نزل نذكر ويذكر معنا كل من بقي حياً من أهالي مزرعة القنيطري (مديرية القاطع - قضاء المتن) أنّ المدعوة هيلانة ابنة صليبي عبد أكلت جثة ابنة أخيها نجيب صليبي عبد.

وقد أفادنا أحدهم أن ثلاثة من ضواحي المتن أدى بهم الجوع الفضاح إلى أكل جثث الآدميين.

وقد اتصل اليأس بالمدعو بطرس نصر من عمارة

الرمّل». وبعد أن وضعوا ذلك المسكين على ظهر العجلة، قال لهم: أتأخذوني إلى المقبرة حياً؟ فانتهره البوليس قائلاً: اصمت! أنت نصف مائت وستفارق روحك جسّدك قبل أن تصل إلى المدفن. ذلك المشهد رأيناه بأّم العين فقلنا في نفسنا: ألا تنتقم العدالة من أولئك الظلام! واشتدّ الخلاف بين عزمي بك وبعض أرباب الأمر والنهي في الأستانة فعمدوا إلى كسر شوكته وعزلوه من منصبه وأجروا عليه أن يترك بيروت بكل سرعة. فغادرها مرغماً حزينا كسير القلب تنهال عليه اللعنات من كل فجّ وقد ملأ سماء تلك المدينة وأرضها في فظائعه التي يعجز عن وصفها أفصح لسان.

أكل لحوم البشر

وفي إبان ذاك الغلاء الفاحش تعدّدت الحوادث المفجعة التي ترتجف لذكرها الصخور الصماء، ولم نكن لنصدّقها لولا أننا رأينا بعضها بأّم عيننا وسمعنا بعضها من فم الثقافات اللذين يزنون كلامهم بميزان الصدق والتروّي قبل أن ينطقوا به لتتناقله الألسنة. وإننا كنا نوّد أن نورد هنا شيئاً قليلاً جداً من تلك الحوادث على سبيل الذكرى لتلك الأيام السوداء:

شاهد الكثيرون في حي رأس بيروت بالقرب من مدرسة الصنائع ولدين يلتقطان حب السمسم من بين أكداس الوسخ بينما كان جماعة غيرهما حائمين حول كتلة من عظام الحيوانات المائتة يمتصّونها بنهم الوحوش. وأخبرنا ثقة أنه بصر (في حارة حريك) بنفر من الناس رجلاً ونساء وصغاراً يتسابقون على أوكار النمل لالتقاط الحبوب من فم تلك الطائفة.

في سهول البقاع حيث تشتت من بقي حياً من اللبنانيين عثروا على جثث عديدة من جثث الجمال فاجتمع حولها الآدميون والكلاب يقتتلون في سبيل الحصول على بعض لحمانها وعظامها.

ونحن بأّم عيننا شاهدنا (في بيت شباب) الولد المسمى نصري سعيد مراد غبريل يلتقط الحب من فم النمل بالقرب من كنيسة سيدة الأخوية في القرية المشار إليها وقد شاهد معنا هذا الحادث المعلم أمين نفاع (من القرية المذكورة). ولا يزال المعلم أمين يذكرنا

شلهوب (من أعمال ساحل بيروت) أن يأخذ ابنه وابنته حيين إلى نهر الموت حيث دفنهما في إحدى الحفائر، وكان الصبي ابن سنتين وأخته ابنة أربع سنوات. غير أنه لم يطل الأمر على بطرس هذا حتى تضعض رأسه ونحل جسمه وقضى من الجوع.

وإننا ننقل عن فيليب أفندي فارس (قوميسيير محافظة الجمرق في بيروت في الآونة الحاضرة) حادثة طرابلس التي اشتهر أمرها في كل بلادنا وهي: أن أربع نساء من حردين (لبنان) نزلن إلى ميناء طرابلس وأقمن في النقطة المعروفة باسم محلة (فوق الريح) فذبحن بأوقات مختلفة أربعة أطفال الآدميين وأكلنهم ورمين عظامهم في بئر محفورة في تلك النقطة. وقد أجرى تحقيقات تلك الحادثة الفظيعة أرسلان بك الشركسي أحد قوميسييرية بوليس طرابلس في ذاك العهد فزجوا النساء الأربع في سجن مظلم حيث قضين نحبهن في الأسبوع الأول.

يا ليت أغنياءنا الذين كانوا يرقصون على قبور المنكوبين أسوة بالبنانيين المهاجرين

وأفادنا البعض من إخواننا اللبنانيين الذين كانوا في سهول البقاع في إبان ذاك الغلاء الفاحش أن عدداً وافراً من فقرائنا كانوا يأكلون كل ما تصل إليه يدهم من ورق الحور وورق العنب وورق التين وثمره الفج. وكانوا كلما عثروا على جثة حيوان اجتمعوا حولها مغتذين بلحمانها تشاركهم بذلك طيور السماء.

«الأغنياء مع الترك آفة البلاد»

لا نجهل ما وراء كتاباتنا بحق الأغنياء من ثوران خواطرهم وقيامها ضدنا، لكنها هي الحقيقة أبت علينا إلا أن نخدمها ثابتين في موقف الدفاع عن مبادئنا الحرة نافرين عن نفسنا كل خوف وحذر. ولسنا من الذين فقدوا كل شعور وتعزوا من كل وجدان فنقول: «قضي الأمر وجف القلم».

ولعمري كيف نسكت ونكسر القلم ونختنق الأفكار كأننا ما رأينا شيئاً وقد رأينا في تلك الأيام العصبية من المشاهد المخيفة الممثلة على مراسح هذه البلاد التاعسة ما يفتت الأكباد ويذيب الجماد. رأينا وماذا رأينا؟

يا ليت أغنياءنا الذين كانوا يرقصون على قبور قتلى الجوع في تلك الأيام المشؤومة هبوا لمساعدة المنكوبين أسوة باللبنانيين المهاجرين الذين جمعوا الإحسان وتبرعوا بالمبالغ الطائلة لتخفيف الويلات عن البقية الباقية من إخواننا في لبنان.

رأينا ذلك المتمول المتكبر يمثل الإنسانية القوية بكل مظاهر الغنى والجاه من شمم الأنف ونعومة اللباس والتحلي بأثمن الجواهر وأنفس المعادن، ورأينا ذلك الضعيف المعدم صريعاً في حومة الجهاد البشري يقاسي عذاب المسكنة معقر الجبين في تراب المذلة تبدو عليه آثار الشقاء من ثيابه الرثة.

رأينا ذلك الغني القوي تائهاً في سبل القساوة تستعر نيرانها في جنانه فخلاً جنانه من شواعر الرحمة والحنان، ورأينا ذلك المسكين المستعطي منطرحاً على فراش الضنى يعتنق الشقاء ويجرع كأس التعاسة.

رأينا ذلك الغني النافذ الكلمة يواله الحظ فيجمع الأموال الطائلة ويرقد خالي البال ويأكل خبز الهناء ويشرب كأس الصفاء وبلذذ نفسه بكل ما يشتهي قلبه. ورأينا أخاه ذلك الفقير السبي البخت يئن ويشتكى من أنياب الفقر المدقع يواصل صراخه مستغيثاً إلى أن يبح صوته وينقطع نفسه فلا يجد ضالته، فيتوسد التراب ويفت فؤاده ويقنات به ويفرغ كؤوساً من دمعه ويشربها. بحقكم أيها الأغنياء الذين تراميتم أيام نكبة البلاد على أقدام الترك الظلمة فنثرتم عليهم أزهار المديح والثناء وأهديتموهم أنفس الهدايا وأعددتهم لهم أفخر الولائم وأطربتم مسامعهم بأشجى الأغاني وهلم جراً. بحقكم أيها الأغنياء من سليم علي سلام إلى آل سرسق إلى آل طراد إلى آل الأصفر إلى آل بيهم إلى آل غندور إلى آل مخيش إلى كل غني في بيروت وفي الجبل من أطرافه إلى أطرافه.

حقكم قولوا لنا: بماذا جدتم على المعدمين من إخوانكم في الإنسانية أيام كنتم تُشبعون شهواتكم في الملاذ وتطربون مع جمال السفاح وعلي منيف المراوغ وعزمي الدموي؟ كانت موائدكم محاكي موائد الملوك في داخل قصوركم الغنية وكان تحت تلك القصور صدى الأنين والتوجع يشق الماء والسماء. جدران منازلكم كانت ترقص طرباً بينما تحت نوافذها الملعونة أصوات الثكالي واليتامى تناديكم قائلة:

«سلام لمن يمر في الديار، نحن إخوانكم في الإنسانية، احتكرتم أنواع لوازم الحياة وسابقتونا على الأقل من

القليل من سائر أنواع الحبوب فهلاً تتكرمون الآن علينا
بما يفضل عن كلابكم؟ لقد أصبحنا أشباحاً كسيرى
القلب كلمتنا عوالي الدهر ورضتتنا كرات الشقاء فهلاً
ترقّ جوارحكم لنا أم ترفق عواطفكم بنا؟»

وبح الفقير فما تراه يلاقي
شدّت عليه منافذ الأرزاق

عصفت به وبسره ريح الشقا
فتساقطوا كتساقط الأوراق

فإذا بصرت به عجبت لشمعة
كالزعفران تجول في الأسواق

علّق المجاعة مصّ بعض دمائه
وتعسف الحكام مصّ الباقي

أخذ الشقا يدها فسارت خلفه
والليل ممدود على الأفاق

سارت فمال الخيزران بقدها
ورنت فذاب السحر في الأحداق

وتلوخ آثار النعيم بخدها
كالفجر قبل تكامل الإشراق

أخذ الشقا يدها فإن هي فكرت
بمصيها صعت من الإشفاق

ووهت عزيمتها فألقت نفسها
فوق الثرى وشكت إلى الخلاق

تشكو بدمعها وذلل فؤادها
وبما تحي به من الإحراق

يا رب! قالت وهي جاثية له
إن شئت حل من الحياة وثاقي

ضربت غشاة على عيون الأغنياء فما أبصروا
وصمت أذانهم فما سمعوا وشملت أيديهم
فما جادوا بشيء على المستغيثين.

واحسرتها! ضربت غشاة على عيون الأغنياء فما
أبصروا وصمت أذانهم فما سمعوا وشملت أيديهم فما
جادوا بشيء على المستغيثين. فأصبحت بذلك -- كما
قال أديب إسحق -- رؤوس الفقراء صوامع تصلي عليها
رهبان الغربان وأجسامهم مطاعم للعقبان.
أبهذا قضت شرائع الإنسانية؟ أم يذا ترضى الشواغر
الأخوية؟ أم يسوّغ ذلك دينياً أم أدبياً أم كيفما أردت قل؟.
يا للجنانية الهائلة!

كأنني بتلك الدماء تطلب دماء منكم أيها الأغنياء
السفاحون.

كأنني بتلك الأمواج، أمواج من الدماء اللبنانية تتدفق
عند أسرتكم أيها البرابرة ويخيل لي أن فرشكم تعوم
على تلك الأمواج فتمدّون أيديكم مستغيثين فتلتقي
بأشلاء القتلى والضحايا ضحايا ظلمكم طافية على وجه
تلك الدماء...

لو أنّ أغنياءنا أنفقوا فلساً واحداً في سبيل النفع
العام أو بذلوا درهماً في سبيل الإحسان، لو أنّ أفئدتهم
الصخرية لانت لمرأى تلك الفواجع التي تدمي القلوب
حرقة وتقطع الأكباد حسرة لكسرنا القلم وخنقنا بعض
الأفكار وخففنا اللوم والتثريب.

كتبنا ما كتبنا ونحن شاعرون جيداً بحجاجة موقفنا
ومشاهدون جلياً عيوناً ترشقنا بأحد من السهام وقلوباً
تغلي على المراحل علينا حقداً وحنقا. ولكن عفواً أيها
الأغنياء المستكبرون اللثام، قلنا إنّنا لا نخاف ولن نخاف
ما زلنا نجاهر بالحق «والحق يعلو ولا يُعلى عليه».

وهنا مجال لأن نذكر حادثة (الريال المزيف) التي
وقعت في السنة الثانية من الحرب وقد تداولتها الألسنة
فأفرغها بشارة الخوري صاحب «البرق» في القلب
الشعري الذي تراه:

رسالة إلى ماري هاسكل

جبران خليل جبران

شاعر وكاتب
ورسام لبناني،
من أدباء وشعراء المهجر.
من أشهر أعماله
باللغة العربية
«الأجنحة المتكسرة»
و«الأرواح المتمردة»،
وبالإنكليزية «النبي»
و«يسوع ابن الإنسان».

ماري الحبيبة،
أبناء شعبي، أبناء جبل لبنان يموتون في مجاعة دبّرتها
الحكومة التركيّة. قضى ثمانون ألف شخص حتى الآن.
ويموت الآلاف كل يوم. الأشياء نفسها التي حدثت في
أرمينيا تحدث في سورية. وبما أنّ جبل لبنان منطقة
مسيحيّة، هي تعاني أشدّ معاناة.
يمكنك أن تتخيلي يا ماري ما أمرّ به الآن. لا
أستطيع الأكل، ولا النوم، ولا الراحة. والسوريون
جميعهم هنا يتعرضون للتعذيب بالطريقة نفسها.
نحن نحاول أن نقوم بما في وسعنا. علينا أن ننقذ أولئك
الذين لا يزالون على قيد الحياة. آه ماري، كثيرٌ جداً ما
نسمعه، كثيرٌ جداً.
صليّ لأجلنا يا ماري الحبيبة: ساعدنا من خلال
تفكيرك فينا.
كل الحب من خليل الذي يعاني.



أخي

ميخائيل نعيمة

مفكر عربي، لبناني،
أحد رواد النهضة
الفكرية والتجديد
في الأدب والشعر،
من أعماله «البيادر»،
«هوامش»، «الغربال»
و«سبعون»، وغيره.

أخي! إن ضجَّ بعدَ الحربِ غُزَيُّي بأعماله
وقَدَّسَ ذِكْرَ مَنْ ماتوا وعَظُمَ بَطْشُ أبطاله
فلا تهزجْ لمن سادوا ولا تشمتْ بمن دَانَا
بل اركعْ صامتاً مثلي بقلب خاشعٍ دامٍ
لنبيكي حَظْ موتَانَا

◆◆◆

أخي! إن عادَ بعدَ الحربِ جُنْدِيٌّ لأوطانه
وألقى جسمه المنهوكَ في أحضانِ خلانِه
فلا تطلبْ إذا ما عُدْتُ للأوطانِ خلاناً
لأنَّ الجوعَ لم يتركْ لنا صخباً نناجيهم
سوى أشتياحِ مَوْتَانَا

◆◆◆

أخي! إن عادَ يحرثُ أرضه الفلاحُ أو يزرعُ
ويبني بعدَ طولِ الهجرِ كوخاً هذه المدفعُ
فقد جفَّتْ سَوَاقِينَا وَهَدَّ الذِّلُّ مَأْوَانَا
ولم يتركْ لنا الأعداءُ غُرساً في أراضينا
سوى أجْيَافِ مَوْتَانَا

◆◆◆

أخي! قد تمَّ ما لو لم نَشَأْ نَحْنُ ما تمَّ
وقد عمَّ البلاءُ ولو أُرْدْنَا نَحْنُ ما عمَّ
فلا تندبْ فأذنَ الغيرِ لا تُصغي لِشَكْوَانَا
بل اتبعني لنحفرَ خندقاً بالرفشِ والمِغُولِ
نُواري فيه مَوْتَانَا

◆◆◆

أخي! مَنْ نَحْنُ؟ لا وَطَنٌ ولا أَهْلٌ ولا جَارٌ
إذا مُنَّا، إذا قُمْنَا رَدَانَا الحَزِيَّ والعَارُ
لقد كَمَّتْ بنا الدنيا كما كَمَّتْ مَوْتَانَا
فهاتِ الرِّفْشَ واتبعني لنحفرَ خندقاً آخرَ
نُواري فيه أَحْيَانَا





من اشعار الحرب والمجاعة

ولقد أذكر منهم مشهداً
هو إرث العار للمستقبل

نسوة حول حمار مائت
منذ يوم كاد يبلى او بلى

وصغار ينطوي أسمئهم
طيك المنديل غب البلب

نهشت أسنانهم لمانه
لم تبقي منه غير الهيكل

ولكم مر بهم جاع
فتمنى بعض هذا المأك

(بشارة الخوري - الأخل الصغير)

روح (هيكو) من السماء أطلي
واحملي نسمة الى الأحياء

هم موتى النفوس موتى الأمانى
رغم ما في جسومهم من رواء

شارفي حالهم وقولي عزاء
فعسى بالكلام بعض العزاء
وصفيهم يا روحه فلقد كنت

يا رب اني قاعد كما ترى
وزوجتي قاعدة كما ترى

والبطن مني جائع كما ترى
فما ترى يا ربنا في ما ترى؟

(شاعر مجهول)

عزّت السِّلْعَةُ الذِّلِيلَةُ حَتَّى
بَاتَ مَسْحُ الحِذَاءِ خُطْباً جَسَماً

وَعَدَا القُوْتُ فِي يَدِ النَّاسِ كَالْيَقُوْتِ
حَتَّى نَوَى الفَقِيرُ الصِّيَامَ

وإن أصاب الرّغيفَ مَنْ بَعْدَ كَدِّ
صاحَ مَنْ لِي بَأْنِ أَصِيبَ الإِدَامَا

أَيُّهَا المُضِلُّحُونَ أَضِلُّحُتُمُ الأَرْضَ
وَبِئْسَ عَنِ النُّفُوسِ نِيَامَا

أضلحوا أنفساً أضرّ بها الفقرُ
وأخيا بموتها الآثاما

(حافظ إبراهيم)





على الأرض حصّة البؤساء

نبذتهم اهل الدنى فعساها
لبلاهم ترقى اهل السماء

كم فتاة كان الحياء حلاها
قبل أن راودته كف الشقاء

تبذل العرض وهو جوهرة النفس
رخيصاً حتى بجرعة ماء

وتنادي في ساحة الفحش والفسق
على ما بقي لها من حياء

(فوزي المعلوف)

فعل الجوع في النفوس فعالا
عاد منها الأحرار كالأوغاد

آخر الجهد راح ينفقه
المائت في سجدة لذي استبداد

لهف نفسي على ألوف توفوا
من جيباع النساء والأولاد

ورجال دكوا لفرط هزال
وهم قبل ذلك كالأطواد

(خليل المطران)

وأفجع ما شاهدت في الحرب مرة
ثلاثة أطفال وبنت ووالده

تراموا على الغبراء والثلج فوقهم
تساقط والام الحزينة راقده

دنا منهم بعض الكرام فما رأوا
سوى جثث من شدة الجوع هامده

(حليم دموس)

يا لها نكبة بقومي حلت
أرهقتهم في مدنتهم والبوادي

كلما جد ما بصورها لي
أو يداني ذكرتها بارتعاد

فاق فيها بشدة كل يوم
ما حكوا عن سبع السنين الشداد

كل حال أحوالها الذعر حتى
أنكرت أخرياتهن المبادي



يا تاجرا بدقيق
جعلت قمحك تبراً

أبدلته بنفوس
حملتها الضيم قسراً

لقد قتلت ألوفاً
جوعاً وعرياً وقهراً

النفس ملك إله
فلا تباع وتشترى

(توفيق حسن الشرتوني)

والطفل بيع به وما من مشترٍ
يبتاعه بتجارة التعساء

والموت متجرٌ ييقبض نفوسنا
فالربح موفورٌ بسوق بلاء

والربح في الأسواق أم مديحها
وخسارة الأسواق أم هجاء

(عيسى اسكندر المعلوف)

رأينا كل محتاج لقوت
يبيع كسائه بيع المذله

وبعض الناس لم يشفق ولكن
شرى بالدين ما قد بيع قله

(عيسى اسكندر المعلوف)

العرض بيع به بغير حياء
من أوجه تشكو نضوب الماء

(من مخطوطة «ما رأيت وشاهدت في الحرب الكونية»، لعيسى إسكندر المعلوف)

«أيتام الغيتو» رواية إلياس خوري الجديدة

تصدر قريباً عن دار الآداب في بيروت رواية إلياس خوري الجديدة: «أيتام الغيتو». وبدايات تنشر المقدمة التي كتبها المؤلف لروايته.

إلياس خوري

كاتب وروائي من
لبنان. آخر أعماله
«سينالكول»
(٢٠١١).

العبرية، التفتت سارانغ لي نحوي وأجابت بالإنكليزية، وتعارفنا. عندها بدأ الرجل يتكلم معي بالعربية، أبدت سارانغ لي بالإنكليزية إعجابها بلهجته الفلسطينية، فأجابها بكلام عبري لم أفهمه.

وعندما مشينا وسط البرد، اقترحت سارانغ لي أن نشرب كأساً. فوجئت بالاقتراح، فأنا لا اخرج مع تلميذاتي، ولا أزال أذكر التحذير الذي وجهه لي صديقي الأرمني البارون هاكوب، الذي كان إدوارد سعيد يطلق عليه لقب «ملك السيكس»، من ما يطلقون عليه هنا اسم «الهاراسمنت»، قال إن ادعاء أي طالبة بأنني تحرشت بها كفيلاً بأن يخرّب بيتي ويدمر مستقبلتي الأكاديمي.

وافقت على شرب كأس مع تلميذتي لأنني رأيت في عينيها كلاماً. شربنا كأس نبيذ أبيض في مقهى «لانترنا»، وهو المقهى المفضل لصديقي الأرمني، كما أنه المقهى المفضل لحنا العكاري، وهو مناضل قديم في الجبهة الشعبية، وكنا نتردد معاً إلى هذا المقهى كي يشكو لي وأشكو له فشل أحلامنا الثورية.

قلت لسارانغ لي ضاحكاً وأنا أشرب نخبها إننا في العادة لا نشرب النبيذ بعد الفلافل، وانتظرت أن تحكي. لكنها لم تقل شيئاً، و بعد صمت بدا لي أبدأ سألتها إذا كانت عاشقة. فجأة التمعت عينا الفتاة التي كانت في الثانية والعشرين من عمرها بالدموع. لا أستطيع أن أقول إنها بكت، لكن هذا ما خيل إلي على الأقل، ثم قالت إنها لا تعرف، لكنها تحبني أيضاً.

كلمة تحبني أثارت في قلبي ارتعاشاً ما لبث أن بددته كلمة أيضاً. هذا يعني أنها تحب الرجل الإسرائيلي لكنها

وصّلت إليّ هذه الدفاتر عن طريق المصادفة، وقد ترددت كثيراً قبل أن أقرر إرسالها إلى «دار الآداب» في بيروت كي تُنشر. الحقيقة أن سبب ترددي كان ذلك الشعور الغامض الذي يمتزج فيه الإعجاب بالحسد والحب بالكراهية. فلقد التقيت بكتاب هذه النصوص وبطلها آدم دتّون أو دانون، عدة مرات في نيويورك حيث أعمل أستاذاً في الجامعة. أذكر أنني في المرة الأولى أبدت لتلميذتي الكورية إعجاباً بوسامته. كان ذلك في أواخر شباط سنة ٢٠٠٥ إذا لم تخني الذاكرة، خرجنا بعد انتهاء الحلقة الدراسية كي نأكل ساندويش فلافل، ورأينا ذلك الرجل وهو يعد ساندويشاته بلطف وبشاشة. كان رجلاً طويلاً يميل إلى النحول قليلاً، كثفاه العريضتان تحملان انحناء خفيفة. اختلط الشيب الأبيض بشعر رأسه الكستنائي فبدا وكأنه مكلل بهامة تلمع. أعتقد أن هذه الالتماع آتية من عينيهِ الرماديتين اللتين تملان إلى اللون الأخضر. قلت لتلميذتي الكورية إنني فهمت الآن سبب إعجابها بهذا المطعم الإسرائيلي، فالمسألة لا تتعلق بالطعام بل تتعلق بصاحب المطعم. لكنني كنت على خطأ، ربما كان هذا أطيّب ساندويش فلافل أكلته في حياتي. نحن في بيروت ندّعي أننا أفضل من يصنع الفلافل في العالم، والفلسطينيون يقولون إن الإسرائيليين سرقوا الفلافل منهم، وهم على حق في هذا. رغم أنني أعتقد أن الطرفين على خطأ، فالفلافل هي أقدم طعام مطبوخ عرفته البشرية، لأنه فرعوني الأصل والفصل، وإلى آخره...

كان اسم المطعم «بالم تري» أي شجرة النخيل، وحين اقترب الرجل الوسيم، بوجهه الشاب المستطيل والغمّامة المرتسمة في وسط ذقنه وبدأ يتحدث مع تلميذتي باللغة

كانت قد قرأت روايتي «باب الشمس»، وقال إن الكتاب كائنات لا يمكن الوثوق بها، وإنها قد تجد نفسها يوماً بطلّة في إحدى رواياتي.

أدهشتني ردة فعلها حين سألتني بدلال إذا كانت تصلح أن تكون بطلّة رواية؟

لا أريد أن أروي عن نفسي، ولولا أن سارانغ لي كانت سبباً في إيصال هذه الدفاتر إلي لما رويت عن علاقتي بها، وهي علاقة لم تتعدّ غواية النظرات على أية حال. لكنني فوجئت بأن فكرة أن تكون صديقتي الصغيرة بطلّة رواية أغوتها. وللأسف فإنها صارت بطلّة ولكن ليس على يدي بل على يدي غريمي. سألتها ماذا قال عن «باب الشمس»، فلم تقل سوى أنه لم يحبها، وكان عليّ أن أكتشف موقفه بنفسي، عند عرض الفيلم الإسرائيلي «نظرات متقاطعة» في صالة «سيني فيلادج»، في الشارع الثاني عشر.

لن أروي ماذا جرى في صالة السينما وأي غضب اجتاحني، لأنه لا يحق لي أن أنطفئ على حكايات مؤلف هذه الدفاتر، كما أن القارئ سوف يقرأ الحكاية بحسب آدم دون وسيكون هو الحكم بيني وبينه، كما أن سارانغ لي سوف تقرأ حكايتها أو شذرات من حكايتها في هذا الكتاب إذا تمت ترجمته إلى الإنكليزية، وعندها سوف تكتشف أن الرجل الإسرائيلي الذي لم يكن إسرائيلياً، لم يحبها لأنه كان يعتقد أنها تجني، وأن سوء التفاهم الذي طبع حياة بائع الفلافل، أنقذ الفتاة الكورية من علاقة كانت ستكون مدمرة لحياتها.

عندما جلبت سارانغ لي الدفاتر قالت إن الرجل مات محترقاً، يبدو أنه أغفى وهو يدخن مستلقياً على فراشه، فاشتعلت أشرطة التسجيل التي كانت تمتلئ بها رفوف مكتبته، وحين وصل رجال الإطفاء كان الرجل قد مات. شككت في الحكاية، وقلت إنها تقليد حرفي للطريقة التي مات بها الشاعر الفلسطيني الكبير ومترجم بياليك إلى العربية راشد حسين في نيويورك، فقالت إنها تعتقد بأن آدم انتحر، وأنه قام بعملية إخراج مسرحية لموته كي تكون مطابقة للطريقة التي مات بها راشد حسين، لأنه كان يحب هذا الشاعر ويحفظ قصائده غيباً. قالت إنه أعطها قبل موته بأسبوع رسالة صغيرة تتضمن وصيته وطلب منها ألا تقرأها إلا إذا حصل له شيء. طلبت منها أن تسمح لي بقراءة الرسالة فرفضت. انهمرت دموعها وهي تروي أنها قامت مع ناحوم، شريك آدم الإسرائيلي في مطعم الفلافل، بتنفيذ وصيته، وأنهم أحرقوا جثته وألقوا الرماد في نهر الهادسون بحسب طلبه. لكنها فوجئت بنجاة الملف الذي

لا تريد أن تكسر خاطري. لم يكن الحب وارداً عندي في تلك الأيام، وخصوصاً مع فتاة تصغرني بأعوام لا تحصى. لكنني وجدت في تفوق تلميذتي الصغيرة وخفرتها وجمالها الآسيوي الساحر، ما يدفعني إلى إيلائها اهتماماً خاصاً. في ذلك اليوم اكتشفت أنني كنت مخدوعاً. لا، كلمة مخدوع ليست ملائمة هنا، فالفتاة لم ترسل لي سوى إشارات إعجاب عادية، وهذا ما قد يحصل لأي تلميذة مع أستاذها. سألتها ماذا قال الرجل الكهل، فابتسمت وقالت إنه ليس كهلاً، «إنه من عمرك يا أستاذي العزيز»، ثم قالت بخبث لطيف: «إلا إذا كنت تعتبر نفسك كهلاً؟» تجاهلت ملاحظتها وسألتها ماذا قال الرجل، فأجابت قال إنه تكلم بلهجة أهل الجليل لأنها قريبة من اللهجة اللبنانية من أجل أستاذك. قالت إن في الأمر سرّاً، فهي تعرف إسرائيل جيداً، لأنها عاشت طفولتها في تل أبيب، لكنها لا تعرف هوية هذا الرجل بالضبط، هل هو فلسطيني يدعي أنه إسرائيلي أم العكس، لكنه شخصية فذة. لفظت سارانغ لي كلمة فذة والتمعت عينها ببريق الحب. لم أجد ما أقوله لأنني احسست أن هناك شيئاً غامضاً. وفي لقاء ثانٍ باحت لي بالسّر، قالت إن الرجل ليس إسرائيلياً، «بلّي إنّه يحمل جوازاً إسرائيلياً، لكنه فلسطيني، أعتقد أنه من نواحي اللد، إلا أنه يحب اللتباس، ولا يمانع في أن يعتقد الناس أنه يهودي».

لم ألتق هذا الرجل الذي يحب اللتباس بعد ذلك، كانت تلميذتي تروي عنه الطرائف، وتقول إنها تعتقد أنه زير نساء، لكنه ساحر. لم أهتم بطرائف هذا الإسرائيلي الذي يتقن العربية، أو هذا الفلسطيني الملتبس الذي يتكلم العبرية كأبنائها، ولا بسحره، شعرت بالغيرة منه، لكنها كانت غيرة خرساء. لا أدري لماذا خطر لي أنه قد يكون عميلاً للموساد الإسرائيلي، وهذا هو سبب التباساته أو تنكره، لكنني لم أهتم. كنت أريد لتلميذتي أن تتعد عنه لهذا السبب فقط، وحين أخطأت وانزلت لساني ورويت لها عن شكوكي غضبت وغادرت مقهى «كورنييليا ستريت» وهو المكان الذي صرنا نلتقي فيه بمعدل مرة كل أسبوعين، لأنه بعيد قليلاً عن أعين الرقباء في «ساحة واشنطن»، التي هي عملياً مركز جامعة نيويورك حيث أعمل.

مرة قالت سارانغ لي إن آدم لا يحبني، وإنه قال لها إنه يشك في هذا الأستاذ، بل قال أكثر من ذلك. قالت إنها لا تريد أن تخبرني، لكنها أخبرتني أنه قال إنه يشك في نواياي نحوها، وعندما دافعت عني قائلة إنني لم ألتج معها مجرد تلميح إلى إمكانية إقامة علاقة، غضب الرجل وقال إنه لا يقصد هذا الجانب، بل يقصد ما هو أهم، وسألتها إذا

على نفسي، وبعد تردد طويل قررت نشر هذه الدفاتر بوصفها النص الذي تمنيت أن أكون كاتبه.

الحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها هي أنني واجهت مشكلة كبرى، جعلتني أتردد كثيراً قبل أن أتخذ قراراً هذا. لقد استحوذت فكرة جهنمية على تفكيري، وهي أن أسرق الكتاب وأنشره باسمي، هكذا أكون قد حققت حلمي في كتابة الجزء الثاني من رواية «باب الشمس»، وهو أمر عجزت عن القيام به. ماذا أكتب بعد مقتل شمس وموت نهيلة؟ قلّمي جف بعد موتهما، وشعرت أنني فقدت القدرة على الكتابة، ودخلت في اكتئاب «مصارع العشاق» في الأدب العربي، الذين يشبه فيهم الموت لحظة غياب المحبوب. ولم أجد خلاصي إلا في دانيال هابيل أبيض، بطل روايتي «يالو»، الذي أجبرني على دراسة السريانية، ومع هذه الأبجدية الجديدة التي تعلمتها، أعدت اكتشاف الحب، بصفته باباً من أبواب الخيانة.

فكرة سرقة الكتاب لم تكن تعني نشر نصه الحرفي مثلما وجدته، بل إعادة كتابته واعتباره مادة أولية. قلّت في نفسي إنني لن أكون أول من فعل ذلك، بل أنا أعتقد، وهذا ما أدّرسه لطلّابي، أن كل كتابة هي شكل من أشكال إعادة الكتابة، وأن السرقة الأدبية حلال لمن يستطيعها. ولعل ما أطلق عليه النقاد العرب اسم «سرقات المتنبي»، هو نموذج للسرقة الأدبية التي تعادل الإبداع إن لم تتفوق عليه. كما أن شولوخوف مؤلف رائعة «الدون الهادي»، وهي من أعظم روايات الأدب الروسي، اتهم بسرقة مخطوطاتها خلال الحرب الأهلية الروسية، وهذا لم يغيّر شيئاً من أهمية الرواية أو من موقع مؤلفها في تاريخ الأدب الروسي الحديث.

لكنني، وبعد عدة محاولات لإعادة كتابة هذا النص وجدت نفسي عاجزاً عن الاستمرار، إذ بدل أن أكون سارقاً صرت ناسخاً، وبدل أن أعمل على النص، شعرت بأن النص بدأ يستحوذ عليّ، إلى درجة أنني بدأت أشعر أن حياتي تتحلل كي تصبح جزءاً من حياة الرجل وحكايته، كأن حكايته بدأت تحتلني، بحيث خفت أن أفقد روحي، وأدخل في متاهة ذاكرة هذا الرجل، فقررت التخلي عن الفكرة برمتها.

سوف يلاحظ القارئ أن هذه الدفاتر تتضمن نصوصاً غير مكتملة، تزاوج بين الرواية و السيرة الذاتية، وبين الواقع والتخييل، وتمزج النقد الأدبي بكتابة الأدب. لا أعرف كيف يمكنني تصنيف هذا النص من حيث الشكل أو المضمون، فهو يمزج الكتابة بكتابة تمهيدية ويخلط السر بالتأمل، والحقيقة بالتخييل، كأن الكلمات تصير مرايا للكلمات، وإلى آخره...

وفي النهاية أريد أن أؤكد أن هذا الكتاب يضم المخطوط

يحتوي هذه الدفاتر. كانت أطراف الملف الأزرق محترقة، والرماد يغطي الملف كله. غير أن الدفاتر كانت سليمة، والنصوص المكتوبة بحبر سائل أسود، بدت وكأنها مضاءة بالنار. لكنها رفضت تنفيذ وصية آدم ولم تحرق الملف الذي يحتوي الدفاتر، أخذته إلى منزلها، وحاولت فك طلاسمه العربية، لكنها لم تستطع، فقررت إعطائي الملف وأخذت مني وعداً ألا أتصرّف به من دون علمها.

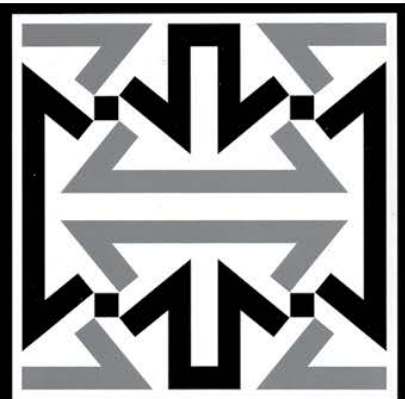
ماذا أكتب بعد مقتل شمس وموت نهيلة؟ قلّمي جف بعد موتهما. وشعرت أنني فقدت القدرة على الكتابة.

أغلب الظن أن سارانغ لي اعتقدت أنني سأنفذ ما عجزت هي عن تنفيذه، وسأقوم، بسبب المشكلة التي حدثت في قاعة السينما، بإحراق هذه الأوراق، لأنني وبنزقي الأحق، الذي غالباً ما سبّب لي الكوارث، صرخت في وجه آدم، وقلّت إنه رجل تافه، وأنه هاجم كتابي لأنه لم يفهم شيئاً، فأنا لم أكتب تاريخاً بل كتبت قصة، لذا فأنا لا أعرف معنى المصائر الحقيقية لشخصيات من صنع الخيال. لا أدري لماذا أصرّ الرجل على الادعاء بأنه يعرف شخصيات روايتي، وبدا كمخبول يهذي، وكان عليّ أن أقرأ هذه النصوص كي أفهم معنى كلامه.

يومها خرج آدم من قاعة السينما، ولحقت به سارانغ لي، بينما كنت أرتجف غيظاً. قلّت لصديقي حاييم، إن هذا الرجل كاذب، يدّعي أنه إسرائيلي مع عشيقاته، مع أنه فلسطيني، وهويته الفلسطينية هذه كانت حجته الكبرى ضد روايتي، كأنه لا يحق لي أن أكتب عن فلسطين لمجرد أنني لست من أبوين فلسطينيين.

الدفاتر التي أعطتني إياها سارانغ لي، كانت دفاتر جامعية عادية مسطرة، من نوع five star، تترايط أوراقها بشريط معدني لولبي، نجد في صفحتها الأولى روزنامة للأعوام ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦، ويمكن شراؤها من أية قرطاسية في نيويورك. أغلب الظن أن الكاتب اشترى هذه الدفاتر في عام ٢٠٠٣، وأنه كان يخطط لكتابة عمل طويل يحتاج إلى كل هذه الدفاتر ذوات الأغلفة الملونة.

قرأت هذه الدفاتر ثلاث مرات، ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل بها. واليوم وبعد مرور سبع سنوات لا أدري لماذا قررت العودة إليها، قرأتها من جديد وبعيون الزمن الذي محا كراهيتي للرجل واستبدلها بالأسى. حزنت عليه وحزنت



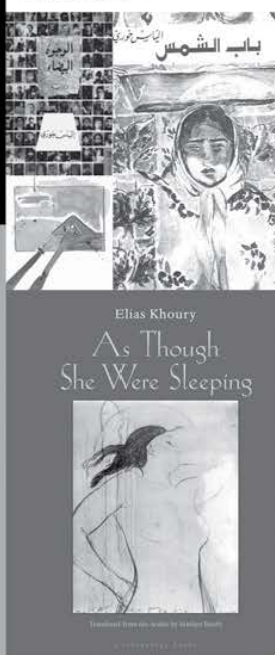
إلياس خوري
سينالكول
دار الآداب

ELIAS KHOURY

White Masks

Translated from the Arabic by Mita Tabet

Hardcover Book



كاملاً كما وصلني من سارانغ لي، لم أضف إليه كلمة واحدة، سوى كتابة عناوين الفصول الداخلية التي أعتقد أنها ضرورية من أجل أن تشكل دليلاً للقارئ، كما لم أحذف منه شيئاً، حتى النقد العنيف الذي وجهه المؤلف لروايتي أبقيته على حاله، وأنا متأكد من أن القارئ الكريم سوف يجد فيه إجحافاً في حقّي وظلماً لي ولكتّابي.

أعدت ترتيب الدفاتر، لكنني ترددت أمام الدفتر ذي الغلاف الأحمر الذي يحتوي في بدايته على ما يشبه مخطط الرواية الأصلية التي يبدو أن المؤلف عدل عن كتابتها، وقررت نشره على حدة بصفته مشروع رواية، ثم صرفت النظر عن ذلك حين اكتشفت أن هذا المشروع يخترق الدفاتر كلها ويتداخل بها، كما ترددت أمام العديد من المقاطع التحليلية التي وجدت في الدفاتر الأخرى، حيث لم يرق المؤلف بحذفها بل تركها لأنه كان يعتقد أن كتابه لن يُنشر، أو أنه سيقوم بتنقيح الكتاب قبل نشره...

قررت في البداية أن أضع هذه المقاطع التي تشبه المخططات كهوامش، ثم فكرت بأن أطبعها بحرف سميك ومختلف، لكنني حذفت الاقتراحين، لأنني مقتنع بأنه لا يحق لي ذلك، وأن القارئ سوف يدخل مع هذه المقاطع في لعبة الكتابة الداخلية، ليكتشف، مثلما اكتشفت وأنا أقرأ هذا المخطوط، جماليات البدايات وسحر العلاقة بين الكاتب ونصه. كما جعلت النص التمهيدي، الذي وجدته وحده في دفتر ذي غلاف أزرق، وهو نص صغير يشبه الوصية، مقدمة لهذا الكتاب.

المخطوط كان بلا عنوان، والحقيقة أنني وضعت لائحة بالعناوين الممكنة لأخلص إلى اقتراح وضع اسم المؤلف كعنوان، فيكون عنوان هذا الكتاب «دفاتر آدم دُتُون». وبهذا يكون مؤلف هذا الكتاب قد نجح في ما فشل فيه جميع الكتاب، وهو أن يتحوّل إلى بطل لرواية عاشها وكتبتها.

لكنني غيرت رأيي في اللحظة الأخيرة قبل إرسال هذا المخطوط إلى الناشر، وقررت أن هذا الكتاب يكشف حقيقة لم يتنبّه إليها أحد، وهي أن الفلسطينيين والفلسطينيين الذين استطاعوا البقاء في أرضهم، هم أولاد الغيتوات الصغيرة التي حشرتهم فيها الدولة الجديدة التي استولت على بلادهم ومحت اسمها. فقررت أن أضع لهذا الكتاب عنوان «أولاد الغيتو»، وبذا أكون قد ساهمت ولو بجزء يسير في كتابة رواية لم أستطع كتابتها.

وفي الختام أعذر من سارانغ لي لأنني لم أستشرها في مسألة نشر هذه الدفاتر كرواية بقلم آدم دُتُون، لكنني على يقين بأنها ستفرح حين تجد نفسها في عداد أبطال هذه الرواية.

قصيدة بعلبك

أنيل عدنان

روائية وشاعرة
ورسامة ومؤلفة
مسرحية من سورية
ولبنان. من أعمالها
المتجمة الى العربية
«الست ماري روز»،
«سفر الرؤيا العربي»،
«مدن ونساء»:
رسائل الى فواز»،
«قصائد الزيزفون»،
«باريس عندما تكون
عارية»، «في قلب
قلب مدينة أخرى».

الى وجهه غصوب
من «أورفيوس» الى «مايكوفسكي»
دارت الشمس حول
رأسي،
تتوهج
كتلة
من ذهب وثور.

هي الألوهة الاولى،
التي انتصبت
من اجلها
معابد من حجر،
تزورني،
وهي الاخيرة بالتاكيد.

بين الأنصاب
والاعمدة الاعلى منها
ادركت،
طفلة،
ان مملكتي ستكون
من هذه الحجارة
ومن ليلاها.

٢.

أمسكني الجفاف
من حلقي،
لن اغني،
المعبد
موجود، حقاً موجود،

ومدرجاته
صلدة
والآلهة،
كي لا يبارحنه،
رقصوا
ثم قرروا ان يموتوا...

خلفوا وراءهم
شمساً
أحبيناها
مع انها همجية.

في عتمة
الذهن
المختومة
تتمو نباتات
وتسبح أسماك،
وغن نطن اننا نشاهد
مناظر طبيعية ونتطلع الى
البحر.

لن نعرف ابداً ما اذا كان للحياة
مقلب آخر،
ولكن في الالم
يكمن
فرح
اكثر ايلا ما منه،
مثلما في تصخر

وتظل أعيادنا
احتفالية
حتى ونحن متشحون
بالسواد.

مثل الآلهة،
غادرنا أرضاً
انقل
من عناقيد عنب
في عز الصيف

غادرنا مثلما نغمض
عيون الموتى.

البحر
بعيداً،
أفقاً
من الحمى،
تنفساً
غير مسموع،
مغصاً في
البطن
خلال نوم
مضطرب،
يحلم بروعته الذاتية.

هذا المكان ليس
مكاني.

الفصول
وقد فقدت مبرر
وجودها،
تأمل اضطرابات
النور
في مناطق أفكارنا
الجدباء
المتقوية
بالرصا
في هذه المساحات

القلوب
ينطبع ختم
الذاكرة.

٣.

في هذه الانحاء،
لا يتكون
المطر
من ماء
ولا من
ملائكة.

السهل يتلون
بلون
الدم
أما السماء فمقفلة.

إن نضارة
العشبة الوحيدة
التي تريد
خرق هذا الجدار
للتو،
تحتفظ في داخلها
بتموجات أنغام
«أورفيوس»،
مرآة
روحي.

٤.

بيدي العاريتين
قارعت
قوى داهمة،
فما عثرت إلا على
أشباه ظلال
غادرتها كل مادة.

إننا نعيش في
ما يشبه
الأمواه
والرياح



وهي الاعتق من الخليقة؟
- وتصر على قول ذلك.

«أورفيوس»
يتنزه في ساحة
القرية

لهذا، الريح
في

براءتها،
تبعثر

الشموس التي تغيب،
وتلتحق بلبائنا
لتقودنا الى هذه الامكنة
حيث «التاريخ» و«العدم»
يمزجان
مياههما العظيمة.



.٨

نجلس تحت

أشجار رمان وارد

بلاد فارس

نعيش على هذه الاراضي الاقصى
من أنوية الزيتون
- عندما كان السفر متاحا.

على طرقات بنفسجية
او مائلة الى الصفرة،

عابرون

لا سعادة لهم إلا هذه الشمس

مع انها تتوعدهم،

إلا جوعهم المشترك،

- لأن للاحجار

اشكالا معرفية مختلفة

عن اشكالهم -

يتكلمون عن بحر «إيجه»
كما لو انه كائن حي.

الملائكة، في عرفهم،
لزوم ما لا يلزم

لأنه كان زمن...

ولكن الاجدى
أن لا نوقفه.



.٩

للحفلات الماجنة

طعم الجنازات

وبينما انا اقول ذلك
تكون الارض قد قطعت
مسافات شاسعة
في الفراغ،
الفراغ الداخلي،
والفراغ الذي تدور فيه
معها.

كل تطهير

يوازي خطورة

ما قد طهره

فأين الفرح

إذا؟

الفرح عندي، انا المقيدة،
أفق

قريب جدا،

يعمي البصر.



.١٠

كان الاسد

أول حيوان أحبته

منحوتاً على جدار

من حجر

وبزء

اما الثاني

فقد كشف لي

عمق البشارة

المذهل،

والعطر الذي
تحتزنه.

كان الحجر
في الشرق

أما الحب
ففي مكان آخر.

■

١١.
إحذروا
الماضي،
إنه سُم
حقولنا الجافة،

إحذروا أعمدته،
إنها أشجار بلا
ربيع ولا شتاء،

يتاكلها هي ايضاً
القلق في مواجهة
القدر.

■

١٢.
هناك، في بلاد غريبة،
سنديانات
مؤبة
أنصتت الى
وقع أقدام
نابليون
يعبر وادي
نهر الـ«زُون»
ليهاجم
على ارض عدوة
في اقصى الشمال.

كل هزيمة
هي نهاية
حياة.

■

١٣.
عادت الحجارة
الى حواراتها
لكي نعرف
بأن المادة
تتجاوز مداركنا...
الاشياء
هي اطفال
ظلالها

تسلقوا
أدغالا جهنمية
مثل القروء،
إصعدوا القمم

إن جراح
الذاكرة
جراح مميتة،

أدخلوا في
المتاهة
التي هي أديم.

■

١٤.
تعقب «ثيسبوس» السلك
ليتمكن من قتل المينوطور
الذي ضاجع له
زوجته

لكن السلك
إنقطع،
فحول
غضبه
ضد ابنه...

منذ ذاك الحين
يتذكره البعض
بين وقت وآخر،
لكن ذلك لا يزيده
الا موتاً.



١٥.

في بعلبك
معبد لمجد
«باخوس» و«بوليناس»،
هو «قصر الليل»
الذي تحرسه «جوان كيغر»
بأنشعارها ١

قد شاهدتهما
بعيون
طفولتي التي كانت
تجذب صغار ماسحي الأحذية
في أزقة
بيروت
فيما البحر
يتفجر بالنور
والقيظ.

كل ما أقوله ليس بجديد.

من تحت اقدامنا
ترتفع ذكرى
خفيفة،
لا تلبث ان تتبخر،
ضاجة
او هامسة،
لأن بلادنا
لن تلبث ان تتبدد
في
دخان.

١٦.

العمل
هندسة
لا شفاء منها
غارسها
على أنفسنا...

أود ان ألقاني وسط بدايات تلك

الاثار،

في نوع من جنون سائل
يتحوّل الى سماء
فوق رأسي،
في وتيرة متسارعة
لا اسم لها.

١٧.

نعم، انا في جوع الى تلك الحجارة
التي
أركض بينها
في زمن سابق على
ما قبل التاريخ

الرغبات والافكار المودعة
في الذاكرة
تنطفئ
واحدة بعد اخرى
سوف أسافر
طوال
ذلك الليل

دون حراك.

١٨.

صعدت مدرجات
الغرانيت الوردي
ومن ذلك الارتفاع
شاهدت
ولادة آسيا
أعظم القارات،

حيث إجتمع
التاريخ واللازمي.

ثم
توقف كل شيء.

لم يبق غير السماء،
قاسية، نائية، خالدة.

فجأة
بدا ان كل شيء
صار أليفا

يسهم
في نظام واحد:
... لا شيء اقرب الى المقدس
من العدم.

١٩

الايام محبوسة
في علبة «أسبيرين».
وانا اقول لكم
اني مشرفة
على الموت،
وان الرحلة ليست
باهرة...

شمس تسطح
على بحيرة
العصر،
ذكريات على بسطات
السوق،
هذا ما يسمونه
أبدية
في روزنامة الكائن،

في عيني
وردة ذابلة

٢٠

لن اعود
لاسمع غناء «إلا فيتزجيرالد»
ينداح فوق الاعمدة.
ولا هي سوف تعود.

٢١

عند خط الافق
تفتت الغيوم
الغيوم التي تتكون دوما

في أشكال
بشرية.

كيفما نظرت الى حياتي،
تلقاها مصنوعة
من شغف
واحد

دون ان يغير ذلك بشيء
من مصير العالم.

على سرير الانهار
عبارة واحدة،
تمحي وتكرر
بانه تمهرا،
هكذا انبأتني
السماء.

٢٢

عندما لن يعود احد
في انتظارنا
يبقى لنا الموت،
المخلص ابداً.

٢٣

ليست الحجرة
مغفلة لانها
مسكونة.

كان ثمة سنديانة
في فضائي، وجدول،
في هندسة مخصصة
لقدمي الحافيتين.

٢٤

أحياناً،
يكف الماضي عن ان يكون
شكلاً للحاضر. وتبقى مغنيات
قتلى مدفونات
في الذاكرة.

إن المطر والدموع
يتشابهان.

٢٥.

لطالما كانت سورية هي أم
الفوضى، ارضا توازي
كل الاراضي، في عيد التجلي
لشمس مُقبلة مقطوعة الانفاس.

٢٦.

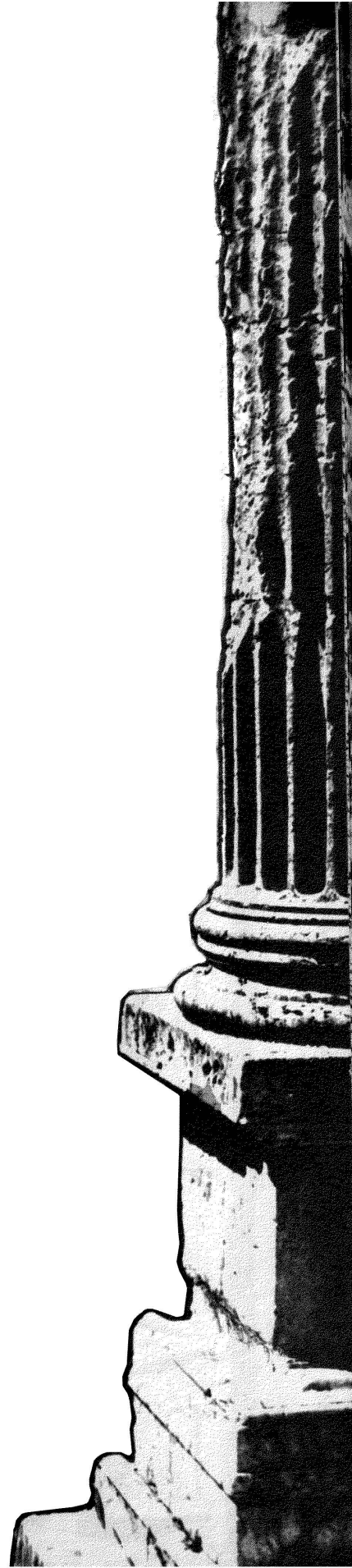
زيتونة «دلفيس»
قرب معبد
«سيسيون»
تتذكر النبوءة -
النبوءة التي قالت إن غب السهل
الذي يلي البحر الاحمر الى
البحر الاسود ثمة مكان آخر
للحجارة والصلوات
حيث سوف تنجح الموسيقى اخيرا
في
إزاحة السماء.

٢٧.

الآثار ذخائر
ونحن أنسباؤها
- بغض النظر عن السلالة.

٢٨.

طلال حيدر أقرب الى
الحقيقة مني،
ما دام ينتمي الى هذا
المكان؛
كان يلتقط القمر بين
الحجارة ويحمله الى
سريره، وهو ينحني، في هذه الايام،
ليلتقط زهرة،
فيعثر على خيط دم.





فروغ فرّخ زاد شاعرة ترويض الأحاسيس

مريم حيدري

شاعرة ومترجمة إيرانية.

ليومنا هذا لم تظهر شاعرة أهم من فروغ فرّخ زاد في إيران. وقد احتلت فروغ مكانة كبيرة في الشعر الإيراني المعاصر، بنبرتها الشعرية الفريدة، وصوتها الإنساني العميق الذي يتحدث بصدق وشفافية عن أدق ما كانت تشعر به الشاعرة وتراه من حولها في العالم، وتنعم النظر فيه، من دون الوقوع في فخ الشعارات والشكاوي والحديث المباشر عن الهموم. وعندما نقوم بدراسة شعر فروغ منذ البداية حتى نهاية مسارها الشعري، نجد أنها شاعرة مستقلة استخدمت وعيها وذكاءها وذاتها الشاعرة لتسير في طريق الحرية والخلود كما أي شاعرة عظيمة وشاعر عظيم. وبشعرها المتقدم في الرؤية والإيقاع، بات اسمها يتصدر قائمة رواد الشعر الفارسي الحديث إلى جانب نيما يوشيج، وأحمد شاملو، وسهراب سبهي، ومهدي أخوان ثالث.

ولدت فروغ عام ١٩٣٤ في طهران. تزوجت في سن مبكرة، أي في السادسة عشرة، من رجل يكبرها بخمسة عشر عاماً وكان الدافع حبا مفاجئاً، إلا أن هذا الزواج لم يدم أكثر من خمسة أعوام. ثم تعرفت في ما بعد إلى الكاتب الإيراني الشهير إبراهيم گلستان، الذي أصبح مرافقها الوفي في طريق الحياة، على المستويين الشخصي والإبداعي. أصدرت فروغ خلال حياتها القصيرة خمس مجموعات شعرية هي «الأسيرة» (١٩٥٢)، «الجدار» (١٩٥٧)، «تمرد» (١٩٥٩)، «ميلاد آخر» (١٩٦٢) ومجموعتها الأخيرة «فلنؤمن بحلول الفصل البارد» التي توفيت قبل أن تنهيا. لفروغ وجهان وتجربتان. الوجه الأول يشمل دواوينها الثلاثة الأولى. هو وجه متمرد لامرأة تعيش في بيت محاصر. فهي تتحدث خلال تجربتها الأولى عن امرأة وحيدة ومتمردة ومعتزضة، تساورها مشاعر المرأة والام، وإضافة إلى ذلك تروم إلى الوقوف في وجه تقاليد الأسرة والمجتمع. لا اختلاف في الأساليب الشعرية لديها عما كان يكتب معاصروها آنذاك، فهي متمسكة بالأوزان العروضية، وأنواع الشعر العمودي التي كانت متداولة بين الشعراء الإيرانيين آنذاك، إلا أن صوتها المعتزض كان فريداً من نوعه، ميزها، منذ بدايتها، عن شاعرات عصرها وشعرائه. أما الوجه الآخر لفروغ فرخ زاد فيبدأ بصور ديوانها «ميلاد آخر»، فكأنما هو ميلاد حقيقي آخر، أظهرت الشاعرة وجهاً عالمياً لنفسها ولشعرها، وأسلوباً منفرداً خاصاً بها، وذلك عبر تطوّر الفكر واللغة والتعبير لديها. تحوّلت نظرتها إلى العالم من نظرة شاعرة تكتب حسب غريزتها ومشاعرها إلى نظرة شاعرة تروّض المشاعر والأحاسيس وتسكبها في لغة تحررت هي الأخرى من القوالب السائدة لدى الشعراء الرومنطيين آنذاك. وفروغ، هي التي تقول في حوار لها: «أعتقد أن العمل الأدبي ينبغي أن يلازمه الوعي. وعي بالنسبة إلى الحياة والوجود والجسد، وحتى بالنسبة إلى هذه التفاحة التي نقضمها. لا يمكن أن نعيش حسب الغرائز فقط. بمعنى أن الفنان لا يستطيع ذلك».

نرى في ديوانها الأخيرين أن نصها أصبح مؤثراً أكثر من كونه متأثراً. وعلى سبيل المثال، كانت فيما سبق تتأثر في اختيار المفردات بشعراء عصرها أو باللغة الشعرية السائدة في ذلك الوقت والمسيطرة على نصوص غالبية الشعراء، إلا أنها أخذت تختار المفردات في مرحلتها الشعرية الثانية بطريقة الخاصة، غير آبهة إن كانت الكلمة دخلت النصوص الشعرية من قبل أم لا، ولا يهمها إن كانت المفردة فاخرة، أو بسيطة مستمدة من قاموس الحياة اليومية.

ومن أهم ما أثر في تجربة فروغ الشعرية كانت التوراة والسينما، فنلاحظ تأثير التوراة في لغتها الشعرية والمفاهيم التي دخلت شعرها في المرحلة الثانية، لا سيما المفاهيم الكونية. أما السينما فيظهر تأثيرها في الصور وكيفية تطرق فروغ لأفكارها وتطلعاتها ومنظارتها للحياة.

ولفروغ تجارب في حقل السينما أيضاً، فقد قامت بإخراج الفيلم الوثائقي «البيت أسود» الذي يعتبر من أهم الأفلام الوثائقية الإيرانية، ويتحدث عن حياة المحذومين في بيت خصص لهم، وقد حصل الفيلم على جائزة أفضل فيلم في مهرجان «أوبير هاوزن» في ألمانيا، كما أنها شاركت في إعداد أفلام ناجحة أخرى، وجزبت التمثيل أيضاً. وفي عام ١٩٦٥ أخرج برناردو برتولوتشي فيلماً في نصف ساعة عن حياة فروغ فرخ زاد بطلب من منظمة اليونسكو. توفيت فروغ عام ١٩٦٦ إثر حادث سيارة في أحد شوارع طهران.

١. فتح الحديقة

ذاك الغراب الذي
طار من فوق رؤوسنا
وغاص في فكرة مشوشة لغيمة شاردة
وجاب صوته الأفق مثل رمح قصير
سوف يحمل خبرنا إلى المدينة

الكل يعرف
الكل يعرف
أنا - أنا وأنت - رأينا الحديقة
من ذلك الثقب البارد العبوس
وقطفنا التفاحة
من ذلك الغصن اللاهي في البعيد

الكل يخاف
الكل يخاف، لكننا - أنا وأنت -
التحقنا بالماء والمصباح والمرأة
ولم نحف

ليس الحديث عن عقد هش بين اسمين
والمضاجعة في أوراق مندرسة لكتاب ما
الحديث هنا عن جدiltي السعيدة
مع شقائق النعمان المشتعل في قبلك

وحميمية أجسادنا في اللهو
وتألؤ عرينا

مثل حراشف الأسماك في الماء
الحديث هنا عن حياة فضية لأغنية
تردها النافورة الصغيرة كل صباح
نحن في تلك الغابة المرنة الخضراء
سألنا الأرانب البرية ذات ليلة
وفي ذلك البحر المضطرب الهادئ
سألنا المحارات المليئة بالذُرر
وفي ذلك الجبل الفاتح الغريب
سألنا العقبان الشابة:
ماذا علينا أن نفعل؟

الكل يعرف
الكل يعرف
أنا دخلنا أحلام العنقاوات الباردة الصامتة
نحن وجدنا الحقيقة في الجنة
في نظرة خجولة لزهرة مجهولة الاسم
ووجدنا الخلود في لحظة لا حدود لها
تحقق فيها شمسان، وأحدة في الأخرى

ليس الحديث عن تمتمة خائفة في الظلمات
الحديث هنا عن النهار والنوافذ المشرعة
والهواء الطازج
ونار تحترق الأشياء فوقها عبثاً

وأرض مثمرة من زرع آخر
والميلاد والتكامل والغرور
الحديث عن أيدينا العاشقة التي
شيدت جسراً من رسائل العطر والنور والتسيم
فوق الليالي

تعال إلى المَرَج

إلى المُرَج الكبير
ونادني، من خلف أنفاس زهرة الحرير
كما الغزال إذ ينادي أثناء

السنائر مفعمة بغصة خفية
والحمائم البريئة
تنظر إلى الأرض
من أعالي بُرجها الأبيض.

٢. الآيات الأرضية

ثم
الشمس بردت
والخصوبة تخلّت عن الأرض

الأعشاب في الصحاري يبست
والتراب لم يعد بعد ذلك
يتقبل موته
والليل كان يتراكم ويطغى
بين الشبائيك الشاحبة كلها
مثل خيال مشبوه
والطرق ضيّعت تتمتّنها
في الظلام

ولم يعد أحد يفكر في الحب
ولم يعد أحد يفكر في الفتح
ولم يعد أي أحد
يفكر بأي شيء

في مغارات الوحدة
ولد العبث
ومن الدم باتت تفوح رائحة الأفيون
الحوامل
أنجن مواليد بلا رؤوس
والمهود لاذت خجلاً
بالقبور
يا لمرارة الزمن، يا لعتمته

الخيزُ
قد تغلب على قوة الرسالة المذهلة
والأنبياء...

هربوا من المواقيت الإلهية
والأحمال الضائعة
لم تعد تسمع صوت أغاني الرعاة
بين دھول الوديان

الحركات والألوان والتصاوير
كأنها مقلوبة
في أعين المرايا
وحول رؤوس المهرجين
ووجوه المومسات الوقحة
هالة مقدسة
تلهب مثل مظلة مشتعلة

مستنقعات الكحول
بيخاراتها اللاذعة المتسممة
انت تمتص جماعات المثقفين الساكنة
إلى أعماقها
والجرذان
مضغت أوراق الكتب المذهبة
في الخزانات القديمة
كانت الشمس ميتة
كانت الشمس ميتة، والغد
كان يحمل معنى ضائعاً شديد الغموض
في أذهان الأطفال

إنهم كانوا يرسمون
غراباً هذه الكلمة العتيقة
على شكل بقعة كبيرة سوداء
في واجباتهم المدرسية

والناس، حشود الناس المتساقطة
كثيبة، نحيلة، ومذهولة
كانت تذهب من غربة إلى أخرى
تحت وطأة أجسادها المشؤومة
أحياناً كان فجأة بريق، بريق ضئيل

يبدد هذه الجماعات الصامته الهامدة
من الداخل
فيأخذون بالهجوم بعضهم على بعض.
الموتى كانوا يمزقون حناجر بعضهم البعض
بالسكاكين
ويضاجعون
القاصرات

إنهم كانوا غرقى وحشتهم
والشعور المرعب بالذنب
كان قد أشل
أرواحهم العمياء البليدة
وكل مرة في مراسيم الإعدام
حين يعصر حبل المشنقة
عينين متشنجتين لمحكوم ما
لتخرجاً من الحديقة
كانوا ينطوون على أنفسهم
وأعصابهم الهرمة المتعبة
كانت تتألم
من خيال مشتهى

ولكن
طالما كنت ترى هؤلاء المجرمين الصغار
في هوامش الساحات العامة
واقفين
ومحذقين
في الانسياب الدائم لنوافير المياه

ربما
يبقى شيء نصف حي ومشوش
خلف العيون المهروسة، في أعماق الانجماد
وفي سعيه العليل
كان يريد أن يؤمن بطهارة أغاني الماء
ربما، ولكن، يا للفراغ الأبدي
الشمس ميتة
ولا أحد يعرف
أن تلك الحمامة الحزينة التي
فرت من القلوب
كان اسمها الإيمان

آه، أيها الصوت السجين
ألا يحفر جلالُ ياسيك
يوماً ما
تُقبأ إلى النور
في جهة ما من هذا الليل البغيض؟
آه، أيها الصوت السجين
يا آخر صوت الأصوات...

٣. مديرة

أنا أتحدث عن نهاية الليل
أتحدث عن نهاية العتمة
وعن نهاية الليل
أيها اللطيف إن أتيت إلى بيتي
فأت بمصباح
ونافذة
لأنظر منها إلى زحام الزقاق السعيد.

٤. ميلاد آخر

وجودي كله آية مظلمة
سيحملك معه مكرراً
إلى فجر الازدهارات، والنمو الأبدي
وأنا قد تأوهتك في هذه الآية
تأوهتك
وفي هذه الآية
صهرتك بالشجرة والماء والنار.

ربما الحياة
شارع طويل تمر منه امرأة كل يوم حاملة سلة بيدها
وربما الحياة
حبل يعلق به رجل نفسه من الأغصان
الحياة ربما طفل يعود من المدرسة
أو عبور دائخ لعابر
يرفع قبعته
وبابتسامة عذيمة المعنى يقول لعابر آخر:
«صباح الخير».

الحياة ربما تلك اللحظة المسدودة
التي تحطم فيها نظرتي نفسها في بؤبؤ عينيك
وثمة شعور في ذلك
سأمزجه باستيعاب القمر ودرك الظلام.

في غرفة بحجم الوحدة
قلبي الذي يكون بحجم الحب
ينظر إلى أسبابه البسيطة للسعادة
إلى زوال الأزهار في الأصبص
إلى نبتة غرسها بيدك في حديقتنا
وإلى تغاريد الكناريات التي
تغرد بحجم نافذة.

آه...

هذه حصتي
هذه حصتي
حصتي

سماء يأخذها إسدال ستارة مني
حصتي النزول من سلم مهجور
والوصول إلى شيء في التخر والغربة

حصتي تسكع حزين في حديقة الذكريات
وأن أقضي نخبي في أسي صوت يقول لي:
«أحب يديك»

أزرع يدي في الجنينة
وسأخضر، أعرف ذلك، أعرف، أعرف

وستبيض السنونوات
في حفرة أصابعي الملتصقة بالخبر
سأضع قرطين في أذني
من توأم كرز حمراوي
وألصق على أظفاري أوراق زهرة الأضاليا
ثمة زقاق
ما زال فيه الفتية الذين كانوا يحبونني
بشعرهم المشعث ذاته، وأعناقهم النحيفة، وسيقانهم
الهزيمة
يفكرون بابتسامة بريئة لفتاة حملتها الريح ذات ليلة
معها

ثمة زقاق سرقه قلبي
من أحياء طفولتي

سفر حجم على خط الزمان
وأن تجعل خط الزمان الجاف يحبل من حجم ما
حجم لطيف واع
يعود من ضيافة امرأة ما.

وهكذا
يموت أحد
ويبقى أحد

لن يعثر أي صياد على لؤلؤة
في جدول وضيع يصب في حفرة.

أنا
أعرف ملاكا صغيرا حزينا
يسكن في المحيط
ويعرف قلبه في مزمار خشبي
بهدهوء.. بهدهوء
ملاكا صغيرا حزينا
يموت في الليل من قبلة
ويولد عند الفجر
من قبلة أخرى.

زين العابدين فؤاد الشاعر بحجم الضوء

زين العابدين فؤاد

شاعر وكاتب مصري،
من أعماله
«وش مصر»
(طبعة خامسة)
و«قهوة الصبيحة»
(٢٠١٥).

قصائد مباشرة

١

نعلم الحجر
يصبح سهام للصيد، رماح للحرب
يصبح شون للحب
بيوت، سقوف، حيطان
للنقش، والصور
تماثيل، جسور، ورش
فصول، هرم، عمدان
ويوابات حصون
تفتح على الدفا
في البرد، أو في الحر
نعلم الحجر
يتعلم الحجر
يرفض
يكون سجون

٢

نعلم الأراضي البور، تصير غيطان
نعلم الغيطان
تطرح غلال لوز وبرتقال
تطرح ورود عسل
شجر ورق
تطرح كافور، وتوت، وسيسبان

نعلم الغيطان

تتعلم الغيطان

تقف حرس وديبان

تحمي مداخل كنزها المختوم

من أي كف،

ما إتغسلشش بالعرق

٣

نعلم المطر
تتلم قطراته الضعيفة جنب بعض
تفتت الحجر
تعلبي راية الخضار
تفجر الانهار
يبقى لها بيت وأرض
تسقي الأراضي، والعطاشي،
لو يمدوا كفهم
تحمل مراكب الصيد وأشواق السفر

نعلم المطر

يتعلم المطر

يعرف من الانسان

ويعرف الانسان

معنى اتحاد الضعف، في ساعة الخطر

وازاي بملايين النقط

يتفجر الطوفان

٤

نعلم الصبيان تحب
نعلم البنات، تخرج من الخفا
ترفع غرامها ع البيوت
رايات مهفهفه
نعلم الشبان
في عز البرد
يخلقوا الدفا

٥

نعلم الحجر
نعلم الشجر
نعلم
نعلم المطر
نعلم الحياة
نعلم البشر

نعلم الحياة

تتعلم الحياة

تعرف: تكون لنا

سجن طره - يناير ١٩٧٥

والحرب لسة في أول السكة

رفعوا السنابل، بنادق
عبوا البنادق، بارود
الرملة قادت حرايق
والنار، فى دم الجنود
والحرب زى جنائين الحريه
مهرة، ومالهاش حدود
والحرب،
لسه، فى أول السكه،

اتفجّر يا مصر
اتفجّر بالحرب، ينطلق النهار
اتفجّر بالحرب،
ضد الجوع
وضد القهر
ضد التيار
واتسلّح للحرب، بالحرية
واتفتحي ورده بدم ونار
واتجمعى من ألف صرخه وضحكه
والحرب
لسه
فى أول السكه

١٩٧٣/١٠/٨

الفلاحين بيغيّروا الكتّان بالكاكى
ويغيروا الكاكى بتوب الدم
وبيزرعوك يا قطن ويّا السنّاكى
وبيزرعوك يا قمح ساريه علم.

وبيدخلوكى يا حرب، فحم الحريقه
وبيزرعوكى يا مصر، شمس الحقيقه

وانتي ميدان الحرب
سينا البداية
وانتي جنينه الصلب
والنصر رايه
وانتي البكا والغلب
انتي الرحايه
وانتي البارود، والحُب
والحرب جايه

غثوا التلامذه، الصبح
للحريه
الفلاحين ضمّوا غيطان القمح
رفعوا الرايات، فى الفجر، متنديه

يتجمعوا العشاق

يتجمعوا العشاق ف سجن القلعة
يتجمعوا العشاق ف «باب الخلق»
والشمس غنوة من الزنازين طالعة
ومصر غنوة مفرغة م الخلق
يتجمعوا العشاق ف الزناينة

مهما يطول السجن مهما القهر
مهما يزيد الفجر بالسجانة
مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر

يتجمعوا والعشق نار ف الدم
نار تحرق الجوع والدموع والههم
نار تشتعل لما القدم ينضم
لما الأيدي تفور تلم اللحم
و اللحم متنتر ف رملة سينا
و الكذب بيحجز على أيادينا
قدم العدو غارسة ف لحم ترابي
و الكذب عشش مخبرين على بابي
والمخبرين خارجين كلاب سمرانة
بيجمعوا العشاق ف الزناينة

مهما يطول السجن مهما القهر
مهما يزيد الفجر بالسجانة
مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر

مصر النهار يطلقنا ف الميادين
مصر البكا مصر الغنا والطين
مصر الشموس الهالة م الزنازين
هالة وطارحة بدمنا بساتين
مصر الجنان طارحة مين يقطفها
مصر الجنان للي يرفع سيفها

مهما يطول السجن مهما القهر
مهما يزيد الفجر بالسجانة
مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر

١٩٧٢

أغنية حب

نعشق وتحضن عينا
نفتح عيوننا ونحلم
يصبح نهارنا جنينه
والفجر يطلع يسلم

يحضن معنا الرفاقه
والقلب، اه، لما يعشق
يفتح ولا الف طاقه
فيها العصافير، تزقزق

نعشق وتحضن ايدينا
كل الحياه، لما نعشق،
الرمل يصبح مدينه
والفجر يطلع يشقشق

يا شمس بكره، تعالي
خاتم في صابع، حبيبي
يا بدر، نص الليالي
نور، في ضحكة حبيبي،
يا برتقان يا بودمه
شفتك في شفة حبيبي

نحلم بيكره يجينا
راكب سفاين، سفاين
وانتي فنار كل مينا
يا جنينة غير الجنانين

والحب في القلب ورده
ورده بالوان جديدة
نرفعها بعد، المناهده
رايات في ناصيه، بعيده

١٩٧٤

لحنها الشيخ إمام

يرجع البلشون يطير إلى زكي مراد

٣

نختلف، نتفق
الرايات تتسرق
نختلف، نتفق
الفروق تتكشف

نختلف، نتفق
الورد تتخلق
نختلف، نتفق
البلاد تتعرف

أيد بحلم النهار
ترسم الانتصار
نختلف، نتفق
نتفق نختلف
ننطلق م الحصار.

٤

يضحك للبحر
يضحك والكرباج ع الضهر
يهتف وسط جنازته
يهتف وسط جنازته
لمصر

ديسمبر ١٩٧٩

ولكل الجهات

أنا جَمَل الصلْب لكن علتي الجمال
و يا عم يا جَماله يا ليله
سكة بعیده، الرفاق عطشانه يا ليله
قادرين، ونقدر لسه ع الاحمال
يا ليله

١

يرجع البلشون يطير
يبتدى م النوبه، يغلط فى الجهات
يعرف الغله ولون الريش وسحر
الطيران
يعرف الفيضان
و فوران النبات
يكشف السرّ المغطى
يعرف الفقرا وحراس السجون
يشرب الشاي فى الواحات
والحجلات.
فى القدم
و المرايات: العيون
والأيادي والقلم
ضد جيش القهر حربيه
للغلابا: ميت علم
تنفرط م العقد حبه

يرجع البلشون يسافر
يخلط النيل بالقناطر
ينكسر تحته الجناح
يتنتف ريشه، يلم الريش جراح
مُر طعم الدم
قاسيه البوابات
يرجع البلشون يطير
يبتدى م النوبه

من اغاني حصار بيروت صوت المسا

صوت المسا داخل
خطوة ورا الثانيه
وعيون بتتقابل
في حلم حريه

صوت المسا ، يجينا
ورفاقه ، في الخندق
بيلونوا المينا

والبحر ، بالازرق
يا بيوت بيفتح ع العروق والنبض
للارض طعم الناس
للعشق طعم الارض
بيروت شجر عالي
بيميل ويحضن بعض
ويرسم المينا
مركب وطير ابيض

نص الشوارع ورد
نص الشوارع نار
وعيون في عمر المهد
بتفرق الامطار

يا بيوت بتفتح ع العروق والناس
يا حمامه ناسيه عشها ، في متراس
يا حرب يا جايه ، يا مجمعه الحراس
يا حلم حريه
ماشي ورافع الراس

اغسطس ١٩٨٢
أغنية ما لحنهاش عدلي فخري

شجرة الموت

شجرة الموت
قطعت حبل الخلاص
ودخلت م السرّه
حضنت امي اللي نعست
قبل ما تسمي
رضعت من دمها
واخضرت البذرّه
وفي السرير اتبدل جسمي
وصار شجره
مع كل صاحب يزورك
جسمي بيورق
جسمي النحيل ، الزرق
الزرق الناعم ،
خمس سنه ، والشجر
بيسقط اوراقه
وانت ،
ربيع دايم

١٩٩٢

قهوة الصُبحية

يملاها حلم بقهوه
دايره فى الصباح
وتنشرب فى الراح
وأنا فى مكاني
مع قهوة الصُبحية
بالقى الكون
فى فنجاني
٦ يونيو ١٩٩٨

هنا اللي قهوة عينهم تطلق الضحكات
هنا مدن زرنا قهاويها
وشربنا م الأحلام
هنا صحاب نغلط فى اساميهها
هنا قهوة مَره وحبهان م الذهب
هنا قهوة سوده، والحليب على كنب
هنا سجون تتعدّ فى التمامات

مع قهوة الصُبحية
يملا نسيم الرن، كل البيت
مع كل نسمة، يفتح بابي
يدخل صحابي
حتى اللي ماتوا
يدخلوا جماعات
مع كل شفته يتملي البيت بالكلام
هنا كلام ما وصلش لسه لشط
هنا سُكات

السكن فى تَنَى العين

ساعات
باشوف القصايد، بتمشي
وبافتح عيوني لآخرها،
وأخلي القصايد تنام
على مخدّه من ريش نعام
في مهد الدموع اللي نابت
في جفني
ولما القصايد تفكر تسيبني
اغطي القصيده
برمشي

٢٠٠٠

شمس الصُبحية

يدخل شعاع الشمس
من شعر مفروود ع المخدّه، اللي جنبى
من النَّفس، واللمس
من الستارة اللي بتغطى شباكى، وقلبي
يدخل شعاع الشمس
من العتم والحفا
يطلق صَوابع الدفا
عصافير تُلَقَط غلة الأيام، من قورتي
حَبّه، بحبه تلمس صورتي
ترجع ملامحي مع شعاع الشمس

٥ يونيو ١٩٩٨

السكن تحت الجبل

الى نصر حامد ابو زيد

٣

ينده عليك الصحاب
ترجع، في صفحه كتاب
تنده عليك ابتهاال
ترجع، في رد السؤال
ينده عليك الوطن
تركب حصان الزمن
وتعود،
علامة نصر

مارس ٢٠١١

٢

نفسك دفا في رقبتي
وعيون تسابق كتابتي
وتحط فاصلة نسيته،
ونقطه آخر السطر

١

تتعب من السفر القريب،
والبعيد
تغير القمصان
مع العنوان
تترك حيطان الزمن
تنفض عبايه البدن
تلمح عنيك، فتحة في جلد الايد
تضحك لها
وتمر
شايه يمينك، كتابك
شايه الشمال،
ابتهاال
واللي اتسرق م العمر

كتابة على كفن سالي زهران

اهداء إلى ايهاب السويسي

يا سالي يا بنتنا
هتومتى كام مرّه؟
دمك على كفنا
وانتى بلاد حرّه
مين ينكر كافر
وانتى جسد طاهر
يفتح ببيان بكرة

٢٤ ديسمبر ٢٠١٢

والشعب وحده اللي هي

من الهرم للشام
نزل العرق ع الدم
كتبوا بسن القلم
على حيطان البيوت
الشعب مسك الزمام
الشعب يرفض يموت

الشعب رفع العلم
إرحل يا جيش الظلام
خلي القمر بيتسم
خلي شمسنا تفوت
من كل حرف ونغم
يعلا، يهد السكوت
يكسر قيود القدم

ارحل يا جيش الظلام
دي الخطوه ثوره وضّي
خلي ولادنا الصغار
تفتح جنينة النهار
تكتب تاريخنا اللي جاي
كل المظالم تموت
والشعب، وحده، اللي حي

١١ اغسطس ٢٠١١

ايه اللي بين الرصاصة والقنيل

برتقان ينسى يزهر ع الشجر
ويفوح بنات
أرض تكشف صدرها للشمس
يكسيها النبات
نيل يغير تياه
ويفتح كتابه
ويبدأ الفيضان
بقطرة الندى
بمهر جامع في المدى
بيكّر الرمان
ويجمع الشهدا
في سكة الابتدا

الفراشة

الى مينا دنيا

أقطف يا مينا،
وردة الجنّة
واحضن جسد حمزة،
الصبي المقتول
ولفّ زينب بنت «قانا» بالعلم
وأسأل الدّرة، الفلسطيني،
محمد
كان شكله ايه القاتل؟
ويفرق ايه عن اللي قتلك يا مينا؟

١٠ اكتوبر ٢٠١١

حلمي سالم يرسل في الاماكن

لما الشاعر يقفل كتب الايام
نفتح كتبه
نتهجي وياه الدنيا والاحلام
ندخل جوّه حروفه
ونشوفه
إزاي بيزلزل أركان الكون
علشان يكشف
جوّه عيوننا أسرار اللون
حلمي سالم قفل كتب الايام
٢٩ يوليو ٢٠١٢

الرصا ص يكتب أسامينا اغنية للشهدا اللي ما بيعرفوش لسه يكتبوا أساميهم

قبل النهار ما يضمّنا في الصف
قبل القلم ما ينام
حمام
في الكف
قبل السما ما تنام على الورقة
بقع بيضاء، وبقع زرقه
قبل النعاس في حضن أهالينا
بعثوا الرصا ص يكتب أسامينا

٣١ مايو ٢٠١٢

مريم

قصيدة ضفاير مريم انا ما كتبتهاش. كتبها الدمع المحبوس في جفني من يوم تفجير كنيسة القديسين الدمع الي ما بيعرفش اسامي الشهدا كلهم. كتبها الغاز الي فضل يسحب دم وفاء هيكل من نوفمبر ٢٠١١ لحد ما امكن من انه يخلص علي اخر نقطه في عمرها في نوفمبر ٢٠١٣ .

الفضل يرجع لاصحابه للشهدا الي ييفتحوا بوابات شمس الحرية للمصابين والجرحي.
يا وفاء من فضلك ضفري شعر مريم وخليها تروح المدرسة.

١

مين هيفك ضفاير مريم؟
مين هيشيل من وسط ضفايرها
الطين والدم المتجمد ورصاصه،
دخلت في الشعر وباتت
و بيديلها بنجمه؟
مين هيفك ضفاير مريم؟
مريم بنت امبابا
ما عرفتيش مرتينا فكري
اللي سبقتها ع الجنه
كانت زيتها في كنيسه
في كنيسه القديسين : سمعتي الاسم يا مريم
هي في حته بعيدة، قرب البحر
هي عروسه
تعرف في الزينه و في الشعر
خلي مرتينا تفك ضفايرك
لو تهتي، او ماعجبكيش تضفيرها
اسالي عن مريم ثانيه
مريم مكرم
من الزاوية الحمراء
خرجت فرحانه
وهي بتسمع صوت اثورة
خرجت من البلكونه تصوّر
صوت الشبان اللي بتتهف للحرية

لكن الطلقة
يعني : الرصاصه يا مريم ، وصلتها
قبل الصورة ما تظهر في التلفون
تلاقيها في الجنه، معاكي يا مريم
اسالي عنها
لو ماعجبكيش تضفيرها لشعرك. روعي لوفاء
ايوه يا مريم
اسمها وفاء هيكل
افتكري كويس
وفاء هيكل يا مريم
وفاء يا مريم فضلت ويانا وماشيه وسطينا
شهيد
مش عارفة امتى هتطلع لكوا ع الجنه
لانها في محمد محمود يا مريم
وده شارع
مش بعيد عن ميدان التحرير يا مريم
الغاز دخل من تحت اقدامها
وفضل يمشي في الاعصاب
فضل الغاز يطرد في الدم،
نقطه بنقطه
كل الدم اتسرب
يا مريم/ ويا العمر
سكن الغاز في عروقها بدل الدم
لكن لسه ايديها قوية هتقدر،
تعمل من شعرك: احلي ضفيرة

مين هيعلم مريم تكتب اسامها واسامينا
مين هيعلم مريم تقرا؟
طبعا انتي عرفتني يا مريم
ان الشهدا مابتكبرش
اسألني يا مريم عن مدرسة اسمها
بحر البقر، كل الاطفال فيها شهدا
خُشي سنه ثانية رابع
العبي وياهم واكتبي
إقري وْعدي
إفضلي وياهم في الفصل
لكن لو نسيوا او كانوا بيكتبوا دلوقتي
بلغات ثانية في الجُنه
تعملي ايه يا مريم؟
تسألني مينا دنيا
عن واحد صاحبه
راجل حافظ كل الاسماء
ياخدك من ايدك يا مريم
هيقرا معاكي ويكتب
هيقول ويفسر
سرا الحياة و الموت
ويقولك يا مريم: انتي ليه اتقتلتي
وانتي بتغني جوه فرح
الراجل دا يا مريم
اسمه عمّو عماد
لكن هتلاقي الشهدا بيقولوا
ان اسمه الشيخ عماد عفت

٢٠١٤

الغناء والجسد

جون برجر

روائي وكاتب وناقد
ورسام بريطاني.
آخر أعماله الصادرة
بالعربية «من عائدة
إلى كسافييه»
(٢٠١٠).

تستولي الأغنية على جسم المغني مرة بعد أخرى. وبعد وقت، تستولي على جسم حلقة المستمعين، فيتذكرون ويستبقون، وهم يستمعون إلى الأغنية ويلوحون لها. ليست الأغنية مقيّدة بزمان أو مكان، تروي الأغنية تجربة ماضية، لكنها عندما تغني، تملأ الحاضر. الحكايات تؤدي الدور ذاته، لكنّ للأغنيات بُعداً آخر تتفرد به، عندما تملأ الحاضر، تأمل الأغنية أن تصل إلى الأذن السامعة في مستقبل ما وفي مكان ما، تميل إلى أمام، أكثر فأكثر. بل إنني أعتقد أنه لولا الإصرار على هذا الأمل، لما وجدت الأغاني. الأغاني. الأغاني تميل إلى أمام، السرعة، الإيقاع، التجميع، التكرار في الأغنية تبني ملجأً لانسياب الزمن المتواصل: ملجأً حيث يستطيع المستقبل والماضي أن يتشاركا العزاء والاستفزاز، السخريّة والإلهام، معظم الأغاني المسموعة عبر العالم في هذا الزمن هي تسجيلات - وليست عروضاً، وهذا يعني أن تجربة المشاركة واللقاء الجسمانيين أقل حدة، ولكنها باقية مع ذلك في قلب عملية التبادل والتواصل الجاريين.

صباح الخير، أيتها الأحرار
كيف أنت أيتها الأحرار؟
أنا على ما يرام،
صباح الخير،
كيفك أنت؟
(بيسي سميث)

«شيناندوا» هي أكثر الأغاني التي كانت أغنية أمة تغنيها لي، على ما أذكر. قد تغنيها أحياناً في نهاية وجبة طعام بحضور مدعوين أو في لحظات من الامتلاء الصامت.

إلى ياسمين حمدان
ياسمين، بينما كنت أشاهدك وأسمعك تؤدّين أغنياتك الأسبوع الماضي، تملكنتني غريزة لكي أرسمك، كانت غريزة عبثية لأن المكان كان مظلماً جداً، ولم أكن أميّز حتى دفتر الرسم على ركبتيّ. فكنت أخربش من دون أن أرى أو من دون أن أشيح بنظري عنك، ثمّة إيقاع في هذه الحربشات، كأنّ قلّمي كان يرافق غناءك، لكن القلم ليس هارمونيكا ولا هو طبلّة. والآن وقد ساد صمت، لم تعد خربشاتي تساوي شيئاً أو بالكاد.
كنت ترتدين حذاءً أحمر ذا كعب عالٍ، وطماقاً أسود ضيقاً، وقميصٌ تي شيرت داكن اللون مبالاً إلى الثدي ونصف شفاف ذا كثافة ملبّدة وشالاً برتقالياً بلون المشمش. بدوّ خفيفة، ذابلة، ومنمنمة مثل متسكعة دائمة.
يتغيّر كل شيء عندما تباشرين الغناء. يتماسك جسمك ويمتلئ بالأصوات، كما يمكن لفنينة ملأى أن تملأ إلى أن تفيض بسائلها. غنيت بالعربية، وهي لغة لا أفهمها، ومع ذلك تلقّيت كل أغنية كتجربة كاملة غير منقوصة. ما تفسير ذلك؟ لنّ أدعي أن كلمات الأغنية ليست ذات بال فهذا ضرب من الغباء. تلقّيت كل أغنية غنيتها مثلما فعل المئة شخص أو أزود، وقلة منهم تتكلم العربية. وكنا قادرين على أن نشاركك ما كنت تغنّينه. كيف تفسير ذلك؟ لست متأكداً من أنني أستطيع التفسير، ولكنني أريد تسجيل بعض الملاحظات.

الأغنية عندما تُغنى أو تُعرف تحتاج إلى جسم. وهي تفعل ذلك بأن تستولي مؤقتاً على الأجسام الحاضرة: جسم عازف الكونتريابص العمودي فيما تداعب أوتاره، أو جسم الهارمونيكا تكوّره يدا ترفرفان وتنقدان مثل طائر أمام فم، أو صدر ضارب الطبل وهو يقرقع طبله.

كان لها صوت آلتو ناعم، غنائي وليس درامياً أبداً. تعود الأغنية، المأخوذة من كتاب الأغاني تبع أبي، من منتصف القرن التاسع عشر. وادي «شيناندوا» موقع لأحد معازل الهنود في أواسط الولايات المتحدة.

آه، يا شيناندوا
أحنّ لرؤيتك
أنت البعيدة ذات النهر الهادر
آه، يا شيناندوا
أحنّ إلى رؤيتك
وأنا البعيد المقيّد في البعد
عبر الميزوري المترامية الأطراف.

النهر من روافد نهر الميزوري الذي يصبّ في الميسيسيبي. صارت الأغنية أغنية أثيرة لدى السود لأن نهر الميزوري يفصل بين جنوب أميركا تبع أسياذ العبيد والشمال. وهي أيضاً أغنية يروق للمراكبيين والبحارة غناءها. والأطراف السفلى من الميسيسيبي في تلك الأيام نهر يكثر فيه الإبحار. كانت أمي تغني لي هذه الأغنية وأنا في الأولى أو الثانية من العمر. لم تكن الأغنية طقساً من الطقوس، ولست أذكر أنها كانت تغنيها لي بمفردي. لكن الأغنية كانت موجودة: شيئاً غامضاً بين أشياء أخرى في البيت وكنت أستشعر حضورها، مثل قميص في خزانة الثياب، ترتديه في المناسبات الخاصة.

مضت سبع سنين
منذ أن شاهدتك
وأنصت إلى نهرك الدافق
مضت سبع سنين
منذ أن شاهدتك
ونحن بعيدين، نحن البعيدين المقيدين
عبر الميزوري مترامي الأطراف.

في كل أغنية مسافة ما. ليست الأغنية هي البعيدة، لكن المسافة مكوّن من مكوناتها، مثلما الحضور مكوّن من مكوّنات صورة تشكيلية. وهذا يصح منذ بدايات الأغاني وبدايات الصور. المسافة تفصل أو يمكن اجتيازها لكي تجمع. لكن الأغاني تتعلّق بالرحلات، ضمناً أو علناً.

ليبتني في «كاريكفرغس»

لبضع ليال فقط في «بالغراندا»
لسوف أعبّر أعمق المحيطات -
أعمق المحيطات - لأكون إلى جانبك.

تشير الأغاني إلى لواحق وعودات، وإلى استقبالات ووداعات. بعبارة أخرى: تغني الأغاني إلى غياب. الغياب ملهمها والغياب وجهتها. وفي الوقت ذاته (وعبارة «في الوقت ذاته» تكتسب معنى مميّز هنا) في تشاركية الأغنية يجري التشارك في الغياب، فيصير أخف وطأة، أقل وحشة، وأقل صمتاً. وهذا «الاختزال» للغياب الأصلي خلال المشاركة في الغناء، أو حتى خلال ذكرى الغناء، يعيشه الجمعي بما هو انتصار. انتصار سافر أحياناً وضمني أحياناً أخرى. «أستطيع أن ألفت جسمي بشرنقة أغنية وأمضي إلى أي مكان؛ أنا عصيّ على الهزيمة»، هكذا تحدّث جوني كاش.

غالباً ما يتحدث راقصو الفلامنكو عن «إل دويندي» وهذه صفة تحوّل العرض إلى عرض لا ينسى. تحل «الدويندي» عندما تتملك الراقص قوة أو مجموعة تشنجات برّانية أو جوانية. «الدويندي» شبح من الماضي عصيّ على النسيان لأنه يزور الحاضر لكي يحاكي المستقبل. في العام ١٩٣٣ قدّم الشاعر الإسباني غارسيا لوركا محاضرة في بونيس أيرس [الأرجنتين] عن طبيعة «الدويندي». وبعد ثلاث سنوات من ذلك، في مطلع الحرب الأهلية الإسبانية، أعدم لوركا رميّاً بالرصاص أمام مفرزة من «الحرس المدني» التابع للجنرال فرانكو. قال لوركا في محاضراته «كل الفنون قادرة على ممارسة الدويندي، لكن الدويندي، حين تلقى مداها الأوسع، في الموسيقى والرقص وتلاوة الشعر، تحتاج إلى اللحم الحيّ لأدائها، لأنها أشكال فنية تولد لتموت وتتخطى تخومها الحاضر المباشر. تشتغل «الدويندي» على الجسم الراقص مثل ربح على كتمان رمل. تغير «الدويندي» الراقصة بقوة سحرية فتحيلها إلى سكرى قمرية، أو تغطي وجنتي عجز، منكسر يستعطي في خمارة، بخمرة الحفر المراهقة، وتضمخ شعراً المرأة برائحة المواني البحرية في منتصف الليل: وفي كل لحظة تحرك أذرع الراقصة بإيماءات هي أمهات كل رقص في كل عصر».

على مكتبي دوماً زحمة من الأشياء، وزحمة من الأوراق. أمس في قعر «ستفة» من الأوراق عثرت على بطاقة

الواحدة منهما الأخرى. مع أن بينهما سنوات ضوئية من حيث قانون النسب والتطور.

هذه «بشارة مريم» رسمها أنطونيللو دا ميسينا حوالي العام ١٤٧٠ (ص. ٢١٠). هي رسمة صغيرة ليست أكبر من مرآة متواضعة فوق حوض غسيل. لا ملائكة فيها، لا الملاك جبريل، لا أغصان زيتون، لا زنايق ولا حمام. نشاهد «السيدة العذراء» في صورة مقرّبة ترى منها الرأس والكتفين، ترتدي ثوباً وجلباباً أزرقين. على رفّ أمامها إنجيل مفتوح أو كتاب صلوات. لقد سمعت للثو البشارة بأنها سوف تلد ابن الله. عيناها نافرتان لكنها خافضة الطرف، شفتاها منفرجتان ولعلها تغني. يداها تضغطان برفق لكن بثبات على صدرها. كأنهما تريدان ملاستها، وتسلسل أصابعهما إلى داخلها، وتوغّلها في الأحشاء التي تلقت إشارة.

سبقت الإشارة إلى الكيفية التي بها تستعير الأغنية الأجساد المتواجدة ليكون لها جسد لذاتها فيما هي تُغني. وقد يكون الجسد المستعار جسداً آلة موسيقية، أو عازف فرد، أو جسد مجموعة عازفين، أو جسد جمع من السمّعة. وتنزاح الأغنية فجأة من جسد مستعار إلى آخر. والمجدير برسمة أنطونيللو أن تذكرنا به هو أن الأغنية تغور دوماً في باطن الجسد الذي استعارته. ويُجد لها مكاناً في أحشاء الجسد: في طبلة الطبل، وفي إمعاء الكمنجة، وفي نحر المغنية والمستمع أو العانة.

جوهر الأغاني ليس صوتياً أو ذهنياً بل عضوي. نقفني أثر الأغاني لكي تنسربل بها. ولهذا فما تقدمه الأغاني مختلف عما تقدمه أي رسالة أخرى أو أي شكل تواصل آخر. في الأغنية نجد أنفسنا داخل رسالة ما. أما العالم غير الشخصي وغير المغني فيبقى في الخارج، في الجانب الآخر من المشيئة. كل الأغاني تشتغل بطريقة أنثوية، حتى عندما يكون مضمونها أو أداؤها ذكورياً. هذه رسمة رسمتها لليدين في لوحة أنطونيللو دي ميسينا (ص. ٢١١).

الأغاني تلي، تجمع لكي تجمع. والأغاني، حتى عندما لا تُغني، تلقاها في انتظارك عند نقاط التجمع. وكلمات الأغاني مختلفة عن الكلمات التي يتكون منها النثر. في النثر، تكون الكلمات كائنات مستقلة؛ الكلمات في الأغاني هي أولاً وقبل أي شيء آخر، الأصوات الحميمة للغة الأم. كلمات تدل على ما تدل عليه، ولكنها تتجه إلى جميع الكلمات الموجودة في تلك اللغة وتندفق نحوها.

بريدية أرسلها لي صديق من إسبانيا قبل بضعة أشهر. الصورة التي على البطاقة سوداء وبيضاء لراقص فلامنكو التقطها المصور الفوتوغرافي الإسباني تاتو أوليفاس، المشهور بصورة الراقصين.

أن مصب النهر في البحر يسمى «فم النهر» في كل اللغات تقريباً. والمياه التي تندفق من فم النهر تتجه نحو مجهول بلا حدود. يحصل الأمر ذاته بالنسبة إلى فم الأغنية.

عندما عثرت على الصورة، قدح في ذاكرتي أمر لم ألاحظه من قبل عندما شاهدت البطاقة البريدية. انتظرت، ثم انضح كل شيء. صورة الصبيّة التي تتأهب للرقص ذُكرتني برسمة رسمتها للرجسة، هي واحدة من سلسلة رسوم رسمتها قبل سنوات. عثرت على الرسمة وأخذت أقارن بين الإثنين، ثمّة وجهٌ شَبّه بالتأكيد بين الصورتين، بين هندسة جسم الراقصة المتحفّز وهندسة الزهرة المتفتّحة. الملامح مختلفة طبعاً، لكنّ الزخم وطريقة التعبير عنه بواسطة الأشكال والإيماءات والحركات على سطح الصورتين كلها متشابهة.

نسختُ الصورتين وجمعتهما في صورة مزدوجة وأرسلتهما مع رسالة إلى المصور تاتو أوليفاس. أجنبي بأنه التقط الصورة لعشرين سنة خلت في مدرسة فلامنكو شهيرة في مدريد اسمها «أمور دي ديوس» (حب الله). وهي مقفلة الآن. لم يقابل الراقصة منذ ذلك الحين ولا يعرف منها حتى الاسم. ومضى يقول إن «الصدفة» التي جمعت الصورتين جعلته يفكر في صورة أخرى من صورهِ هي أكثر شبهاً بصورة الراقصة. هي صورة الراقصة الأسطورية ساره باروس عندما كانت صبيّة. أرسل لي نسخة عنها فلم أصدّق عيني. الراقصة والراقصة مثل توأمين، عدا أنّ واحدة امرأة والثانية من فصيلة النبات. ولعلك تفترض فوراً أن المصور أو الرسام دأب على «مشابهة» الواحدة بالأخرى. لكنّ هذا لم يكن هو الحال. لم تتجانب الصورتان قط قبل الآن.

الشبه بينهما فطري بل كأنه وراثي (مع أن ذلك مستحيل بالمعنى المتعارف عليه للعبارة). غير أن زخم رقصة الفلامنكو وزخم الزهرة المتفتحة يظهرهما خاضعتين لصيغة دينامية مشابهة، لهما النبض ذاته على الرغم من تفارق الأزمنة. من حيث الإيقاع، تواكب



الأغاني أنهر، كل يسير في مجراه ومع ذلك الكل يتدفق ليصل إلى البحر وهو مصدر كل شيء حي. يسند هذا التشبيه حقيقة أن مصب النهر في البحر يسمى «فم النهر» في كل اللغات تقريباً، والمياه التي تتدفق من فم النهر تنجس نحو مجهول بلا حدود. يحصل الأمر ذاته بالنسبة إلى فم الأغنية.

الكثير مما يحصل لنا في الحياة لا اسم له لأن قاموسنا مدق الفقر. تروي معظم الحكايات بصوت مرتفع لأن الراوي يأمل أن تحوّل تلاوة الحكاية الحدث اللا اسم له إلى حدث أليف بل حميم.

نحو إلى ربط الحميمة بالقرب والقرب بكمية معينة من التجارب المشتركة. لكن الحقيقة أن غرباء كاملين، لن يتبادلوا كلمة واحدة فيما بينهم، يمكن أن يتشاركوا في لحظة حميمة. هي حميمة تتضمنها تبادل نظرة، إيماءة رأس، ابتسامة، أو هزة كتف. هذه قربي تدوم لدقائق أو لمدة أغنية تغنى ويتشاركون في سماعها. هذا تعاقد على الحياة لا بنود له. هي خاتمة تتشارك فيها عفوية حكايات غير مروية تجمعت حول أغنية.

الساعة الثامنة في مساء صيفي في قطار مترو متوجّه إلى إحدى ضواحي باريس. توجد مقاعد خالية ومع ذلك فالمسافرون الواقفون ليسوا مزدحمين. أربعة رجال في منتصف العقد السادس متجمعون وقوفاً قرب البوابات الزلاجة إلى يمين المقصورة، وهي البوابات التي لا تفتح عندما يكون القطار متجهاً تلك الوجهة. أحدهم أسود، اثنان بيضاوا البشرة والثالث لعله عربي مغربي. أقف على مسافة منهم. أول ما لفت نظري التواطؤ وحيوية الحوار المتبادل بينهم والقصص التي يروونها. الأربعة يرتدون ثياباً غير رسمية ولكنها منتقاة بعناية. يبدو أن مظهرهم يعني بالنسبة إليهم هم أكثر مما يعني لمعظم من هم في مثل سنهم. كل ما فيهم متيقظ، لا شيء مترهلاً. المغربي يرتدي شورت أزرق متدياً ونعل رياضية نظيفة، علامة «نايك». الأسود مجدول خصلات الشعر، بلون خشب الصندل، أربعتهم نشطاء وذكوريون.

يقف القطار ويخرج ركاب. اقترب أكثر من الرباعي. كل منهم يتدخل في أداء الآخر باستمرار. لا مونولوجات، لكن لا يبدو أن ثمة من يقطع مداخلة الآخر. أصابعهم، كثيرة الحركة، غالباً ما تكون أمام وجوههم. أدركت فجأة أنهم صمّ بكتم. فقد منعني طلاقهم من أن أدرك ذلك قبلاً.

❖
ياسمين حمدان



❖
راقصة فلامنكو



✿
الحريشة عن
ياسمين لبرجر

✿
رسمة النرجسة
لبرجر وصورة
الراقصة التي
أرسلها له
تاتو أوليفاس

محطة جديدة، يستجلسون على أربعة مقاعد متقابلة، أقف وراءهم، يستمرون في التصرف كأنهم وحدهم، لكن الطريقة التي بها قرروا أن يتجاهلوا الآخرين هي شكل من الدراية والتهذيب، أكثر منه إهمالاً.

أسترق النظر في المقصورة أمام وخلف، يبدو أنني الشخص الوحيد الذي لاحظهم، أحياناً يشخر واحد منهم ضاحكاً، ويواصلون رواية حكاياتهم وتعليقاتهم على الأحداث، وما أنا الآن أراقبهم بالفضول الذي به يراقب واحد منهم الآخر.

يتشاركون في مفردات من الإيماءات بديلاً عن مفردات من الكلمات المنطوقة، وهذه مفردات لها نحوها الخاص والإعراب، يتأسسان على التوقيت في معظم الحالات، إيماءاتهم الأيدي والوجوه والأجساد وقد أخذت وظيفة اللسان والأذن، نيابة عن عضو يعبر وآخر يتلقى، وكلاهما على القدر ذاته من الأهمية في أي حوار متواصل أينما كان، ومع ذلك، ففي هذه المقصورة كلها، وفي هذا القطار برمته، لا أحد يحاور أحداً، بطريقة تشبه الحوار الجاري بينهم.

كل حركة جسمانية يومية بها الرباعي في محادثته - العين، الشفة العليا، الشفة السفلى، الأسنان، الذقن، الإبهام، الأصابع، المعصم، الكتف - كل ملمح لديه عندهم مقام آلة موسيقية أو صوت، بما فيه من أنغام وترجيفات ودرجات مخصصة من الإصرار أو التردد.

ومع ذلك، لا يطن في أذني إلا صوت القطار يتباطأ نحو المحطة المقبلة. يتأهب عدد من الركاب للخروج، أستطيع أن أجلس الآن لكن أؤثر أن أبقى حيث أنا، الرباعي يعي حضوري، طبعاً، واحد منهم يبتسم لي، لا ابتسامة ترحيب، إنما ابتسامة قبول.

ملتقطاً مبادلاتهم المزوّجة المتشابكة، التي لا أجد لها اسماً، متابعاً أجوبتهم جيئة وذهاباً، وأنا مقيم في جهلي لما تعنيه، متمائلاً حسب إيقاعهم، مندفعاً إلى أمام حسب توقعاتهم، يساورني شعور بأنني مطوّق بأغنية، أغنية ولدت من وحشتهم الجمعية، أغنية تغنى بلغة أجنبية، أغنية بلا صوت.

«هذا القطار مرصود للمجد، هذا القطار

هذا القطار مرصود للمجد، وهو مقدس طالما أنك راكبه»

(خماسي، بيدفيل، شيكاغو ١٩٧٢)

كنت مؤخراً أستمع وأشهد الرئيس الفرنسي يتحدث إلى الأمة لما يقارب ثلاث ساعات خلال مؤتمر صحفي متلفز. خطابه كناية عن معادلات حسابية، أي إنه منطقي ويدعو للحكم على النتائج. ولكنه لا يشير إلى واقع ملموس أو تجربة معيشة أو بالكاد.

يتمتع الرئيس بروح النكتة، وهو ذكي، يوحى بأنه مخلص، وبأنه يؤمن بالتحالف مع كبار رجال الأعمال الذي يدعو إليه، مع أنه انتخب بما هو مرشح اشتراكي. لماذا الخطاب فارغ إلى هذا الحد؟ لماذا يبدو أنه مونولوج من الكلمات المتقاطعة؟ لأن الرئيس تخلى عن أي حس بالتاريخ، وفقد بالتالي أي رؤية سياسية بعيدة المدى، إنه يعيش ليومه، من منظار تاريخي، لقد تخلى عن الأمل، من هنا معادلاته الحسابية، الأمل يستولد مفردات سياسية، فقدان الأمل يعدم الكلام.

بهذا أولاند هو نموذج للحقبة التي فيها نعيش. معظم الخطابات والتعليقات الرسمية صماء في ما يتعلق بما تعيشه وتتخيله أكثرية الناس في نضالاتها من أجل لقمة العيش.

توفر أجهزة الإعلام الترفيه المباشر والتافه ملء الصمت، ولولا ذلك لأخذ الناس يتساءلون عن العالم الظالم الذي يعيشونه. يتكلم قادتنا والمعلقون في أجهزة الإعلام عما نعيشه بالكركرة، والكركرة هنا ليست صوت الديك الرومي بل هي صوت حيتان المال.

يصعب في أيامنا هذه التعبير عن تجربة الوجود والمصير بواسطة النثر، النثر، بما هو شكل من أشكال السرد، يعتمد على حد أدنى من الاستمراريات في المعاني المتعارف عليها؛ النثر هو عملية تبادل مع حلقة محيطة من الآراء والأفكار المغايرة، يعبر عنها بواسطة لغة وصفية مشتركة، ولقد فُقدت هذه اللغة المشتركة، وهي خسارة مؤقتة لكنها تاريخية.

بالمقارنة، تعبر الأغاني عن التجارب الجوانية للوجود والمصير في هذه اللحظة التاريخية المخصوصة - حتى ولو كانت أغاني قديمة، لماذا؟ لأن الأغاني قائمة بذاتها ولأن الأغاني تعانق الزمن التاريخي.

يلزم الإنسان قلق ليغني أغنية قلقة

يلزم الإنسان قلق ليغني أغنية قلقة

يلزم الإنسان قلق ليغني أغنية قلقة

أنا الآن قلق



رسم جون برجر
للوحة بيكاسو



«بشارة مريم»
أنطونييلو دا ميسينا
حوالي العام ١٤٧٠



رسم جون برجر للوحة
أنطونيللو دا ميسينا

ولكنني لن أبقى قلقاً لفترة طويلة

(وودي غوثري)

إنّ الأغاني تعانق الزمن التاريخي دون أن تكون أغاني طوباوية.

إنّ التجميع الإجماعي للزراعة، والمجاعة التي تسبب بها، في الاتحاد السوفياتي ومعسكرات الاعتقال (الغولاغ) السوفياتية التي أعقبتها، وما رافقهما من موسوعات من اللغة المتنافقة، بوشرت ونفذت بلا هوادة وجرى تبريرها باسم الطوبى التي سوف يعيش في ظلها الإنسان السوفياتي الجديد، غير المسبوق في التاريخ.

بالمثل، فالبوّس الإنساني المتوسع باستمرار الذي ينشأ على الصعيد العالمي الآن، والنهب المستمر للكرة الأرضية يجري تنفيذهما والتبرير باسم طوبى تحرسها قوى السوق، عندما تكون منفصلة من أعقلتها، تصير هي نفسها طوبى حيث «يستطيع كل إنسان أن يصوّت لصالح لون ربطة العنق الذي يختار»، حسب تعبير ميلتون فريدمان.

السعادة إلزامية في كل طوبى. وهذا يعني في الحقيقة أن السعادة لا يمكن بلوغها. والشفقة، في منطق المذاهب الطوباوية، تعبير عن ضعف. الطوباويات تكره الحاضر. الطوباويات تستبدل الأمل بالعقيدة. والعقائد تحفر حفراً وتنزل تنزيلاً، بالأمال، بالمقارنة، تومض مثل نور شمعة.

الشموع والأغاني تواكب الصلاة. وللصلاة وجهان في معظم الأديان والمعابد والكنائس، حتى لا نقول فيها جميعاً. قد تكرر العقيدة إلى ما لا نهاية أو هي قد تحيي الأمل. وما تقرره ليس يعتمد بالضرورة على مكان الصلاة أو ظروفها، انها تعتمد على حكايات المصلين.

بلدة صغيرة اسمها «سان أندريس ساكاشين دي لوس بويريس»، في ولاية «شياباس»، جنوب المكسيك، فيها كنيسة صغيرة. من الكنيسة يرتفع صوت غناء خفيض. لا يوجد قسيس داخل الكنيسة. المرتلون الأربعة واقفون. شابان وصبيتان. والأربعة هنود محليون. يقف الرجلان على مسافة من المرأتين والأربعة يغنون بأصوات متعاكسة. والمرأتان تحمل كل منهما طفلاً على ظهرها. في جانب من الكنيسة تمثال بحجم طبيعي للقديس أندريس الرسول، محفور في الخشب. إنه يرتدي جبّة وسروالاً ليس محفوراً وإنما هو من الثياب الحقيقية. على أرض الكنيسة خلف المذبح نحو ألف شمعة، عديد

منها في جرار زجاجية صغيرة. الباب الجانبي خلف المذبح ترك مفتوحاً بهبّ منه تيار هوائي على شعلات الشموع التي ترتجف وتتمايل. إيقاع الأصوات وإيقاع وميض شعلات الشموع.

أخيراً يبكي أحد الطفلين طلباً للطعام. يتوقف الغناء وتعطي المرأة ثديها للطفل ليرضع. المرأة الثانية، التي لا يزال طفلها نائماً، تلتقط حقيبة عند قدميها، تخرج منها جبّة، تفتحها وتسير نحو تمثال القديس أندريس، تستبدل الجبّة التي يرتديها التمثال بالجبّة التي تحملها. الجبّة بحاجة إلى غسيل، كما توقعت. وألف شمعة، ترتفع بضعة سنتيمترات على أرض الكنيسة، لا تزال ترتجف في مهب الريح.

توفيت سيزاريا إيثورا العام الماضي. لم تصبح نجمة عالمية إلا عند بلوغها العقد السادس. كانت تغني أغاني برتغالية تعود إلى أفريقيا الغربية السوداء بلغة ولكنة ليس يفهمها معظم الناس الذين لا يتحدثون من «كابي فيردى». كانت عنيده، لا تساو، وتصرّ على موافقها. نبرة صوتها هي نبرة مراهقة تجرّب حظها في خمارة للبحارة قبل أن تعود إلى البيت للاهتمام بأمتها المريضة. «لكل كلب خادمه» قالت ذات مرة. عندما طافت العالم وملأت الصالات الضخمة بالجمهور، لم تكن توحى بالإكزوتيكية. كان لها وجه مستدير مثل نهد. عندما تبتسم، وغالباً ما تفعل، تبتسم البسمة التي تعقب استيعاب حدث مأسوي.

يستمتع الأغنياء إلى أغانيها؛ والفقراء يتشبّثون بها ويتبنونها. «الحياة مكثّرة من مَرّ وعسل»، قالت إيثورا. أتذكر الآن قصيدة مذهشة لمويا كائن:

وحدهم اخرومون من أي جمل،

يحملون دوماً للأغاني

إلى بابل،

إلى الميسيسيبي

بعضهم كان آخر ما امتلكوه أقل من لا شيء،

حتى أجسادهم لم تكن ملكاً لهم

ومع ذلك، بعد ثلاثة قرون، كانت إيقاعات أفريقيا العميقة

المخزونة في قلوبهم، المغروسة في عظامهم،

تحمل الأغاني للعالم.

للذين هجروا البلاد،

للصبايا في «داونغز» و«روسيس»

الذين يرافقون مراكب الصيد شمالاً إلى «شتلاند»

تشق فضة البحر وهي تبحر؛
 او للصبيبة في «رانافاست» يستقلون مركب «ديري»
 ينامون فوق الحبال في الأكواخ،
 كانت الأغاني عملة أرواحهم
 ومعدن قلوبهم الصافي،
 تُستبدل بذهب آخر،
 بأغاني أخرى تصدح بالصدق والنور
 عندما ترمى
 على موائد ألعاب النرد لأيامهم.
 (مويا كائن، حمل الأغاني، منشورات كاركانيت)

جاء دور دافيد (اثنتا عشرة سنة من العمر؟) ليؤدي
 وصلته. عدد المشاهدين لا يتجاوز نصف الدزينة من
 الأشخاص. إنه منتصف النهار والناس في أشغالهم.
 يمتطي دافيد دراجته ذات العجلة الواحدة. يقودها نزولاً
 إلى الشارع، يستدير ثم يعود باذلاً الحد الأدنى من الجهد.
 يقوم بهذا الاستعراض من قبيل تقديم أوراق اعتماده.
 ثم ينزل إلى الرصيف حيث كرة جلدية محشوة
 بحجم يقطينة كبيرة. يقذف نعليه ويعتلي الكرة، محرراً
 إياها بكعبيه و متمسكاً باستدارة الكرة بأخمص قدميه،
 يقنع الكرة ببطء أن تتقدم فيتقدماً معاً. يحافظ على ذراعه
 إلى جنبه. لا شيء يوحي بأنه يبذل أي صعوبة في حفظ
 توازنه على الكرة المتدحرجة.

يقف على الدراجة عالي الرأس ناظراً إلى بعيد، مثل
 تمثال على قاعدته. ويتقدم هو والكرة منتصرين بخطى
 سلحفاة بطيئة جداً. وعند لحظة الانتصار هذه، يصدح
 بالغناء يرافقه أبوه على الهارمونيكا. لدافيد ميكروفون
 صغير ملتصق قرب عظمة فككه اليسرى.

الأغنية من سردينيا. يغني بصوت تينور بلا نشاز.
 إنه صوت راع مستوح، لا صوت صبي. تصف الكلمات
 حالة امرئ أصيب بالنحس، وهي حكاية قديمة قدم التلال.
 النحس والانتصار متلازمان في وصلة استعراض
 تمنى وأنت تشاهدها أن يستمر الاستعراض إلى ما لا
 نهاية. صور بيكاسو المشهد ذاته حوالي العام ١٩٠٠.

النحس والانتصار. حاولت أن أفسر لماذا في أيامنا
 هذه تستطيع الأغنيات أن تشير، بطريقتها الفريدة، إلى
 تجربة أي منا في العالم الذي نعيش فيه، فنستطيع بذلك
 أن نشارك غناءك، يا ياسمين.

بيدك اليمنى تمسكين الميكروفون، كأنه مهّد بأن يجرفه
 تيار. وفيما يصل صوتك إلى درجة معينة، تشيرين بيدك
 اليمنى. تشيرين عمودياً إلى الأرض حيث أشرطة الكهرباء
 متكومة قرب حذائك الأحمر. وإبهام يدك اليسرى تشير إلى
 أسفل لا لتلامس طرف سبابتك بل طرف إصبعك الثانية.
 وسبابتك مطوية لتلامس باطن إبهامك الذي خفي عنّا
 طرفه. وفيما ينخفض صوتك، وأنت تغني أغنيتك عن ليالي
 السهر، وتعلن هذه الحركة أنّ بوز الأغنية يستريح في كفك.
 نبدأ، نحن المستمعين، بالتصفيق لإيقاعك. لا علاقة
 لتصفيقنا بالتصفيق العادي. غرضه التزخيم وشحذ
 الانتباه المشترك الضروري للانتقال إلى الهناك.
 وكما تجربنا على أن نأمل، فجأة يأتي الهناك إلى هنا
 من خلالك.

للطريقة التي بها يلعب المغنون رتابة الزمن، أو يتحدثونها،
 خصائص مشتركة مع ملاعبة البهلوان والألعاب لقوة
 الجاذبية. شاهدت أخيراً في بلدة فرنسية عائلة بهلوان
 تؤدي عرضاً عند ناصية شارع قرب السوبرماركت: أباً
 وابنته والأبناء الثلاثة. وثمة كلب أيضاً، هو كلب صيد
 إسكوتلندي. علمت لاحقاً أن الكلب كان يسمى نيللا
 والأب ماسيمو. الأولاد كلهم مهزولون وزرق العيون.
 ماسيمو مربع ومهيب.

نبدأ. نحن المستمعين. بالتصفيق لإيقاعك. لا
 علاقة لتصفيقنا بالتصفيق العادي. غرضه التزخيم
 وشحذ الانتباه المشترك الضروري للانتقال إلى الهناك.

الابن البكر، لعلّه في السابعة عشرة، وربما أكثر،
 يصعب تكهن أعمارهم لأنهم لا يعرفون فئة عمرية
 اسمها «الطفولة» هو الألعابان والساند الرئيسي.
 الصبيبة، وعمرها ست أو سبع سنوات، تتسلق عليه كما
 لو أنه شجرة، شجرة تحولت إلى جسر سقف استجسست
 عليه. يقف الوالد على مسافة ليست بالقصيرة خلفهما.
 إلى جانب حجارة الطريق بين قدميه، مكبّر للصوت
 وجهاز موسيقي. يراقبهما بعيون جاحظة وهو يعزف
 على الغيتار.

يصير جسر السقف الخشبي مصعداً ينزل الفتاة
 أريانا برفق إلى الأرض. ويخرّ الولد مثل مصعد، ببطء
 شديد شديد، فيما الفتاة تراجعت خطوة على حجارة
 الطريق على وقع غيتار أبيها.

الهيبة هوب العربي «الراس» والهوية الجديدة

زياد الدلال

باحث في
الأدب المقارن
في جامعة نيويورك،
لبنان.

أو معرفة الآخر، بل يبرز ارتجال يتحرك من مكان يكمن وراء سؤال لم يُسأل» (Moten and Harney، ص ١١). هذا الشعور بالألفة والوحدة في حالة التشرد يفسره جاك هالبرستام عبر استحضار مغنيين للهيبة هوب، هما جاي زي (Jay-Z) وكانيه ويست (Kanye West)، حيث كلمات أغنية «لا كنيسة في البرية» (No Church In The Wild) ترمز إلى «الوحدة في التشرد».

عمل هالبرستام في مجال الدراسات الثقافية ساعدنا في الكشف عن كيفية اقتفاء أساليب جديدة للتكوين الثوري من خلال ما يسود ثقافتنا اليومية. بعبارة أخرى، ساعد هالبرستام على خط الصلة بين النشاط الحراكي والفن بمختلف أنواعه. وهنا نعبّر الباب الذي فتحه لنا هالبرستام وننتجه إلى أعمال ثقافية من أجل رصد ما توفّره لنا من أساليب خلاقة للفكر والحراك الثوري. ويأتي هذا الرصد لإزالة الاعتقاد الشائع بعدم أهمية الثقافة للحركات النضالية. ويأتي ما يلي بما هو رفض لهذا الاعتقاد واقتراح يقول بأن الأعمال الثقافية يجب أن تُفهم وأن تُستعمل كقوة جذرية.

هذا الاقتراح يجد مبتغاه في صعود موسيقى الهيبة الهوب العربية، فبينما كتب الكثيرون عن تنوع أشكال الأدب العربي ليشمل المدونات والمقالات المصورة، نجد القليل من الاهتمام بالحقل الموسيقي والسمعي عامةً. ومن خلال التركيز على أداء الهيبة الهوب العربي، نلاحظ أن الإثنين معاً، المجال الأدبي والمجال الموسيقي، أو المجال المكتوب والمجال المسموع، يستمتعان بالأهمية المطلوبة، فالمرء لا يستطيع أن يفصل بلاغة الكلمات عن نبض الموسيقى وذبذباتها. وقد أخذت موسيقى الهيبة هوب أهمية على الصعيد الاجتماعي - السياسي عربياً وعالمياً، فتم ترشيح المغني والناشط المغربي معاذ بلغوات

أحدثت الاعتصامات والثورات التي انفجرت في العالم منذ أواخر عام ٢٠١٠ وأوائل عام ٢٠١١ دويماً في وعينا النظري العملي، مكنتنا هذه الثورات من رؤية (وإن كانت رؤية لا تتعدى اللمحات) الخراب المذهل الذي يكسو العالم في القرن الحادي والعشرين. إن ما يميّز هذا الخراب في هذا القرن ليس فقط كميته، بل كونه مشتركاً في كل أنحاء العالم. لا شك أن تجربة الخراب المشترك هذه هي منسجمة حول العالم لتحدث أو تُنتج حركات عالمية من دون مركز أو محور أساسي. هذه الحركات ليس متجانسة، لكن ما يجمعها من صفات بالرغم من اتساعها وانفصالها جغرافياً هو أفقيتها، وبسبب أفقيتها يكون عدم تجانسها سبباً لانتعاشها.

هو خراب مشترك، لكنه ليس بأساً مشتركاً. في مصر، تحمل راية مكتوب عليها «الأيأس خيانة». ترمز هذه الراية إلى الوعي الذاتي لهذه الحركات. تصوّر الإحساس الضمني المتعذر تفسيره، إحساس يُعلمنا أن كل الأسى والكآبة والفقر الذي تعيشه الدول القومية، تواجهه رغبة تتضاعف وشوق يتكاثر وحب يكبر لشيء لا يكون معارضاً فحسب بل مختلفاً اختلافاً جذرياً عن الصورة الظاهرة لزمن وسياسة الحداثة التي نعيشها منذ فترة.

شكلت هذه الحركات غير المتجانسة تعبيراً ومحرّكاً لصلوات وصل تعبر وتتفوق وتتخلّى عن القومية المنهجية التي سادت في القرن العشرين. صلات الوصل هذه تُنتج تحالفات «توحدنا في إقرارنا بأنه يجب علينا أن نغيّر الأمور أو أن نموت، كلنا» (Halberstam، ص ١٠). يصل جاك هالبرستام هذه التحالفات بما يدعوه ستيفانو هارني وفريد موتن بالكون «معاً في حالة تشرد»، أي رفض ما تم فرضه من «موقع لا يبرز منه الوعي الذاتي

يمنع من فتح الدعوة إلى كتابة دراسات ومقالات أخرى تعطي الجانبين اللغوي والشعري ما يستحقان.

ما بين الراس والحركات الثورية

وُلد مازن السيد في طرابلس شمال لبنان سنة ١٩٨٤ وبدأ كتابة الشعر باللغة العربية عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. أمضى وقته بين فرنسا ولبنان، مكرساً سنوات من حياته من أجل دراسته في المهجر. عندما سئم من عمله بمصرف في فرنسا عاد إلى لبنان، وقد تمكن من الحصول على عمل في جريدة «السفير» فاستقر في لبنان مستعداً لدمج شعره بموسيقاه. على صفحة الساوند كلاود (SoundCloud) الخاصة به، يعرف «الراس» عن نفسه قائلاً:

لست نفسي كي أكون

أنا طائر النار المسافر نحو أسرار التراب

أستعيض عن النعاس باحتمالات العتاب

لأعود وأعود وأعود

حتى أعلق النجوم بالعيون

صدقوني أنا لست نفسي كي أكون

عروبتني بداوة إلكترونية عمق جذورها بامتداد أغصانها فلا عصبية، ولا حنين إلى الماضي، بل شغف في صناعة

الهوية الجديدة

هكذا أقرأ الثورة وهكذا أكونها

الحب للكل، والحق لمن يريده.^٢

يبدأ الراس بنكران ورفض القومية العصبية والحنين إلى الماضي. لا يقف على أطلال ماضي الحركات القومية، وبهذا يرفض خصيصاً الحركات القومية التي سيطرت على الحقل السياسي في القرن العشرين. بدلاً من الاعتماد على الخطابات القديمة الماضية، يشير الراس إلى مفهوم جديد ودائم التجدد للهوية، وهي هوية متصلة بمفهوم الثورة المستمرة على الذات. ومن هذا المفهوم للهوية، أي مفهوم الولادة المتكررة، يؤلف الراس موسيقاه وأغانيه ويجسد ثورته في كلماته. هذا التعريف يُمكن قراءته كإعلان عن نوايا للقيام بثورة ثقافية عبر «شغف في صناعة الهوية الجديدة»، تشير الثائرة غرايس لي بوغس إلى أهمية القدرات الفردية للإبداع والاختراع في أي حراك ثوري قائلة «اعتماداً على المهارات والمصالح، والمكان الذي نعيش فيه، معظمنا يحمل ويستمر مع

«الحاقد» ومغني الراب التونسي علاء اليعقوبي للحصول على جائزة سنخاروف لحرية الفكر في أيلول / سبتمبر من العام ٢٠١٤^١. هذان الترشيحان برهان على أن ساحة الموسيقى البديلة في العالم العربي لا تزال ساحة تخلق خطابات ضد الخطاب المهيمن والسائد. يستمحو هذه المقالة حول عمل فني واحد هو النتاج الفني لمازن السيد، أو الراس، كما يُعرف. كما ستركز على ألبوم الراس الأول «كشف المحجوب» وبضع الأغنيات التي نُشرت في الفترة عينها.

بالطبع لا يمكن حصر نتاج الهيب الهوب العربي في العمل الفني للراس، إنما قوة هذه الموسيقى والكلمات تكفي لعرض صدى هذا العمل مع الحركات النضالية في العالم العربي والعالم بأسره.^١

كل الأسى والفقر الذي تعيشه الدول القومية تواجهه رغبة تتضاعف وحب يكبر لشيء لا يكون معارضا فحسب بل مختلفا اختلافا جذريا عن الصورة الظاهرة لزمان وسياسة الحداثة التي نعيشها منذ فترة.

من الأسباب الدافعة إلى كتابة هذه المقالة ميل الكثير من الناس لغض النظر عن هذا النتاج الموسيقي وتقييمه فقط كتسلية عابرة. تجادل المقالة ضد هذا الرأي عبر كلمات وإنتاج الراس، أن هناك عبرة سياسية وفلسفية وراء موسيقى الهيب هوب. سوف تبرهن هذه المقالة أن نتاج الراس الموسيقي والشعري ليس مجرد وصف لواقع العالم الذي نعيشه، بل إنه أيضاً رسالة من أجل مفهوم مغاير للهوية. هوية تتناسب وجزءاً لا يتجزأ من العالم الجديد المرجو بناؤه. من جهة، يهدف هذا المقال إلى إظهار النغمات الفلسفية والنظرية السياسية التي تتخلل الإنتاج الثقافي من موسيقى الهيب هوب على نسق الراس، وفي هذا توكيد للرسالة السياسية الثورية لهذا النتاج الموسيقي.

ومع ذلك، لا يهدف هذا إلى التعتيم على النقاش الجمالي والشعري لهذا النتاج أو تهميشه. فالراس ثوري في استخدامه اللغة العربية، سواء العربية الفصحى أو العامية والشعبية، كما في رسائله السياسية. فإذا كان الجانب الجمالي واللغوي غائباً في هذه المقالة، فهذا تقصير من كاتبها وليس من موضوعها. إنما ذلك لا

١ Beinin, Joel. «Can Arabs Be Human Rights Defenders?» *Jadaliyya* ١٠ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٤

٢ من صفحته على ساوند كلاود

هذا العمل الفظ سلسلة من التخيلات المألوفة التي تصف الواقع القاسي والوحشي، منها على سبيل المثال الأبيات الثلاثة التالية للجزء الأول:
تخيل طفل عندو موهبة شعرية بالقطرة بس لغة شعبو منقرضة.
فمات شب وانتتهت جثثو مكبوبة مصوبة بباطون مدينة بيئية بشى دولة خليجية.

مدركا أن ندرة الوظائف تحد من إمكانات النشاط الإبداعي والثقافي، كما أنها تؤدي إلى حركات هجرة ضخمة باتجاه الدول الخليجية، يقرّ الراس في هذه الأبيات بعدم استقرار الحياة اليومية ويشهد على صعوبة المناورة في الحياة اليومية بعيداً عن تدفقات نط الإنتاج الرأسمالي. الأبيات تؤكد عدم إمكانية تعزيز المواهب الفنية في عالم يقدم لك خيار العمل في الخليج أو الموت. ومع ذلك، فإن هذه الأبيات ترفض هذين الخيارين بين الموت والحياة، فمجرد كون الفرد في حالة دين يُعتبر موتاً فوراً.
لكن الأغنية لا تترك المستمع فاقداً للأمل. في وسط الأغنية، التخيل يصبح مصدر تضامن:

تخيل، تحوّل على غيرك
بإحساسه تجوّل على كيفك.
تعزّف على ضعفو تتعرف تدافع عتو بسيفك والقلم،
بعلملك والعمل.
بالحلم المرسوم بشظايا الأمل.

تستحضر هذه الأبيات حلاً للتحالف الجذري بين العالم، وهو تحالف يجمع بين فئات العالم بالرغم من تشتت المجتمع تحت الرأسمالية. كما أنها تنسجم مع بيان «Una Huelga de Mucho Cuidado» [إضراب بعناية كبيرة] من قبل مجموعة الـ«Precaris a la Deriva». هذا البيان يصرّ على ما يسمّيه تسلسل «تواصلية» الذي يصر على دحض القيمة المبادلة للتواصل الاجتماعي عبر رفعه إلى الأعلى وتهجير به بعيداً عن الطبيعة التشبّثية للرأسمالية.

«أنا مش أنا»

التلاعب بين الأمل والسخرية في أغنية الراس يرمز إلى طاقة طويابة تفرض تغيير أوضاع بائسة ومقفرة. كل

ثورتنا الثقافية بطريقتنا الخاصة، على سبيل المثال، قد يقرّر الطبيب أن يمارس الطب البديل، وقد يقرّر المدرّس أن ينشئ صفّاً أكثر ديمقراطية إلخ. ومهما كان خط عملنا، نرى أنفسنا وثقافتنا كأعمال في قيد التطوّر» (ص ٤٣).
مستخدماً أدواته الموسيقية وكلماته، يعبر الراس عن ثورته الثقافية عبر كلماته وتعليقه النقدي.

لا ينبع هذا التعليق والوعي النقدي من شعور رجعي باليأس، بل من خيار للتخلي عن مرض هذا العالم: الرأسمالية المالية. فبعد أن درس الرياضيات المالية والتمويل في فرنسا، واجه الراس بوضوح كل تقاسيم وخرائطية الأيديولوجيا النيولبرالية، فانعطف تجاه الشعر، الذي هو «مورد خفيّ يَكُننا من التحول من نموذج واحد إلى آخر» (Berardi، ص ١٤٠).

التلاعب بين الأمل والسخرية في أغنية الراس يرمز إلى طاقة طويابة تفرض تغيير أوضاع بائسة ومقفرة. كل لحظة تصبح فرصة لتغيير جذري في منطق الهويّة.

في أحد تعليقاته الأولى على إنتاجه، يقول الراس: «اخترت أن أسمّي موسيقي (تعليقاً)، وفي هذا إشارة إلى عملية التعليق في اللغة العربية، كما تشير إلى ذلك كلمة عربية تأتي من الجذر نفسه، (معلّقات)، التي هي جسم الشعر الجاهلي والتي تم اختيارها وتعليقها بالحبر الذهبي على جدران الكعبة في مكة المكرمة»^٣.

من داخل مشهد وسوق موسيقيّ مُحتكر من قبل شركات إنتاج كبيرة، حيث يتكرّر إنتاج الأغاني السيئة، يأتي تعليق الراس ليعقد الصلة بين الهيب الهوب العربي والناتج الشعري العربي من الشعر الجاهلي إلى الشعر الحديث، كما أنه يُقحم في موسيقاه وكلماته نزعة أو مزاجاً جذرياً وراديكالياً، متحدّثاً عن مواضيع التشدد، والمجتمع، والعدالة، والفساد.

الأغنية الثانية من أوّل ألبوم موسيقيّ للراس تفتتح بكلمات المفكر الماركسيّ اللبناني مهدي عامل. الأغنية، واسمها «تخيّل» يغزوها طلب التخيل. لكن التخيل يعمل هنا ساخراً من الواقع، مسلطاً الضوء على الأوضاع المعيشية اليومية البائسة. إذن يفتتح ألبوم «كشف المحجوب» بطلب من المستمع ليتخيل «زحف مرمية على سجادة ركض بقاعة تمرين رياضية»، يتبع

٣ من صفحته على الفايسبوك



لحظة تصبح فرصة لتغيير جذري. هذا التغيير، في جذره، يكون تغييراً في منطق الهوية في آن واحد. في أغنية أخرى تحت عنوان «أنا مش أنا»، يتطرق الراس لعصب كل عصبية ومنطق الجوهر للهوية.

تسود أغنية «أنا مش أنا» انتماءات تنسب إليها الكثير من الخلافات، عصبية كانت أم طائفية. علاوة على ذلك، ثمة أبيات تفرض تجاوزاً أو تراصاً بين ثوار ذوي خلفيات مختلفة كعمر المختار — أستاذ قرآن لبيبي ساهم وقاد حروب الغوريلا ضد الاستعمار الإيطالي — وتشني غيفارا. تجاور هذه الشخصيات المتناقضة عقائدياً وأيدولوجياً يبرز قيمة البيت الشعري في قدرته على حياكة معنى بالرغم من التوتر اللفظي والدلالي. وعلى درجة أعلى، هذا التجاور يعطي معنى وقيمة للمفارقة التاريخية والجغرافية للشخصيات عبر إعطاء الأهمية لمشاركتها النضال ضد قوى الاضطهاد والاستعمار. وإذ يصف الراس نفسه على صفحة «الساونكلود» قائلاً: «لا للقومية، لا للحنين»، فأغنية «أنا مش أنا» تأتي وقية لمعنى هذا الوصف الذاتي.

في الجزء الثاني من الأغنية، يعبر الراس بين هويتين طائفتين عبر انتقاله من بيت شعري إلى آخر:

أنا سني من الروافض

أنا شيعي من النواصب

أنا «ميكس» بين أبو بكر وعلي بن أبي طالب.

يلغي الراس في هذه الأبيات الفرق بين الكيان السني والكيان الشيعي، معبراً عن وجود هويته في الطائفتين معاً وعن إمكانية ربط ووصل الخلاف الطائفي بين السنة والشيعية. هذا الربط بين الطائفتين يُكمل مجاز التسلسل التواصلية بين الناس كضرورة الرؤية والشعور عبر الآخر ورسم الأحلام بشظايا الأمل. التسلسل التواصلية يوازي هويات مختلفة ويوجهها نحو الاهتمام ورعاية بعضهم بعضاً ويبرز النضال المشترك بين هذه الهويات المختلفة.

تعبّر غرايس لي بوغس عن التسلسل التواصلية بالقول: «بدلاً من الفكر الاختزالي، الثنائي، المقسم، أو الفكر الذي يلقي اللوم على الآخرين، التحرك الاجتماعي [المرجو] يؤكد على وحدة العقل مع الجسد والروحي مع المادي، كما يشجع وعياً يرفض الحتمية — الاعتقاد بأن الماضي يعرّفنا ويحدنا — ويدحض كل

❖

كل صور هذا المقال
للمراس من حفلة
«بالعرس جيناكم»
احتفالاً بزفاف
الرايبر ناصر الدين
الطفار في مترو
المدينة في بيروت





كون الطوفان وسَمع صوتك للكون
كون نبض انقلاب على موسى وعفرون.

من الانفراد إلى الكتابة، تنطوّر الأغنية لتصبح أغنية نصائح للثوار والناشطين حول العالم. الأغنية تعبّر عن شبكات التواصل بين النضالات العالمية، من لبنان إلى سورية إلى فلسطين وصولاً إلى حركة «احتلوا وول ستريت» (Occupy Wall Street). تتضح صورة أميركا التي يمكن اعتبارها مجازاً للرأسمالية، كعدوّ مُشترك يعمل كـ«علقة» تمصّ الدماء من الجسم المضيف، تُضعف أغنية «أمة الظلم» وجهة النظر القومية وتؤكد أهمية الحراك خارج إطار الدولة في آن معاً.

الأغنية دعوة إلى نظام حكم يكون بديلاً للهيكल العمودي الحالي، ويتكوّن من صلات وصل تخلق مجتمعات أفقية تراعي بعضها بعضاً. في مقال بعنوان «الجمهورية التأسيسية» يدعو أنطونيو نيغري إلى وجهة نظر تعتبر الحياة «تمزداً يومياً، ومقاومة مستمرة، وقوة تأسيسية، وتكون وجهة النظر هذه رافضة وكاسرة لـ[الواقع المفروض عليها]، تكون خيالية، والخيال هو أساس كل العلوم السياسية» (ص ٢١٩).

بالإضافة إلى ذلك، تريد هذه النظرة الجديدة الوصول إلى تشكيل جذري «لجمهورية تعتمد على قوة الشعب من دون الاعتماد على مال الأمير [الميكيا فيللي]»، تاركة وراءها الحاكم أو الأمير الذي ينام على جثث الشعب ورافضة لسم رأس المال، تظهر «أمة الظلم» كأغنية عن أشكال جديدة لتشكيل المجتمع تتفق مع القيم الثورية لمفهوم الهوية الجديد.

«أمة الظلم» تتناغم مع أغنية أخرى للراس عبر خطابها لثوار وناشطين. يغني الراس في أغنية «من ثائر» (هون فهمت وحدة حبري ودمي)، ويوجّه هذا الفهم في شكل رسالة، ولكن هي رسالة تأتي من مختلف المناطق:

هبيدي رسالة من التحرير، من وديان كشمير
هبيدي رسالة من نابلس، من الجوعان بطرابلس
هبيدي رسالة من البصرة
من ريف حمص الحرة
من كل محمد الدرة والبوعزيزي
هبيدي رسالة من بنغازي
من ملثم بسينا بفجر أنبوب الغاز
من تونس، من مهد الثورة

مطلق. كما أنه يدعم وعياً يجد المتعة في عبارة الحدود، وعياً لا يعتمد على قوة غير طبيعية بل يكون (طبعانياً)، ويطمح إلى تمكين الآن والآخر وليس للقوة والتحكم بالآخر» (ص ٤١). هي تقوية الآن والآخر ضد «أمة الظلم»، وهو اسم أغنية أخرى للراس.

الآن والآخر

في «أمة الظلم» يبدأ المتكلم معبراً عن صعوبة الكتابة عن الشام: «لما أكتب عن الشام، إيدي بترجف». ولكن مع تقدّم الأغنية ينتقل مزاجها من البارد إلى الدافئ. لا تعود مساحة ومجال النضال محصورين بمنطقة جغرافية معينة، بل يشملان العالم بأسره. في البداية، الراس يقدّم سرداً للأحداث الجيوبوليتيكية في المشرق العربي منذ العام ٢٠٠٥، وذلك لإبراز نفاق السياسيين. في نسيج من الكلمات والإيقاع، بداية الأغنية تصل نضال الشعب السوري مع نضال اللبنانيين ضد السياسيين الفاسدين. وأبرز مثال على ذلك قوله: «لو حكمهم السنيورة كانوا اختنقوا السوريّة». في بداية الجزء الثاني، هذا الوصال الثوري يتوسّع ليشمل فلسطين:

فلسطين حقّ الشعب
والشعب حقّ الكرامة
الكرامة يجمعها الحاكم والحاكم بقصره نايم.
نايم على جثث الشعب،
والشعب بده فلسطين
وفلسطين بدها الأحرار
والأحرار اختاروا الثورة على النظام.

كتابة هذا البيت تشبه حجة منطقية. الأغنية توازي ما بين النضال الفلسطيني والنضال ضدّ أيّ طاغية أو ديكتاتور. ولكن النضال الفلسطيني يشمل السياسة العالمية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة، ولذلك يقدّم الراس تحذيراً:

العقول الحاملة، مدركة إنو العفن بالنظام العالمي
أميركا علقة بتعيش على المني الآسنة
من كل جسم حيّ يتلوق تهمص الدم للأمانات خائنة
ابتعد عنها يا ابن العم
رأس المال لكل ثورة سمّ مميت
الدعم الأميركاني الوحيد بتأخذوا من العنيد بوول ستريت



من إثيوبية عالدورة
من دوار الشهداء بالمنامة
من تلال النبطية
من رموش عين مقاوم ما بتنام
من سفوح جبال قنديل
من دم شهيد عمبروي النيل
من محتلي وول ستريت، من محتجي أثينا
من دلال المغربي، من ورد نبت عكفنها
من ضواحي باريس والمخنوقين بعفنها

ينسج الراس مواقع عالمية للمعارضة والانشقاق
تتصل ببعضها البعض عبر النضال الثوري. هذه
المواقع والمدن تمتد في سائر الجنوب العالمي والعالم
الثالث المتواجد في العالم الأول (الأقليات والمهاجرين)،
التسلسل التواصلي بين سائر هذه المواقع على الأرض
لا يعني القيام بحركة متجانسة، بل يشدد على إيمان
بإمكانية وجود عالم فيه حركات كثيرة على نسق حركة
الزباباتيسا في المكسيك، تنسج هذه الثورات مع بعضها
البعض بشكل مختلف عن ثورات الماضي. في لهجة
خيبة أمل، يقول الرأس:

عزيزي الوالد
أقننى أن تبارك
ثورات جيلنا البطل
لقد شهدنا ما حصل، وما حصدنا من ثوراتكم
غير الكلام في الغلام
غير العتاب والنحيب
وما نفع أقوالنا وجسمنا معلق فوق الصليب؟
وقدسنا سليب.

الأغنية تنتهي بالابتعاد عن محنة وسوداوية فشل
الجيل الماضي. رغم إدراكهم لعدم استقرار الوضع،
توار اليوم ليسوا سرّيعي الاستسلام في وجه الفشل.
خياراتهم تمتد من القلم إلى السيف إلى جلودهم المحروقة:

فلتستفض أقالمتنا، ولتستفق سيوفنا
فلتحترق جلودنا، لتندفق حروفنا والبنادق

توظيف الجلد المحروق كسلاح ثوري بين أساليب
التمرد المعتادة يدلّ على إدراك احتمال الفشل، لكنّ هذا

الفنل المدلول عليه بواسطة الجلد المحروق هو علامة نجاح مستقبلي ملحوم في الحاضر.

على سبيل الخاتمة

«الراس» مثال لقوة الثقافة الخلاقة، في تماثلها مع حركات اجتماعية حول العالم وتعبيرها عنها وتوضيحها، الأهم من ذلك واللافت في الوقت عينه، هو قدرة هذا النوع الجديد من الإنتاج الثقافي على أن يكون مختلفاً عن محيطه ومتصلاً ومعنياً به في آن معاً، من خارج احتكار أسواق الموسيقى من قبل شركة روتانا السعودية، تظهر سائر الموسيقى البديلة في العالم العربي، ولكن الهيب هوب العربي لم يكن يريد يوماً أن يخلع روتانا عن عرشها الوحيد.

الهيب هوب العربي يوضح عدم أهمية وعدم تقديم

الهيب الهوب من أن تزيل الفرق بين أداء حفلة موسيقية وتظاهرة، من تظاهرات لدعم الثورة السورية إلى تظاهرات غاضبة ضد مجلس نواب لبناني يدّد لنفسه، أغاني الهيب الهوب كانت موجودة دوماً على اللافئات وفي الهتافات، كلمات الأغاني غالباً ما تكون متناسقة مع هتافات شعبية أو مقتبسة من مفكرين شهداء.

شعراء جدد، موسيقى جديدة، قال الفيلسوف الألماني والتر بنجامين إن «الرأسمالية لن تموت موتاً طبيعياً»، جيل ١٩٦٨، والحركات القومية بعد الحرب العالمية الثانية بدورها تعلمنا بصعوبة أن الرأسمالية لن تموت على أيديهم، جيل اليوم، جيل حركات «احتلوا...»، ما بعد «احتلوا...»، وجيل الثورات العربية، يشعر بوجود وقتيات متعددة، ومن هذه التعددية يمكن لهذا الجيل أن يستمتع بالفنل كنجاح، تعدد الوقتيات بعد بطرق مختلفة للنضال والعمل وتكون الثقافة جزءاً منها، تؤثر بالسياسة بتأثيرها في الوعي الجماعي.

في كلمات «الراس» نوع من الطاقة البروميتية وتجسيد لقول برتولت بريشت «الفن ليس مرآة تحمل لتعكس الواقع، بل مطرقة عبرها يُصاغ الواقع»، في «مجلة بيروت للتنشيط الرديكالي» يُسأل «الراس» عن «كيف يمكن للمستمعين أن يدعموا مشروعك؟»، فيجيب قائلاً «حتماً طموحي النهائي هو رؤية العالم يستعمل هذه الأفكار بشكل يومي».

فعلاً، موسيقى الراس تترجم نفسها لأعمال غرافيتي، ولأفكار راديكالية، ولتحركات سياسية، شعره، عبر الاستعانة بكلمات بيراردي يكون «ما لا يمكن تلخيصه بمعلومة، ولا يمكن مبادلتها، بل يعطي الفرصة لمساحة جديدة من التفاهم والتلاقي حول معنى مشترك: خلق عالم جديد» (ص ١٤٦).

تعلن عن موسيقى الهيب الهوب العربية هزيمتها منذ البداية أمام شركات محتكرة مثل روتانا لأن هدفها ليس التنافس. بل هدفها تحقيق التواصل الحي. والشعور الجديد الذي يأتي من هذا التواصل.

روتانا أمة إضافة للإنتاج الثقافي العربي والعالمي. فإذا، تعلن موسيقى الهيب الهوب العربية هزيمتها منذ البداية أمام شركات محتكرة مثل روتانا لأن هدفها ليس التنافس، بل هدفها تحقيق التواصل الحي، والشعور الجديد الذي يأتي من هذا التواصل. هذا الشعور هو نوع آخر من الشعور بالألفة.

كما يقول موتن وهارني «هذا النوع من الشعور ليس جماعياً، لا يُنسب إلى قرار، لا يلتزم أو يُعاد عقده في أي نوع من التسوية أو أمة أو دولة أو قصة تاريخية، كما أنه لا يُستعاد من قبل مجموعة [كإقصاء للآخرين]» (ص ٩٨).

يسمّي موتن وهارني هذا الشعور باللمسية، واللمسية تعبير عن مستقبل لا يُرى بعده، لكن يُلمس، أي الإحساس أن ما هو آت موجود في قدراتنا على التعبير والتحرك والحب، والعطاء والمراعاة، وخلق جذري لماضي مستقبل آت ووضع جذور حيث مُنعت الجذور وتزيين مخاض التاريخ بترددات مختلفة، وبسبب لمسية هذا النتاج الفني تتمكّن موسيقى

المراجع:

Halberstam, Jack. *Gaga feminism: sex, gender, and the end of normal*. Boston: Beacon Press, 2012. Print.

Harney, Stefano, and Fred Moten. *The undercommons: fugitive planning & black study*.

Negri, Antonio. «Constituent Republic.» *Radical Thought in Italy: A Potential Politics*. Minnesota: University of Minnesota Press, 1996. Print.

Boggs, Grace Lee, Scott Kurashige, and Danny Glover. *The Next American Revolution Sustainable Activism for the Twenty-First Century*. 1st ed. Berkeley: U of California, 2012. Print.

Berardi, Franco. *The Uprising: On Poetry and Finance*. Los Angeles: Semiotext(e), 2012. Print.